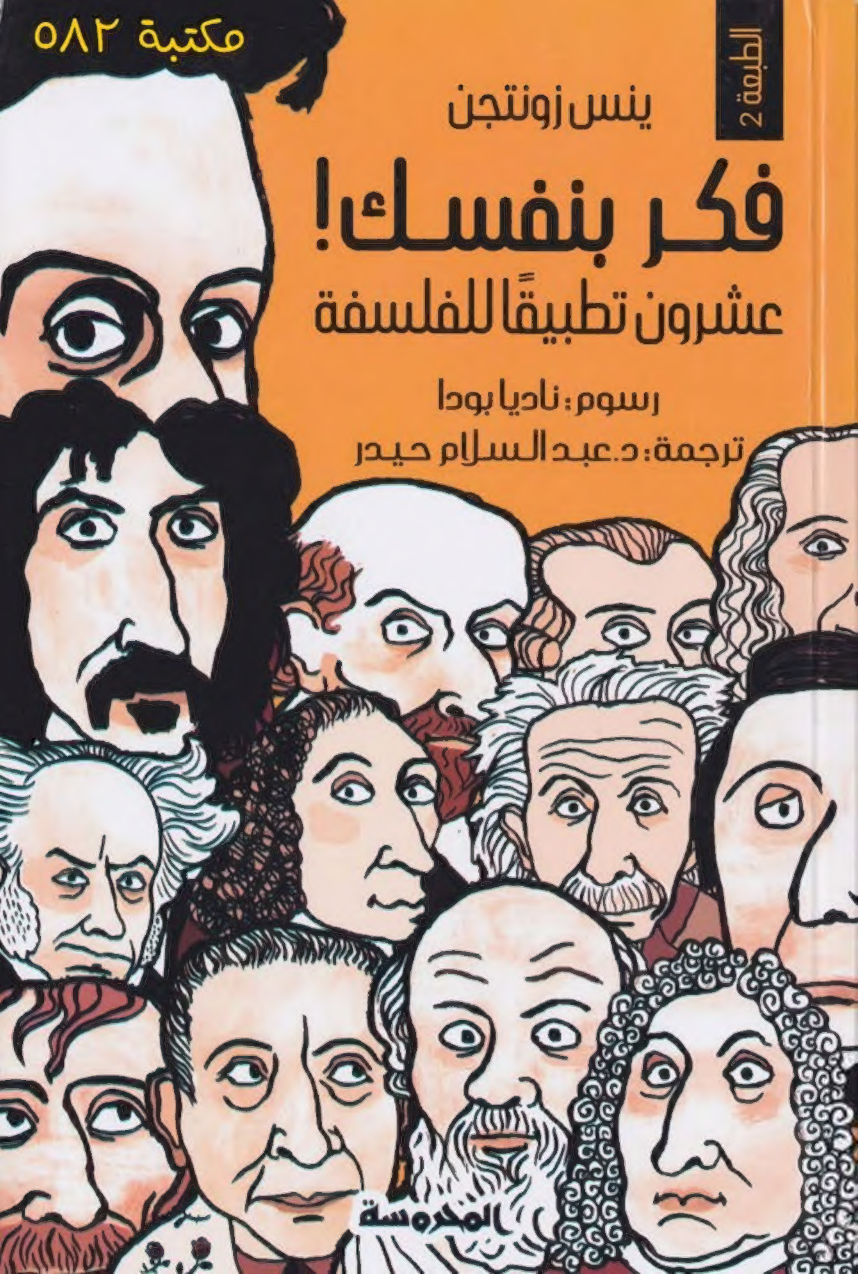


مكتبة ٥٨٢
الطبعة 2
ينس زونتجن
فكر بنفسك!
عشرون تطبيقًا للفلسفة
رسوم: ناديا بودا
ترجمة: د.عبد السلام حيدر
المحروسة

مكتبة | 582

د. ينس زونتجن

فكر بنفسك!

عشرون تطبيقاً للفلسفة

رسوم: ناديا بودا

ترجمة: د. عبد السلام حيدر

عنوان الكتاب: فكر بنفسك! عشرون تطبيقًا للفلسفة

Selbstdenken! Zwanzig Praktiken der Philosophie

المؤلف: د. ينس زونتجن Jens Soentgen

رسوم: ناديا بودا Nadia Budde

ترجمة: د. عبد السلام حيدر





قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت، ف: -002 02 28432157

www.mahrousaeg.com

e.mail : info@mahrousaeg.com

e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر



The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de

رقم الإيداع: ١٥٧٣٠ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي:1-728-313-977-978

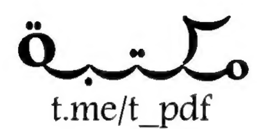
د. ينس زونتجن

فكر بنفسك!
عشرون تطبيقًا للفلسفة

رسوم: ناديا بودا

ترجمة: د. عبد السلام حيدر

مكتبة | 582





فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

زونتجن، ينس

فكر بنفسك!: عشرون تطبيقًا للفلسفة/

ينس زونتجن؛ رسوم: ناديا بودا، ترجمة: عبد السلام حيدر.ـ

ط1. القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، 2018.

274 ص؛ 14.5 × 21.5

تدمك 978-977-313-٧٣١-١

1 - الفلسفة - نظريات

أ- بودا، ناديا (رسام)

ب- حيدر، عبدالسلام (مترجم)

ج- العنوان

١٠١

رقم الإيداع: ١٥٧٣٠ / ٢٠١٨

شكر

شكري القلبي لـ **كاي-أوفه بوكس** و**كونراد هويمان** اللذين راجعا العديد من فصول هذا الكتاب وساهما بالكثير من الملاحظات في تحسينه. كما أشكر بوجه خاص **كارستن جلووت** لآرائها النقدية ومساعداتها المغنية جدًا.. لقد جعل اهتمامها الكتابة سهلة ميسورة.

د. ينس زونتجن

مقدمة المترجم

د. ينس زونتجن Soentgen عالم ألماني من مواليد عام 1967، وهو حاصل على الدكتوراه بعمل حول مفهوم المادة، وهو يعمل - إلى جانب التدريس والصحافة - رئيسًا للمركز العلمي للبيئة بجامعة أوجسبورج منذ سنة 2002. وقد حصل على درجة الأستاذية في الفلسفة سنة 2015 من جامعة أوجسبورج في ألمانيا، ويعمل منذ سنة 2016 أستاذاً مساعداً للفلسفة في جامعة ميموريال بكندا.

وهذا الكتاب "فكر بنفسك! عشرون تطبيقًا للفلسفة" صورة لصاحبه؛ فهو كعالم (تجريبي) لا يهتم فقط بالتاريخ النظري للأفكار الفلسفية، وإنما بتطبيقاتها في المجالات المختلفة، وبطريقة الوصول إليها أيضًا. لذا يهتم بكيفية التفكير أو - كما يقول - بما يفعله الفلاسفة حين يتفلسفون؟ وهو موضوع لا تهتم به الكتب المتخصصة عادة؛ فالكتب التي تهتم بالفلسفة تحكي عن كبار المفكرين وآرائهم وحياتهم، أما التفلسف نفسه فيبقى غير واضح. هذا ما يرينا إياه د. ينس زونتجن بطريقة مدهشة؛ فهو يوصل تطبيقات التفلسف الأكثر تأثيرًا بشكل غير مجرد، وإنما مثل لعبة مسلية يدعو القارئ

للمشـاركة فيهـا، وهـو يسـتخدم في هـذا لغـة طازجـة لا تخـشى الإفـادة مـن اللهجـات الألمانيـة المتنوعـة، وقـد اقتـضى الأمـر منـا أن نجاريـه.

شـكري الخالـص لـكل مـن أعـان وسـاهم في تسـهيل إنجـازي للترجمـة: د. ينـس زونتجـن، ود. أنيتـا بولانسـكا، ود. آنـه غريكـة، وخالـد عبـاس، وسـمير جريـس، وفريـد زهـران، ود. عبـد الرحمـن حجـازي، ثـم هاكـه فريـزل ورشـيد بوطيـب اللذيـن اسـتعنت بمسـاهمتهما المنشـورة عـلى صفحـة مـشروع ليتريكـس.

وفي النهاية أهدى هذه الترجمة إلى أنس وقيس.

د. عبد السلام حيدر

قال الملك: "أيها المحترم ناجاسينا، هل ما زلت تريد مواصلة الحوار؟"

"إذا أردت، أيها الملك، أن تتحاور تبعًا لأسلوب الحكماء فأجمل بذلك، أما إذا أردت ذلك تبعًا لأسلوب الملوك فلا".

"وكيف يتحاور الحكماء أيها المحترم ناجاسينا؟"

"في حوارات الحكماء يتجلى، أيها الملك، لون من الربط والحل، الإقناع والإقرار، وتعرض المقارنات والمعارضات جنبًا إلى جنب. ورغم هذا لا يفقد الحكماء فطنتهم. هكذا أيها الملك يتحاور الحكماء.

نقلاً عن "ميلندا - بانها"، وهو نص هندي قديم من القرن الثاني قبل الميلاد.

المحتويات

مدخل

من بين أطباء العصور القديمة وجدت مجموعة تسمى بالمنهجيين. وقد كانوا - كما يوحى الاسم - عقولاً على أعلى درجة من التنظيم. وكان هدفهم أن ينظموا فوضى الطب؛ فلماذا كل هذه الأساليب التي لا آخر لها، ولماذا كل هذه الأدوية والأعشاب الطبية؟ وكان رأى هؤلاء المنهجيين أن المرء يمكنه أن يعالج كل الأمراض بالطريقة نفسها، وكانت هذه فكرة عبقرية! ولكن ما جوهر هذه الطريقة المفردة والوحيدة؟ مما يؤسف له أننا لا نعلم هذا بدقة، وذلك لأن هؤلاء المنهجيين اختفوا بالكامل من نطاق الصورة بعد أن كانوا - لوقت قصير - "موضة" منتشرة جدًا لدرجة أن تأثيرهم قد وصل إلى القصر الملكي.

وفى مجال الفلسفة أيضًا يسمع المرء، على وجه الدقة، منذ العصور القديمة، بالرأي الذي يقول إن كل المشاكل الفلسفية تُعالج وبسهولة بالطريقة نفسها. ولكن على خلاف المنهجيين في الطب لم ينقرض الفلاسفة المنهجيون. وما زال يعلن حتى اليوم - بشكل متكرر - عن أن هناك من اكتشف "المنهج الفلسفي" الذي إذا ما طُبِّق أحدث تقدمًا في كل المجالات. في القرن الأخير هذا الإطار قُدِّم على

سبيل المثال: الاختزال الفينومينولوجي (الظاهرياتي) أو الهرمينوطيقا (نظرية التأويل) أو التفسير المنطقي أيضًا. وكلما كان الاسم غامضًا كلما كان هذا أفضل. وإذا لم يناسب المنهج موضوعًا ما لمرة أعتبر الموضوع وبسرعة غير ذي فائدة.

ولكن الحقيقة أن المرء لا بد له في مجال الفلسفة، كما هي الحال في مجال الطب، أن يعمل بأساليب عدة. وإذا ما تأمل المرء المناقشات الفلسفية يكتشف العديد من التطبيقات متنوعة الألوان: تنتمي المحاكاة الهزلية إلى هذه التطبيقات مثلها في ذلك مثل منهجيتي التحديد والتفريق. وترتبط هذه التطبيقات معًا، ولكن هذا الترابط ليس متينًا للدرجة التي تجعل أحد التطبيقات لا يعمل دون الآخر. لأجل هذا كتبت كل فصول هذا الكتاب بطريقة تجعل من الممكن مطالعتها منفردة.

وبخلاف "المنهج" فإن "التطبيق" لا يشترط رأيًا خاصًا يحدد اتجاهه؛ فالتطبيق يكتفي بمناسبة محددة، على سبيل المثال رأي صاغه آخر. فالتطبيقات يمكن استخدامها في كل سياق تناقش فيه الأفكار، سواء أكان ذلك جدلاً فلسفيًا حول معنى الحياة، أم رأيًا سياسيًا لإحدى الصحف، أم خلافًا أسريًا حول وجهة الرحلة التالية.

أول مجموعة لمثل هذه التطبيقات جمعها أرسطو (322-384 ق.م.) فيما يسمى Topik ("الطوبيقا" = "كتاب الجدل") وهو أحد كتاباته المبكرة. وقد كان هذا الكتاب بمثابة تدريب فكرى مُؤلَّف للاستخدام الشخصي. وحينما كتبه أرسطو كان شابًا في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره، وكان يحاول أن يفهم مجادلات الأكاديمية الأفلاطونية التي كان قد التحق بها. كان يجمع النماذج الفكرية الاستدلالية التي تتكرر في المناسبات المختلفة، والتي تفيد في الكثير من المناقشات بغض النظر عن الموضوع. وكان يسمى مثل هذه النماذج topoi. وكلمة topos تعنى تقريبًا مكان أو منطقة، والمقصود هنا، على سبيل المجاز، منطقة فكرية من المفيد إلقاء نظرة عليها.

ويوجد في "كتاب الجدل" قرابة ثلاثمائة نموذج. وفيما بعد، حينما لم يعد أرسطو تلميذًا وإنما مدرس، استخدم الكتاب في دروسه؛ حيث إنه يمثل مدخلاً للفلسفة وفي الوقت ذاته تمرينًا ثقافياً. ولم يكن المثقف عند أهل أثينا هو من يعرف الكثير، وإنما كانوا يطلقون هذا اللفظ في الغالب على من يتميز بحركية الذهن، ومن يستطيع أن يكوّن حول كل موضوع رأيًا خاصًا، ويطور أفكارًا وحججًا جديدة، ويستطيع أن يتعامل مع الأفكار بمرونة بدلاً من أن يكررها بشكل متبلد.

بالنسبة لقارئ اليوم فإن "كتاب الجدل" صعب القراءة والفهم؛ فهو مكتوب بأسلوب تلغرافي مكثف ومتقطع، وهو الأسلوب المعتاد بالنسبة إلى مؤلفات أرسطو التعليمية. وإلى جانب ذلك فإن أرسطو يهتم في الغالب بالتطبيقات التي تتعلق بتحديد معنى أحد المصطلحات، وذلك لأن هذا الأمر كان آنذاك من الأفكار المقدمة في الأكاديمية الأفلاطونية. وبالإضافة إلى ذلك، عمد أرسطو إلى أن يوضح نماذجه بأمثلة يجب على المرء - في كثير من الأحيان - أن يحلها أولاً حتى يفهمها، وذلك لأنها تعتمد على علوم وأفكار أصبحت غريبة بالنسبة إلينا.

لأجل ذلك فإن الوقت أصبح مناسبًا لتأليف مجموعة جديدة: ألبوم متنوع الألوان يبين كيف يعمل الفكر. وإبان ذلك لا يتعلق الأمر "بالمعرفة"، وإنما "بالقدرة" الفلسفية. وهذه القدرة لا تهتم بإنتاج الحجج وتقديم الأطروحات؛ فالأمر يتعلق نوعًا ما بالأحلام والخيالات، وهو أشبه "بلعبة" مسلية تُغرى بالمشاركة.

لقد تكون هذا الألبوم على نحو مشابه جدًا لطريقة تكون ألبوم أرسطو: أي من خلال روح الملاحظة والنقل. ماذا يفعل الفلاسفة حينما يتفلسفون؟ إذا ما تأمل المرء المناقشات الفلسفية يدرك خطأ التصور المعتاد لعملية الانتقال الفكري والمنهجي من أطروحة إلى أخرى. وأكثر من هذا يكتشف المرء أن الأمر مضطرب جدًا كما لو أننا في احتفال شعبي. وهنا لا يتعلق الأمر فقط بالمحاضرة والشرح،

وإنما يتعدى ذلك أيضًا إلى الصياح والتصفير والضحك والغناء والتلاعن. فالفكر ليس باردًا كما يبدو أحيانًا، بل إنه متنوع تنوعًا مدهشًا لا يكاد يُحاط به.

أما التطبيقات التي سنعرض لها فيما يلى فهى مجرد مختارات قليلة. وإذا ما انتبه المرء إلى النموذج المتبع فسيجد نماذج أخرى بسهولة، كذلك يمكن اكتشاف الروابط العرضية بين هذه التطبيقات؛ فرغم أنها تُعرض كل على حدة، فإنها تتوالى في ترابط وثيق. أما "الأمثلة" فقد استقيت بعضها من الخطابات السياسية، وبعضها من الأدب، أما أغلبها فمن الحياة اليومية. لأجل ذلك لن يظهر فى الحوارات التى أصور بها التطبيقات اسم سقراط فقط، وإنما أيضًا السيد والسيدة ماير.

أما "الألعاب" والخيالات المنثورة بين الفصول فتبين أن المرء يمكنه أن يقترب فى خفة ومرح من الفلسفة. وقد اختصرت "قائمة المراجع" إلى الحد الأدنى؛ حيث سأذكر فى نهاية كل فصل بعض النصوص المفيدة لمواصلة الاهتمام بالموضوع.

وفي النهاية أشير إلى أن كل التطبيقات تهدف إلى إضعاف التبعية لآراء الآخرين؛ فهى تفتح مجالات للخواطر والأفكار، وتشحذ القدرة على الحكم. وفى هذا تكمن طاقتها المحررة؛ فهى تزيد القدرة على التفكير الذاتي و"إعمال الفكر".

Diogenes von Sinope



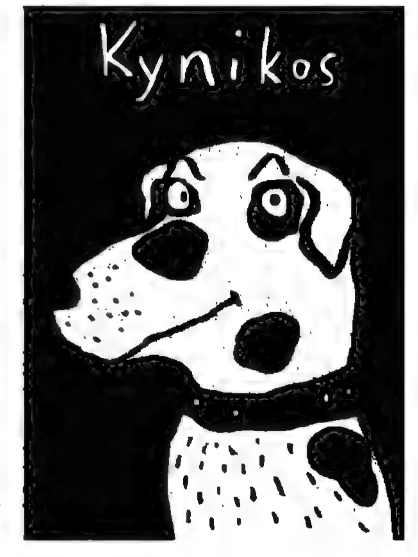
1 استفزاز

كانت الفلسفة - منذ بداياتها - شكلاً من أشكال الاستفزاز؛ فسقراط 470-399) Sokrates ق.م.) - على سبيل المثال - كان بمثابة فضيحة علنية. كان مظهره الخارجي الفقير مستفزًا ومتحديًا، وكان على عكس تلاميذه الأغنياء لا يتزين فى الغالب بزينة ويمشى حافيًا، وهو ما جعله أحيانًا محط إعجاب وأخرى للسخرية. وكان يشكك في القيم التقليدية المعتادة مثل النجاح أو الرفاهية أو يسخر منها. وحينما اتُّهم بالتجديف وحكم عليه لم يدافع عن نفسه متذللاً، ولكنه اتَّهم المحكمة بدلاً من ذلك بعدم الكفاءة، وطالب بأن يكرم بدلاً من أن يحكم عليه، وذلك لأن عمله مع الشباب يُعد نعمة على أثينا. ولكن المحكمة لم تجد في هذا طرافة، وحكمت عليه بالموت بتجرع السم.

ولكن قصة الاستفزاز لم تجد بهذا نهايتها، بل وصلت لدى أتباع سقراط إلى قمة جديدة. وكانت المجموعة الصغيرة "الكلبيين" Kyniker تنتمى إلى هؤلاء الأتباع. وقد أصبح رجل يُدعى أنتيستينس Antis-thenes (455-360 ق.م.) كان يعرف سقراط شخصيًا، وكان متأثرًا بشدة بقناعته وقدرته على الاستغناء، أصبح الأب المؤسس لهذا المذهب، ولكن تلميذه ديوجين السنوبي Diogenes (400-328 ق.م.) هو الذى منح تلك المجموعة خلودها بأن حول القناعة السقراطية البسيطة إلى حدث ملفت جذاب.

كان ديوجـين يُعلّـم أن الإنسـان يمكنـه أن يشـبع احتياجاتـه بطريقـة مناسـبة وبسـيطة جـدًا، ولـذا كان يعتقـد أنـه اكتشـف الطريـق الأقـصر للسـعادة. وقـد بـدا ذلـك فى الممارسـة بـأن قـام ديوجـين بالاسـتمناء علانيـة فى سـوق أثينـا، وأعلـن إبـان ذلـك أن مـما يؤسـف لـه أن الإنسـان لا يمكنـه إشـباع جوعـه بمثـل هـذه السـهولة، أى عـن طريـق تدليـك البطـن.

ولم يكـن لديوجـين بيـت، وإنمـا كان ينـام، كـما يتفـق، مـرة هنـا وأخـرى هنـاك. وتقـول الروايـات إنـه عـاش لفـترة طويلـة فى برميـل فخـاري بطـول رجـل كان مخصصًـا للتخزيـن، وقـد اشـتهر البرميـل بأنـه برميـل ديوجـين. وهـو يظهـر فى برميلـه هـذا فى الصـورة الوحيـدة التـى نعرفهـا عنـه مـن العصـور القديمـة، وهـي صـورة دائريـة عـلى شـكل ميداليـة فى مركـز إحـدى قطـع الفسيفسـاء المحفوظـة فى المتحـف الرومـاني- الجرمـاني بكولونيا.



وكان ديوجـين يقتـات الأعشـاب والزيتـون وخبـز الشـعير ويرتـدى معطفًـا مـن الصـوف، ولكنـه كان فى العـادة يعيـش عاريًـا، وكان يحـب أن يُلعـب للآخريـن إصبعـه الوسـطي، وكان بذلـك رائـدًا لقطـاع مـن ثقافـة "البانـك" Punk. وعندمـا يكـون فى صحبـة آخريـن فإنـه يتمتـع بالـضراط مـن حـين إلى آخـر، مـما جعـل سـكان أثينـا يلقبـوه بالكلـب؛ حيـث كان الكلـب بالنسـبة إليهـم أحـطّ الحيوانـات؛ لأنـه يتبـول فى أى مـكان يناسـبه، ويـأكل الفُضـلات، ويقـضى حاجاتـه الجنسـية علنًـا. وقـد اعتـبر ديوجـين هـذه الشـتيمة لقبًـا تشريفيًـا، وحينـما مـات صنـع لـه تلاميـذه نصبًـا تذكاريًـا يعلـوه كلـب. لقـد أصبـح هـذا الحيـوان رمـزًا للمدرسـة كلهـا. وذلـك لأن الاسـم -Kyni

ker مشتق من الكلمة اليونانية kynikos، وهى تعنى تقريبًا "كلبي". وفيما بعد نتج عنه الوصف "تسونيكر" Zyniker (أى الوقح المستهزئ أو الساخر اللاذع). ولكن بينما يعد "التسونيكر" المعاصر مجرد متهكم لاذع أو وقح، فإن "كلبي" العصور القديمة كان فى الوقت نفسه فيلسوفًا يريد أن تُفهم أفعاله على أنها مساهمات حوارية وشكلاً من أشكال المعارضة.

وكان ديوجين مشهورًا بنكاته وسرعة بديهته. حينما بحث عنه الإسكندر الأكبر (323-356 ق.م.) وسأله أن يتمنى عليه، هو الملك العظيم، أية أمنية، فقط طرف ديوجين بعينيه وقال: "أن تذهب ولا تحجز الشمس عني". ولكن ديوجين لم يكتفِ فقط بالأقوال الحكيمة، وإنما كتب تراجيديات كاملة، كانت جميعها تحتوى بالطبع على أفكار ولمسات كلبية. وينبغي أن يكون قد كتب مؤلفًا بعنوان "السياسة" يقلب فيه الأعراف والعادات الموروثة رأسًا على عقب. كأن يرى - على سبيل المثال - أن المؤسسة التي تقوم عليها الدولة، وهى الزواج، عادة يجب أن تجتث وتلغى. وكبديل لها يقترح تنفيذ فكرة الحب

المشاع، والتي يقوم الجميع فيها بممارسة الحب مع بعضهم البعض، أى الجار مع الجارة، والولد مع أمه أو حتى الولد مع والده. وبالتأكيد فإن مثل هذا الحب المشاع سيؤدى إلى مشاكل، ولكن ديوجين الذكي لم يغفل هذا فى بديله. فلكون المرء فى نطاق جماعة الحب المشاع لا يمكنه، كما يشرح ديوجين، أن يقرر أى طفل يخص من؛ فإن الجميع يجب أن يشعروا بأنهم آباء، ويجب تبعًا لذلك أن يعتنوا معًا بالتربية. وكان يرى أيضًا أنه يجب ألا يتخذ موقفًا ضد أكل لحم من مات، بل اقترح قانونًا يسمح للأبناء بضرب الآباء عمدًا حتى الموت.

وفى هذا الاتجاه تذهب تراجيدياته أيضًا، وهى تراجيديات لم تصلنا، ولكن يمكننا أن نعيد رسم أحداثها على وجه التقريب، وأن نفهم الفكرة التى تدور حولها من خلال ملاحظات المؤلفين القدماء الآخرين. وهكذا روى أنه ألف مسرحية عن "أوديب". من المعروف فى

الصيغة الكلاسيكية أن أوديب اكتشف أنه ضاجع أمه، وأنه قام فيما بعد بسمل عينيه، ولكن ديوجين الذي لم ير في ممارسة الجنس مع المحارم ذنبًا، فقد أعطى القصة كما يبدو بعدًا إيجابيًا. فحقيقة أن ابنًا يضاجع أمه لم تكن بالنسبة إليه أمرًا تراجيديًا ولكن مرحبًا به. وربما يجب لأجل ذلك أن نتصور مسرحيته "أوديب" بوصفها نموذجًا مبكرًا لفلسفة "لما لا؟".

وفى دراما كلبية أخرى، رويت لنا أحداثها، أعلن أحدهم أنه أكل قبل قليل لحم أولاده المطبوخ، ولكن هنا أيضًا يخفف عنا الفيلسوف الكلبي الأمر بالرأي الفلسفي التالي: "تبعًا للمفهوم الصحيح فإن الكل متضمن فى الكل، والجميع ينساب عبر الجميع: ففى الخبز لحم، وفى الخضروات خبز، وكذلك ينفذ الكثير من الأشياء فى الأجسام الأخرى من خلال المسام غير المرئية ليتبخر فى الوقت نفسه مرة أخرى". وإذا كان الأمر هكذا فإن ديوجين يستنتج أنه لا يوجد فرق مبدئي، بل فرق فى الدرجة، بين أكل المرء لحم أولاده وأكله لبقية الأصناف الأخرى؛ ومن هنا لا يوجد - فى رأيه - سبب للانزعاج والانفعال.

ماذا كان هدف ديوجين فى مسرحياته؟ لقد أوضح أنه أعاد سكَّ العملة بشكل جديد. ولهذا القول وجهان في اللغة اليونانية: فكلمة nomisma لا تعنى فقط عملة معدنية، وإنما تعنى أيضًا عرفًا أو تقليدًا موروثًا. وفى الحقيقة، فإن ديوجين قلب في أعماله تلك الأعراف الموروثة والعادات السائدة رأسًا على عقب.

كيف استمرت قصة الاستفزاز؟ بعد الكلبيين توقف لفترة أمر التفلسف الجموح المستفز. وبعد عدة أجيال من ديوجين احتل الرومان أثينا. وقد احتاجت الفلسفة من جراء ذلك لعدة قرون كى تستعيد عافيتها. وبعد ذلك بدأت العصور الوسطى التى انتعشت فيها الفلسفة مرة أخرى، ولكن ضاق المجال بالنسبة للفلسفة الكلبية بطرازها القديم؛ لذا يجب علينا أن نترك برميل ديوجين ونتحول إلى "الكومونة1-" - أى "مجتمع الماويين الشباب" - التى أُسست فى فترة الستينيات فى منزل رقم 14 من شارع "نيدشتراسه" المطل على

ميدان شتوتجارت فى برلين. وكانت هذه "الكومونة" تتكون فى الغالب من أعضاء الفصيل اليساري المتطرف فى "الاتحاد الطلابي للاشتراكيين الألمان" (SDS). وكانت "أجندة" مؤسسي الكومونة متطابقة مع أجندة الكلبيين القدامى: احتجاج، ثورة، حرية جنسية. وقد شرح آنذاك مؤسس الكومونة هانز- ديتر كونسلمان، كإجابة على سؤال أحد الصحفيين، عما ينبغي أن تكونه الكومونة فقال: "لدى مشاكل جنسية، وأريد للرأي العام أن يطلع على الأمر".

ولكن الأمر لم يكن يتعلق فقط بمشاكل كونسلمان الجنسية؛ فتحت عنوان "متى تحترق متاجر برلين؟" تظاهر "الكومونيون" ضد الحرب فى فيتنام. وقد فُهم هذا العنوان بوصفه دعوة إلى إضرام الحرائق وقاد المتصادقين فريتز تويفل (آنذاك 23 سنة) وراينر لانجهانس (آنذاك 27 سنة) إلى المحاكمة التى حولها الاثنان شيئًا فشيئًا إلى استعراض مسرحى. وقد مهد ظهور المتهمين فى المحكمة لما سيأتي بعد ذلك. لقد ظهر كل من راينر لانجهانس وفريتز تويفل أمام محكمة بلدية برلين فى زي بهلواني ملون مؤثر. وقد أشبه راينر لانجهانس بشعره المجعد الذى بالغ فى تصفيفه أحد أطباء شعب البابواه فى غينيا الجديدة. كان يرتدى سروالاً من "الجينز" الأزرق الفاتح مع "جاكيت" صغير ذي لون أخضر مصفر وله أزرار برتقالية، و"ياقة-ماوية" مقواة، وأساور زرقاء اللون. ومن خلال شعره المجعد ومن خلف نظاراته المستديرة تتلصص عيون فأرية غارقة فى الكآبة. وفى المقابل كان فريتز تويفل يرتدى معطفًا برتقالي اللون تلمع أزراره الفضية ويكاد يصل للركبتين، وإلى هذا كله تضيف أساور القميص و"ياقة -ماو" المقواة بألوانها البنفسجية تأثيرات عجيبة مدهشة. وبالقياس إلى هذا بدا شعره ولحيته فى تسريحتيهما الممتازة حول الرأس متحفظين وغير جذابين. وكانت عيناه تنظران بطريقة تدل على الرضا عن النفس أكثر من دلالتها على الثورة والعناد. وفى المسافة بين طرف معطفه والأرض تجلت سخريته من نظام الملابس الغربى: سروال مخطط غامق وجوارب صفراء وحذاء من الشاموا. وبهذا اللون من الزينة دخل

كلا الطالبين إلى المحكمة كى يقلبا أحد الطقوس السلطوية رأسًا على عقب.

ببعض النكات الموجهة التي انفجرت فى صالة المحكمة مثل علب مليئة بالألوان تمكنا من أن يصبحا الرؤساء الحقيقيين للجلسة. لقد حول المتهمان نفسيهما من مُتَهَمين لمُدعيين؛ مما جعل المحاكمة تنتهى إلى فوضى. ولكن كل شيء كان قد بدأ بشكل بريء لا يؤذى؛ حيث بدأ القاضى الرئيسي فالتر شفيردتنر، وكان آنذاك فى الثالثة والخمسين من عمره، وبالتالي كان ممثلاً لجيل الآباء، الجلسة بالأسئلة المعتادة عن المعلومات الشخصية:

القاضى شفيردتنر: السيد تويفل لديك الآن فرصة أن تقدم لنا بأسلوبك الخاص سيرتك، وأن تصور نشأتك.

السيد تويفل: إننى أقف اليوم أمام المحكمة للمرة الرابعة فى قضية سياسية. وقد أصبحت حياتى فيما بين ذاك معروفة بما يكفى؛ فمنذ الإخراج الأول لهذه القضية الذى فشل آنذاك بسبب عدم كفاءة المحكمة.

المدعى العام تنكا: أرجو أن يسجل فى محضر الجلسة أن المتهم تويفل قد قال إن المحاكمة الأولى قد فشلت بسبب عدم كفاءة المحكمة، وأنا أطالب بتوقيع عقوبة الإخلال بالنظام.

السيد تويفل: ... ولأن هذه المحاكمة فشلت بسبب عدم كفاءة المحكمة، فإنني أرى أنه سيكون من المهم لأجل توضيح هذه المشكلة المعقدة أن يقوم أعضاء الادعاء العام والمحكمة هنا بذكر شيءٍ عن سيرتهم العملية ونشأتهم. أنا أعتقد أن الرأى العام له الحق فى هذا. وسوف أعقب على كل حالة بما يحضرني.

القاضى شفيردتنر: لن تحتاج لأن تقول شيئًا يا سيد تويفل.

السيد تويفل: لكنى لا أريد أن أسهل الأمر عليكم هكذا.

بعد قليل نظرت المحكمة فى أمر إخضاع المتهمين للفحص النفسى. وبسرعة جاء الهجوم المضاد.

السيد تويفل: سأوافق على الفحص إذا ما وافق أعضاء المحكمة والادعاء العام أيضًا على أن يفحصوا نفسيًا.

عقب ذلك اجتاحت قاعة المحكمة موجة من الإعجاب والانفعالات الضاجة الصاخبة اضطرت القاضى شفيردتنر إلى الأمر بإخلاء القاعة من الحضور، ولكن سرعان ما وافق على عودتهم بعد تأكيد كتابي بعدم التشويش على سير المحاكمة، ومن ثم تواصل العرض:

القاضى شفيردتنر: السيدات والسادة المستمعين، لقد وقفنا على تأكيدكم وأقررناه، ولكني أرجو بشدة ألا تصعبوا علينا أداء واجباتنا، ونحن نثق بناء على ذلك أنكم لن تخلفوا وعدكم. السيد تويفل، تريد أن تقدم توضيحًا، ولكنى أرجو قبل ذلك أن تبتعد عن مثل هذه الأشياء التى مرت.

السيد تويفل: السيد لانجهانس يريد أن يقول شيئًا.

السيد لانجهانس: (ساخرًا) لا أعرف إلى أي حد يكون السماح بذلك، ولكني أريد أولاً أن أوافق على اقتراح صديقي فريتز، وأن أضيف إليه ما يلى: فإلى جانب الفحص النفسي لأعضاء المحكمة وللمدعى العام والمتهمين ينبغي أيضًا إخضاعهم لاختبار ذكاء تعلن نتيجته النهائية على الرأى العام!

عقب ذلك أسرع أعضاء هيئة المحكمة باضطراب شديد إلى خارج القاعة، ثم دخلوا بعد فترة قصيرة ليحكم على لانجهانس لإخلاله بالنظام. لقد أصيبت هيبة المحكمة بشدة حتى بعد أن حكم على المتهمين فيما بعد بالإدانة. كانت هذه التمثيلية الساخرة فى قاعة محكمة برلين حدثًا مهمًا بالنسبة للثورة الثقافية لجيل 1968؛ حيث أظهرت أن إزعاج العالم البرجوازي وتشكيكه أمر سهل.

ولكن كيف حال أبطال تلك الفترة الآن؟ فريتز تويفل يعمل اليوم فى برلين كساعى بريد خاص على دراجة. أما راينر لانجهانس فقد تحول إلى الاهتمام بموضوع القوى الخفية والكامنة Esoterik، ولكنه بقى فى الوقت نفسه كلبيًا؛ فما زال مدفوعًا بالرغبة فى الاستفزاز وفى

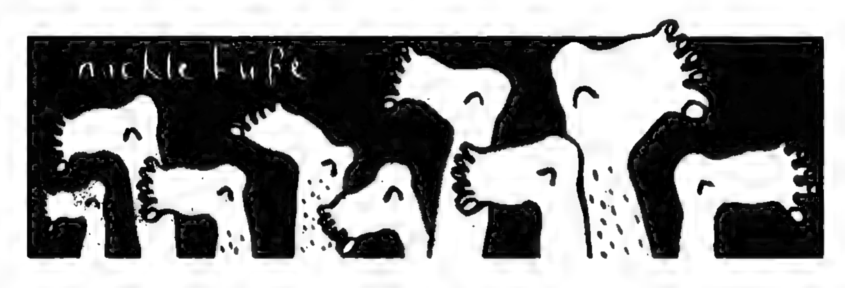
إزعاج النظم والأوضاع المستقرة. ولأجل هذا بالتأكيد تحول - بعد ثلاثين سنة من المحاكمة الأسطورية - من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وهو الأمر الذي أصاب أصدقاءه القدامى بالفزع. وقد ذكر في حوار مع صحيفة taz أن "الروحانية الحقيقية تسمى اليوم هتلر". أيضًا لدى حضوره الحفلات اليسارية النوستالجية التي ينبغي الاحتفال خلالها بثورة جيل 1968 يعلن مثل هذه الأقوال التي تصيب الضيوف بالفزع. وقد قام في الوقت نفسه بتأسيس حريم، وشرح في حوارات صحفية لماذا تعد هذه الصيغة للحياة معًا إثراء شخصيًا يغنى كل المشاركين فيها. إنه فنان الإزعاج العام الذي يعرف كيف يثير أعصاب جمهوره.

ولكن كيف تعمل الاستفزازات؟ في الغالب تعتمد على إعادة تقييم مخالفة للقيم المعتادة؛ فالحقير يُرفع، مثل الكلب على نصب ديوجين التذكاري، بينما يُحقر السامي. إنه لون من تطوير لشعور جديد بمنظومة المحظورات والتقاليد الراسخة التي نتحرك داخلها. وهذا ليس أمرًا سهلاً، وذلك لأن الأمور البدهيّة هي التي يصعب فهمها وإدراكها، ومن هنا فإن حضور البديهة والشجاعة مواهب ضرورية لا بد من التحلي بها، وذلك لأن الشخص الذي يُهاجم تلك الأعراف الصامتة للآخرين يحاصر ويطارد، وهذا أمر ليس بالنادر.

اليوم لم يعد الاستفزاز سهلاً مثلما كان الأمر في السابق. فمجتمع منغلق وذو نظام قيمي ثابت يسهل إزعاجه مقارنة بمجتمع متعدد؛ فحيث يستطيع كل شخص أن يعمل ما يريد ويترك، فإن الجمهور لم يعد يتعجب أو يفاجئ بشئ ما، وتصبح حركات الاستفزاز مستهلكة، بل إنها تُخنق بالتصفيق. فالاستفزازي يصبح بهلوانًا لمجتمع يعترف بانتسابه إليه. ورغم ذلك يسمع المرء إلى اليوم بين حين وآخر صرخات الاستياء المعروفة منذ آلاف السنين؛ مما يدل على أن المرء في المجتمع الليبرالي ما زال يمكنه أن يذهب "بعيدًا جدًا".

لعبة: المشي حافيا

نخلع أحذيتنا في يوم صيفي جميل ونسير حفاة. ليس فقط في البيت، وإنما أيضًا في الخارج: في الشارع، على رصيف المشاة، في المدرسة، في الجامعة، أو في المكتب. وإبان ذلك يتضح أن عددًا قليلاً من الشوارع هو المناسب لمن يمشون حفاة. حتى مدقات التجول في الغابة تشبه بالنسبة للأرجل الحافية وبسبب الحصى المنثور بها سريرًا من الشوك، هذا بالإضافة للشد العصبي في بطن الساق ومفاصل القدمين! إن الأمر يبدو كما لو أن المرء يتريض للمرة الأولى، ولكن تتم من جانب آخر استعادة حيوية باطن القدمين؛ مما يجعل المرء يشعر بسخونة قدميه لعدة أيام.



يترك السائر حافيًا على رفاقه أثرًا يشبه الأثر الذى يتركه إنسان عار. فرغم أن الأقدام الحافية ليست شيئًا بذيئًا؛ فإنها تؤثر بشكل ما تأثيرًا خليعًا. لمعرفة نوعية القصص التى يمكن للمرء أن يعيشها، يمكنك مطالعة صفحة إنترنت السائرين حفاة (www.barfuss.org)؛ ففي ألمانيا أيضًا يوجد - حقًا، وبشكل مدهش - الكثير من الناس الذين يسيرون حفاة، ليس فقط بشكل متقطع وإنما مستمر. من الناحية الصحية لا توجد مشكلة كما يقول السائرون حفاة؛ فالمرء يطور مع الوقت شعورًا داخليًا لتجنب الحصى المدبب أو الزجاج أو المسامير، وفي الشتاء كذلك لا يوجد خوف من خلع الأحذية: فقط يجب التحذير من المشي السريع في البرد، وذلك حتى لا تُصاب أربطة القدم بضرر. ولكن يبدو أن التسامح مع الحفاة متطور بأشكال

مختلفة فى الدول المختلفة؛ فكما تحكى الهاوية يوليا فيونا، فى ذكرياتها عن سيرها حافية (والتي يمكن الإطلاع عليها على صفحة الإنترنت المذكورة سالفًا)، أنها لم تواجه أية صعوبات فى ألمانيا وفرنسا، ولكن هذا ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث أمرت فى الغالب بلبس حذائها. ولكنها بوصفها هاوية مخضرمة كانت تعرف كيف تدافع عن نفسها: "حينما كنتُ في ربيع سنة 2001 فى فلوريدا دخلت فى جدل قبيح انتهى بأن اقتبستُ الدستور الأمريكي ("Land of the Free...") ونبهتُ إلى أنه ليس من الممكن أن يسمح بحمل السلاح ولا يسمح بعدم لبس الأحذية - وبعد ذلك لم أُزعج مرة أخرى".

المراجع

تـأتى المعلومـات حـول ديوجـين السـنوبى مـن قبـل سـميّه ديوجـين لاريتـوس Laertius فى كتابـه "حيـاة مشـاهير الفلاسـفة وأفكارهـم" الـذى ألفـه تقريبًـا فى القـرن الثالـث الميـلادى (ترجـم [للألمانيـة] وأعيـد طبعـه عـلى سـبيل المثـال لـدى دار نـشر ريـكلام - لايبـزج 1997). تـرد بعـض التفاصيـل الأخـرى فى الفصـل العشريـن مـن كتـاب "مبـادئ تاريـخ الفلسـفة" الـذى صـدر فى جزأيـن فى (بـازل 1998). وحـول تطبيـق مبـدأ الاسـتفزاز توجـد بعـض الأمثلـة والأفـكار الممتعـة فى كتـاب إدوارد دى بونـوس de Bonos "تمريـن فكـرى" (لاندسـبيرج ام لاخ 1986) وكذلـك في كتبـه الأخـرى. وقـد صـاغ يورجـن فريـزه Frese نظريـة شـارحة للاسـتفزاز فى دراسـته "الاحتجـاج بوصفـه بدايـة للتفلسـف"، والتـي نشرهـا فى المجلـة الفصليـة لعلـوم التربيـة سـنة 2003 (ص183-166).

Honoré de Balzac



2. حقائق وأقوال وفابوفابو

من يستحضر الحقائق يسجل النقاط؛ فالحقائق لا يوجد فيها الكثير مما يمكن تحريفه أو التلاعب به؛ فهي حاضرة بكل بساطة، هذا ما يقال على الأقل، ولكن هل الحقائق غير متغيرة حقيقة؟ أليست حينما يقاربها المتخصص تصبح أقرب لليونة والمرونة؟

ومن يقارن العناوين والتقارير في جرائد مختلفة غالبًا ما يندهش لدرجة التنوع في تصوير الوضع ذاته. وغالبًا ما يتيسر لأناس مختلفين التوصل - حيث لا تكاد توجد في اللعبة مصلحة مادية أو معنوية، وحيث يدور الوضع حول انطباعات وأحاسيس طبيعية - إلى نتائج مختلفة جدًا.

وماذا يمكن أن يكون مختصرًا وذا مغزى أكثر من طلقة نارية؟ ورغم ذلك فإن كل إنسان يسمعها بالتأكيد بشكل مختلف، ويحكى عنها بطريقة مختلفة أيضًا. وهنا يقول الألمان "بينج!"، والأمريكان "كريك!"، والإسبان "بوم!"، والإنجليز "بانج!". كذلك يمكن للمرء لدى محاكاة أصوات الحيوانات الوقوف على اختلافات مدهشة. على سبيل المثال كيف ينبح الكلب؟ الألماني يعتقد "فاو فاو!"، والإنجليزي يسمع على العكس "بو- فو!"، والأمريكي "هاو- هاو!"، والفرنسي "أوأ – أوأ!" واليونانيون القدامى "أو- أو". كل هذه التقليدات تُظهر تشابهات عدة، ولكنها ليست تقليدات متطابقة. فالناس - وبسلامة نية - يحاكون ما

يسمعونه بأشكال مختلفة، فإذا ما دخل الغرض في هذا فإن صيغ التقليد تتباعد في ظروف محددة عن بعضها البعض.

وإذا ما حكى الناس لآخرين عن حقيقة ما فإن غرضًا ما يكاد يوجد دائمًا. فالأشياء - كما يقول همفرى بوجارت (1957-1899) - "لا تبدو فعلاً كما تتراءى". فالثابت يبدو فقط وكأنه كذلك، بل قد يسمح في كثير من الأحيان بإعادة تنظيمه أو تعديله قليلاً. لا يحرّم أحد على آخر أن يرتب الأشياء كما يناسبه، وبكل براءة. كما فى النادرة القديمة التالية:

جلس أحد الجزويت مع أحد الفرنسيسكان فى ديوان أحد القطارات، وأخذا في قراءة كتاب الأدعية، وهنا أخرج الجزويتي عُلبة سجائره؛ **فقال الفرنسيسكاني:**

- هذا مستحيل! فمن الممنوع أن تدخن أثناء قراءة الكتاب!

قال الجزويتي:

- آه، لقد حصلت على سماح خاص بذلك.

ثم أشعل لنفسه سيجارة؛ مما أثار فضول وتطفل جليسه الذي قال:

- هل يمكن لى أيضًا أن أحصل على مثل هذا السماح الخاص؟

قال الجزويتي:

- بالطبع. يجب فقط أن تتحدث مع رئيس الدير.

وبعد ذلك تقابل الاثنان مرة أخرى؛ فقال الفرنسيسكاني:

- لقد قوبل طلبي بامتعاض وفشل مروع.

قال الجزويتي:

- وكيف؟ ماذا حدث إذن؟

قال الفرنسيسكاني:

- لقد فعلت بالضبط ما قلته: ذهبت إلى رئيس الدير وسألته عما إذا كان من الممكن أن يدخن المرء أثناء العبادة.. لقد غضب وثار.

قال الجزويتي:

- آه، كان يجب أن تفعل هذا بشكل مختلف. لقد ذهبت آنذاك لرئيسي وسألته إذا ما كان يمكن للمرء أن يتعبد أثناء التدخين، وهنا باركني وقال "نعم" وهو معجب.

التدخين أثناء العبادة أو العبادة أثناء التدخين - كلا الصيغتين تختلف عن الأخرى اختلافًا ضئيلاً، ولكن هذا الفارق الضئيل هو الذي يُحدث هذا الفرق؛ فهو الذي يقرر الإجابة سواء بنعم أو بلا. فهل من الورع أن تخدع الآخرين بهذا الأسلوب؟ يجب أن نقرر أنه لا وجود لما يسمى كذبة حقيقية، وإنما لف للشيء وإدارته بعض الدوران، وهذا مسموح به.

مقارنات وتناقضات

يمكن للمرء أن يثبت ويبث انطباعه عن الآخرين، ليس فقط من خلال اختياره لما يقوله، وإنما أيضًا من خلال المقارنات التي يجريها. فمثل هذه المقارنات مفيدة إذا تعلق الأمر بتنظيم أمر من الأمور. وفى الوقت نفسه تنفتح من خلال تغير الأساس إمكانية جعل شيئًا ما يبدو بشكل يتناسب مع الأغراض الخاصة. هذا هو سبب عدم ترحيب الباعة بالحديث عن ثمن البضاعة، وإنما عن العلاقة بين السعر وإمكانيات البضاعة التي تغرى بالشراء. وفى لحظة يتحول شيء غال إلى شيء "ثمنه فيه" كما يقال.

غالبًا ما يكون لدى سماسرة العقارات فى التشكيلة وحدة سكنية تتسم بالقبح وارتفاع الثمن، أي أنها البطة القبيحة كما يمكن أن يقال. وهذه الوحدة السكنية القبيحة لا ينبغي أن تُباع مطلقًا. فالمرء يحتاجها كنموذج نقيض؛ فالبيوت التي يراد بيعها حقًّا للزبائن تؤثر

بجاذبية أكبر إذا ما عرضت بعد نموذج منفر؛ فالجميل يؤثر بشكل أجمل إذا ما ترك يظهر إلى جانب شيء قبيح، بل حتى القبيح يصبح مقبولاً إذا ما عرض إلى جانب شيء أشد قبحًا.

الباعة فنانون فى تغيير الحقائق من خلال المقارنات والمعارضات، كذلك يعرف الفلاسفة منذ العصور القديمة أن الوقائع يمكن فقط ترتيبها إذا ما عورضت بأخرى. وإبان ذلك فإنه من النادر أن تحرك آخرين لشراء هذه أو تلك. وأكثر من هذا الإقناع بهذه أو تلك والرضي نفسًا بذلك. وقد طور الفلاسفة بعد تدريب استمر لقرون طويلة القدرة على ترتيب الوقائع غير المريحة بطريقة لا تعود معها ذات تأثير مؤلم. بهذه الطريقة نشأ موضوع "العزاء الفلسفى"، وهو موضوع ذو تراث عريق يمتد من خطابات التعزية التى أرسلها سينيكا Seneca (4 ق.م. - 65 م.) إلى أمه وحتى "التيوديتسيه" لليبنتس Leibniz (1646-1716).

وعلى كل حال فإن قدرة الفلاسفة على تعزية أنفسهم والآخرين لأمر مبهر وعجيب، وإبان ذلك لا يتم تكذيب الوقائع مطلقًا، وإنما يُعاد تقديمها في سياق جديد. ومن يستطيع أن يقول إن العرض المعتاد للوقائع هو الإمكانية الوحيدة؟

فى القائمة الفلسفية للموضوعات غير المحببة يوجد منذ العصور القديمة فى المركز الأول موضوع حتمية الموت. ولكن توجد آفة أخرى مختلفة، ولكنها أهم بالنسبة للكثير من الفلاسفة: ألا وهى الإفلاس وما يعقبه من استدانة. والإفلاس والاستدانة موضوعان مرتبطان بشكل وثيق. كيف يستطيع المرء أن يجعل الإفلاس محتملاً لطيفًا؟ أليست هذه حقيقة عارية لا يوجد فيها ما يمكن التلاعب؟

وبالتأكيد فإن خيمياء الفلاسفة تستطيع من خلال قدرة الأفكار وطاقتها أن تحول الفقر إلى غنى. يقول سقراط مجيبًا عن سؤال كيف يصبح المرء غنيًا: "بأن يكون فقيرًا فى الرغبات". قول مفاجئ، ولكنه - دون شك - مصيب. وهذا القول يجعل الفقر يظهر فى ضوء جديد - وذلك بأن لا يقصره - كما هو معتاد - على غياب المال، وإنما بربطه

بالأماني والاحتياجات لدى البعض. فالمعلومات ذات الصفة الإطلاقية تتحول بهذه الطريقة إلى معلومات نسبية مما يفتح إمكانيات تشكيلها وصياغتها.

كان سقراط نفسه يعيش تبعًا لمقولته تلك: على الكفاف وليس لديه ما يملكه، ورغم ذلك كان لديه أصدقاء أغنياء يدعونه باستمرار للندوات الثقافية الاحتفالية.

فيما بعد تم - وبشكل مستمر - استكمال فن العيش دون مال وتحسينه. فالروائي الفرنسى هورنيه دى بلزاك (1799-1850 Balzac) - على سبيل المثال - لم يكن فقط دون مال، وإنما كان أيضًا تحت الصفر، وقد كان فى أغلب أيام عمره مديونًا بشدة. ولكن حقيقة التزاماته واحتياجاته المالية الضخمة كانت تضغط عليه وتكبته، وكى يعزى نفسه ألَّف كتابه الخالد "فن دفع الديون وإرضاء الضامنين دون دفع ولو قرش واحد". ويشير عنوان الكتاب إلى أنه يدور حول العيش بالديون دون الشعور بتأنيب ضمير. وهنا لا بد للمرء أن يرى الأمر كله فى سياقه الصحيح! وقد أثبت بلزاك بذكاء أن الاستدانة ممن لا يملكون ما يكفى يعنى تعظيم الاضطراب فى المجتمع ومضاعفة سوء الحظ. أما الاستدانة ممن يملكون الكثير فيعنى العكس تمامًا؛ فهو يحدث من ناحية نوعًا من التوازن مع الفقر، ويجعل هؤلاء يؤدون واجبهم فيما يتصل بالمساواة الاجتماعية". وإذا كان هذا رأى المرء فإنه يمكنه مباشرة أن ينادي بضرورة الاستدانة، بل يغرى في النهاية بعدم التسديد. فيما يبدو يتعلق كل شيء فى مثل هذه الأسئلة الجادة التي تدور حول المال بالعزم على إعادة تنظيم المعطيات من جديد، وبهذه الطريقة يتم إعطاء وجهًا جديدًا للعالم والواقع. أما إذا كانت هذه التحليلات سيعمل بها آخرون أيضًا فأمر مختلف تمامًا.

الاقتباسات

يوجد لون خاص من الحقائق يتمثل في الكلمات التي قالها البعض أو كتبها. ففي الكثير من المناقشات، على سبيل المثال لدى الخصومات الأسرية، أو المعارك السياسية، وفي مجادلات الصفحات الثقافية، أو لدى المناقشات الفلسفية؛ فإن هذا النوع من الحقائق ذو معنى حاسم. فما قاله الآخر أو لعنه أو عناه يصبح أساسًا لما سأقوله أو لما سألقيه من اللعنات أو أعنيه، وهنا بالضبط توجد العقدة.

السيد ماير: أية توابل هذه؟

السيدة ماير: إذن لم تنل الشوربة رضاك!

السيد ماير: هذا ما لم أقله!

السيدة ماير: أنت قلت أية توابل هذه؟

السيد ماير: أنا سألت "بمنتهى البساطة" عن التوابل.

السيدة ماير: أنت لا يعجبك شيء.

السيد ماير: أظن أنه يجب علي وبسرعة أن أستخدم جهازًا لتسجيل ما أقوله.

ما إن يقل أحدهم شيئًا حتى يجد الآخرون رغبة في تحويل أقواله إلى المعاني التي يرون أنه قصدها. وإذا ما كتب أحدهم كلماته، يمكن للمرء أن يقرأها ويقتبسها حرفيًا. إجراء موضوعي نزيه أصبح أكثر نزاهة من خلال ابتكار تقنية الهوامش[1] التي تشير بدقة إلى مكان

(1) الهوامش لا تخدم فقط الإشارة للمصادر؛ فمن خلال اقتباس الأعمال المهمة يرينا المرء أنه على مستوى عال، وأن الآخر الذي لم يقرأ كل هذا الذي اقتبسه لا ينبغي له أن يحاول الحديث معه. وقد سخر من هذا الأمر في العصور الوسطي من قبل الراهب السابق وكاتب الفضائح فرنسوا رابليه (1494-1553)، ففي الفصل الثامن عشر من الجزء الثاني من كتاب "جارجانتوا وبانتاجرويل" Gargantua und Pantagruel يقدم فيلسوفين مثقفين لدرجة عالية جدًا حتى إنهما يتحاوران معًا من خلال الحركات ذات المعاني الواضحة، ورغم أن النقاش يتم دون صوت منطوق فإنه يتعقد بسرعة، وينتهي بإشارات عنيفة وقحة وفاحشة. وشبيه بهذا أيضًا ما نجده كثيرًا في الأعمال العلمية من معارك عنيفة تحويها تلك الملاحظات والهوامش المطبوعة بخط أصغر. قارن في هذا: أنتونى جرافتون: الأصول التراجيدية للهوامش الألمانية. (برلين 1992).

الاقتبـاس. وفي العـادة توضـع الاقتباسـات بـين علامتـي التنصيـص "...". فهتـان العلامتـان تقـولان لنـا إن هـذا المكتـوب بيننـا هـو مـا قيـل "فعـلاً". فهـي علامـات للموضوعيـة ولتهدئـة الـروح الناقـدة، ورغـم ذلـك فإنهـا يجـب أن تجعـل هـذه الـروح أقـرب للتيقـظ؛ فحيثـما تظهـر علامـات التنصيـص يكـون الانتبـاه أمـرًا مطلوبـًا. فحتـى الاقتباسـات التـي تبـدو موضوعيـة بصفـة خاصـة يمكـن للمـرء أن يسـتخدمها لأهدافـه الخاصـة حتـى وإن كان قـد اقتبسـها حرفيًـا. بصفـة خاصـة يمكـن للمـرء مـن خـلال وضـع الاقتبـاس فى سـياقات جديـدة أن يجعلـه يعنـى دلالـة مختلفـة تمامًـا. أمـا مـن تـم اقتباسـهم فيقاومـون بـين حـين وآخـر مثـل هـذه التطبيقـات. وفيـما يـلي بعـض الاعتراضـات المعتـادة التـي دائمًـا مـا تُرفـع في مثـل هـذه الحـالات.

العلاقة الخاطئة

المـرء يقتبـس الآخريـن حتـى يتـم إثبـات ذلـك وعرضـه أمـام مـن قالـه معـبّرًا. ولكـن مـن تـم اقتباسـه لا يفكـر البتـة في أن يكـون صيـدًا سـهلاً. فـإذا اسـتطاع أن يدافـع عـن نفسـه فإنـه إمـا أن ينكـر أو يعلـن أن قولـه قـد انتـزع مـن سـياقه، وهـو اعـتراض ذو تاريـخ عريـق، ويتضـح قدمـه مـن خـلال اقتبـاس لمارتـن لوتـر Luther (1546-1483) يشـكو فيـه بأسـلوب ألمـاني قروسـطي قُـح مـن تصرفـات مجادلـه هيرونويمـوس إمسـر Emser (1527-1478): "ينتـزع كلـماتي كـما يهـوى، يدهنهـا بسـمه، ويـترك مـا قيـل قبلهـا وبعدهـا".

آنـذاك لم تكـن الهوامـش قـد ابتكـرت، وكان مـن يقتبـس مـن كتابـات الآخريـن يكتفـي بإشـارة غامضـة. أمـا اليـوم فيجـب عـلى المرء أن يسـجل مصـادره ومـا قالـه الآخـرون بدقـة، ولكـن هـل أوقـف هـذا الاقتباسـات المغرضـة؟

بالتأكيـد لا، ويمكـن التعـرف عـلى النشـاط الـذي مـا زال يمـارس حتـى اليـوم، كي يسـمع البعـض مـن كلام الآخريـن مـا ينـاسـب أهدافهـم أو يريحهـم، مـن خـلال موقـف نموذجـي يبـدو وكأنـه قـد صنـع خصيصًـا

لأجل كتاب تعليمي. والأمر يتعلق هنا بالمعارك التي أثارتها رواية "موت ناقد" لمارتن فالسر Walser.

هذه الرواية تصف بضعة أيام من حياة كاتب ذي اسم غريب هو هانس لاخ الذي يتخاصم مع الناقد الجبار أندريه إيرل- كونج، ومن ثم حامت حوله الشبهات حينما اختفى إيرل-كونج دون أثر.

حقيقة كان ينبغي نشر الرواية كما حدث مع الكثير من روايات فالسر السابقة في صحيفة فرانكفورته ألجماينه (F.A.Z)، ولكن ناشر الصحيفة فرانك شيرماخر، الذي ألقى عام 1998 كلمة مديح مدوية عن مارتن فالسر بمناسبة منحه جائزة السلام للناشرين الألمان، رفض نشر الرواية في خطاب مفتوح بعنوان: "عزيزي مارتن فالسر، لن نطبع كتابك". وفي صلب الخطاب/المقالة يصل إلى النتيجة التالية: الكتاب عبارة عن "إعدام علني"، انتقام من الناقد مارسيل رايش-رانتسكي الذي يظهر في الرواية بوصفه أندريه إيرل- كونج. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الكتاب معاد للسامية بطريقة فضائحية. وذلك لأن الأمر فيه لا يتعلق بقتل أحد النقاد، وإنما بقتل أحد اليهود.

وفي هذا السياق يلعب اقتباس من الرواية دورًا مهمًا كقرينة. كتب شيرماخر يخاطب فالسر: "كيف وصلت إلى فكرة أن تجعل المتهم في روايتك أكثر اتهامًا من خلال مهاجمته للناقد النجم في حنق شديد مستخدمًا لغة هتلر، (عند منتصف الليل بالضبط يأتي الرد الهجومي)؟". هنا يتذكر المرء بضبابية إعلان الحرب الألماني ضد بولندا الذي بدأت به الحرب العالمية الثانية، وهو الإعلان الذي أذيع في أول سبتمبر 1939 وكان نصه: "منذ الساعة الخامسة و45 دقيقة يرد على النار بالنار". فرانك شيرماخر يستخدم الآن هذا الجزء الروائي كمطية لهجومه على فالسر؛ حيث كتب:

"حينما صاغ أدولف هتلر إعلانه الحرب ضد بولندا، والذي تقوم أنت بمحاكاته في الرواية بطريقة نزقة، كان هذا أيضًا إعلان حرب ضد مارسيل رايش الذي كان يعيش وأسرته آنذاك في بولندا. لم يستطع الكثير من اليهود الأوروبيين النجاة من عقابيل هذه الجملة لأدولف

هتلر. "ومن بين هؤلاء الناجين، كي أقتبس من كلامك القليل جدًا من يهود جيتو وارسو. مرة أخرى فإن أقل القليل هم الذين نجوا بعد التمرد في جيتو وارسو. وأقل جدًا من هذا الذين استطاعوا البقاء مختفين في جحر بدروم ضيق في بولندا. ومن هؤلاء الذين نجوا من هذا كله يوجد جزء من جزء ما زال يعيش إلى اليوم. اثنان من هؤلاء ما زالا يعيشان ضد كل احتمال هما مارسيل رايش- رانتسكى وزوجته تيوفيلا. هل تفهم أننا لا يمكن أن ننشر رواية تلعب على استعادة تحقيق هذا القتل افتراضيًا؟"

يشعر المرء بحدة الهجوم الذي تشنه صحيفة (F.A.Z) ضد مارتن فالسر على أساس من اقتباس واحد فقط. بسرعة بعد هذا الخطاب/ المقال بدأ الجدل حول ما إذا كان مارتن فالسر معادٍ للسامية أم لا؟ كذلك بدأت الهجمات المضادة، واكتشفت قرائن أخرى دامغة، وتم استدعاء شهود النفي.

ليس من المفيد في هذه المعركة أن تأخذ جانب أحد الفريقين، ولكن من المفيد في سياقنا هذا أن نلقى نظرة على أصل النص المقتبس لنرى بدقة ونعاين بتروٍ كيف استخدمه فرانك شيرماخر.

هذا القول لا يظهر بشكل مباشر في رواية فالسر، بل أكثر من هذا فإن السارد يروى أنه قرأ هذا القول في مقال يظهر في الكتاب، ولكنه مخترع بالطبع، لصحيفة (F.A.Z) بالذات. وفى هذا المقال يُروى عن ظهور فضائحي للكاتب المخمور هانس لاخ الذي أصبح معتديًا ومغلظًا في القول لإيرل- كونج بعد أن تناول بشكل غير لطيف كتاب لاخ الأخير "فتاة بلا أظافر قدم". وهنا تقول الأنا الساردة: "وهنا [فى فرانكفورته ألجماينه] قرأت الآن [...] هانز لاخ أراد كما يبدو أن يعتدي على إيرل- كونج، وحينما حاول اثنان من الحرس أن يحملاه خارجًا أخذ ينادى: لقد مضى وقت الصبر والصمت، لا بد لك يا سيد إيرل- كونج أن تأخذ حذرك فاليوم مساءً في تمام الثانية عشرة سيأتي الهجوم المضاد. هذا الأسلوب في التعبير أثار لدى الضيوف الذين يهتمون بصفة خاصة بالأدب والإعلام والسياسة موجة من الغرابة،

بـل مـن الدهشـة والاشـمئزاز. وأخـيراً فإنـه مـن المعـروف بصفـة عامـة أن أندريـه إيـرل- كونـج يعـد - تبعًـا لأجـداده - يهوديًـا، وفيـما بينهـم بالطبـع ضحايـا الهولوكوسـت".

إلى هنـا ينتهـي الأصـل. فالنـص المقتبـس هـو في سياقه أقـل حـدة منـه في سياق الاستياء الغاضـب الـذي حـشره فيـه فرانـك شـيرماخر؛ فهـو يؤثـر بشـكل هـزلي مثلـما هـو الحـال مـع اسـم الـروائي وعنـوان روايتـه اللذيـن يؤثـران بطريقـة شـاذة وغريبـة. وكذلـك وجـه الذيـن دفعـوا عـن فالـسر تهمـة العـداء للسـامية نقدهـم بـأن الاقتبـاس قـد شـوه أو تـم إعـداده لـدى شـيرماخر. فيـما بعـد كان يمكـن للمـرء أن يقـرأ في صحيفـة F.A.Z أن فالـسر - كـما هـو واضـح - جعـل أقوالـه تحمـل وجهـين حتـى يحتفـظ لنفسـه بسـبيل للانسـحاب والهـرب.

عنـد هـذا الحـد يـود القـارئ المتحـير أن يخـرج مـن دائـرة هـذا الجدل. ربمـا أمكنـه أن يتذكـر حكمـة توجـد فى مـكان مـا مـن الروايـة تقـول: "لا توجـد حقائـق وإنمـا فقـط صياغـات مختلفـة".

سوء الفهم الأبدي

استخدام الملاحظات الشخصية مـن قبـل آخريـن قـد يصـل فى بعـض الأحيـان إلى حـدٍ مغضـبٍ يجعـل المـرء يبـدأ في اتخـاذ إجـراءات جذريـة مضـادة. ويوجـد لـدى الأطفـال وكبـار السياسـيين قـول محبـب بصفـة خاصـة هـو: "لم أقل هـذا مطلقًـا!". فـإذا لم ينطـلِ هـذا النفـي عـلى أحـد يمكـن للمـرء أن يتقهقـر إلى: "هـذا مـا لا أتذكـره". وإذا لم تنفـع هـذه أيضًـا فـلا يبقـي عـلى الأقـل غـير: "هـذا بالتأكيـد سـوء تفاهـم!".

ويفضـل الفلاسـفة بصفـة خاصـة التحجـج بسـوء الفهـم، وهـم يفضلـون هـذا لدرجـة جعلـت هايـنرش هاينـه (1797-1856 Heine) يقـرر أن الفلاسـفة يشـعرون عـلى مـا يبـدو وبشـكل دائـم بأنهـم قـد أسيء فهمهـم، وقـد سـجل فى مؤلفـه "حـول تاريـخ الديـن والفلسـفة في ألمانيـا" مـا يـلي: "حيـنما اتفـق رأى راينهولـد مـع فيشـته أعلـن فيشـته أن أحـدًا لم يفهمـه

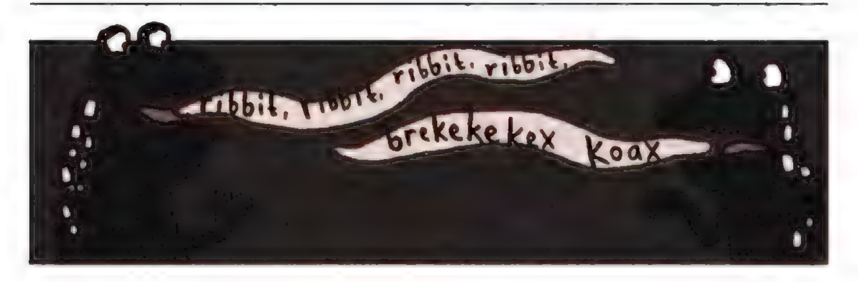
مثل راينهولد، ولكن حينما خالفه فيما بعد أعلن فيشته أن راينهولد لم يفهمه قط. وحينما كان فيشته على خلاف مع كانط أعلن: أن كانط لا يفهم نفسه. وأنا ألمس هنا فقط الجانب الغريب لفلاسفتنا؛ فهم يشكون باستمرار من عدم فهمهم. حينما كان هيجل على سرير الموت قال: "واحد فقط هو الذي فهمني"، ولكنه أضاف بعد ذلك مباشرة وهو متكدر "بل هو أيضًا لم يفهمني".

قلب الحقائق

هذا هو الحال دائمًا مع موضوع الفهم؛ فحتى لدى الاقتباسات التي تكاد تكون حرفية يمكن الوصول من خلال إدخال بعض التغييرات الطفيفة عليها وبطريقة أشبه بالسحر إلى معنى جديد تمامًا. ويعد يورجن هابرماس Habermas الفيلسوف الفرانكفورتي المشاكس أستاذًا في هذه التقنية التي استخدمها خلال ما يسمى بمعركة المؤرخين حتى يدلل على وجود أفكار فاشية في كتابات المؤرخ أندرياس هيلجروبر Hillgruber الذي كان حتى هذا الوقت مؤرخًا مرموقًا جدًا.

وإبان ذلك تلعب الاقتباسات دورًا مهمًا؛ فهي لا بد أن تدلل على نزعات وميول خطيرة جدًا لدى هيلجروبر بالطبع. التغييرات التي يدخلها هابرماس على الأصول طفيفة جدًا، ولكنها تحمل في الوقت نفسه تأثيرًا خطيرًا. وفقط من خلال المقارنة الحرفية مع الأصل يتعرف المرء على نقاط الهجوم.

فما الموضوع؟ وصف هيلجروبر في كتابه "انهيار مزدوج" الأيام الأخيرة لألمانيا النازية، وقال ضمن ما قال: "من بين قادة الحزب النازي أظهر البعض وقت الشدة أنهم (أكفاء)، وإبان الدفاع الأخير اليائس، والانهيار والهروب، وفشل البعض جزئيًا بطريقة خبيثة". وهو نص لا خطر منه كما يمكن للمرء أن يظن، ولكن لا، إذا ما عزم مثقف خبير على غير ذلك، فهنا يتحول النص بسرعة لقرينة دامغة!. وهذا ما قام به هابرماس؛ حيث قصد في جداله إلى إحداث تغيير طفيف في النص قاد أخيرًا إلى أن يبدو هيلجروبر وكأنه معجب



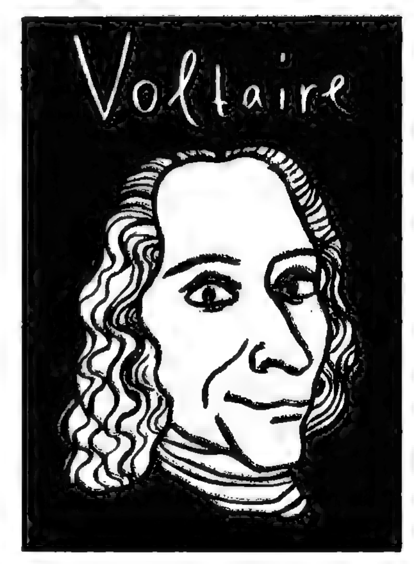
فالاقتباس الحرفي الوحيد في هذه الجملة هو كلمة (أكفاء)؛ حيث لم يبق لدى هابرماس شيء من النص الأصلي لهيلجروبر غيرها. وإذا ما نظر المرء بعناية ودقق فإنه يتعرف على تغيير طفيف ولكنه حاسم. ففي خفاء حوّل هابرماس فعل إظهار الكفاءة (sich be-währen) إلى صفة (bewähren) مما يعنى أن الكفاءة مطلقة وتشمل كل النازيين، بينما الاقتباس في الأصل يقول فقط إن بعض "قادة" الحزب النازي قد أبلوا في الدفاع عن أنفسهم في أسابيع الانهيار (على سبيل المثال من خلال رفض الأوامر)، بينما الاقتباس الذي جُهز من قبل هابرماس يجعل التفسير الوحيد الممكن أن هيلجروبر يرى أن كل الفاعلين في الحزب النازي كانوا بصفتهم هذه أكفاء، لأن التغييرات التي أدخلها هابرماس على هذا النص والنصوص الأخرى طفيفة جدًا، بدا المدافعون عن هيلجروبر وكأنهم متحذلقون، وهنا تكمن دقة هذه التقنية وبراعتها.

"فابو فابو"

طالما كان الاقتباس حرفيًا يمكن على الأقل أن يبقى التظاهر بالموضوعية محفوظًا، ولكن إذا قام المرء بالتلخيص فقط فغالبًا ما يذهب محتوى العمل المقتبس أدراج الريح. على كل حال فإن هذا ما يحدث عندما يكون المُلخِص غير متفق مع ما يلخصه.

من خلال التركيز على بعض المعالم وترك أخرى يصبح الأمر مثلما في أحد الأعمال الكاريكاتورية التي تولد الانطباع بالاستهزاء. ويمكن

للمرء أن يسمي هذا التطبيق "فابو فابو"، وهي كلمة ترجع للغة شعب "دوبو" الأفريقي، وتعنى استعمال التطبيقات الخشنة العنيفة. ويعنى بالتطبيق الخشن العنيف هنا وبلا ريب الاختصار المغرض الخبيث. وإليكم مثالاً من قلم فولتير (1694-1778 Voltaire). فالإله، هكذا كتب فولتير في تلخيصه للعقيدة المسيحية، "خلق العالم ثم أغرقه. ليس لأجل خلق جنس أنقى، وإنما لكي يملأه باللصوص والطغاة. وبعد أن أغرق الآباء مات لأجل أبنائهم، ورغم ذلك دون نجاح، وهو ينتقم من مئة شعب بسبب الجهل بموته على الصليب رغم أنه هو الذي أبقاها على هذا الجهل".



فالانطباع بالعبثية يتولد هنا أولاً من خلال معارضة الأفعال الإلهية بالأفعال العقلانية المنتظرة حقيقة: "... ليس لأجل خلق جنس أنقى وإنما لكي يملأه باللصوص والطغاة". وثانيًا من خلال مبالغة فولتير في تأرجح المزاج المضطرب للإله الذي يغرق الآباء في البداية ثم يموت لأجل الأبناء. في الكتاب المقدس الذي يختصره فولتير هنا بكلمات قليلة يؤثر مجموع الأحداث بشكل منطقي ومسبب، وذلك لأن هناك بعض الروابط التي تحكى والتي تقود من حدث إلى آخر. هذه الروابط هي ما يتركه فولتير ومن ثم يتولد الانطباع بالاضطراب غير المنطقي.

غالبًا ما تلعب "الصور الوصفية" دورًا محوريًا في النصوص الكاريكاتورية الساخرة. فمن خلال المساواة مع شيء مضحك يلقي أضواء مضللة على الأطروحة التي يعرض لها المرء. وهكذا حاول الفيلسوف هيرمان شميتس Schmitz أن يبخس نظرية الحلم الخاصة

بعلـم النفـس التحليـلي مـن خـلال الكاريكاتـور التـالي: "تبـدو النفـس بالنسـبة لفرويـد وكأنهـا مصلحـة إداريـة تعمـل عـلى مـدار السـاعة، وتتبـع فيهـاورديـة الليـل، ولكـن بالنظـام نفسـه كـما في ورديـة النهـار، خطـة عمـل مختلفـة بعـض الـشيء في تعاملهـا مـع الـواردات رغـم أنهـا مـن النـوع ذاتـه (أي أحاسـيس ومثـيرات الجسـدية)". فمـن خـلال كلمـة "يبـدو" يثـار الانطبـاع كـما لـو أن مـا فكـر فيـه فرويـد شيء في منتهـى الغرابـة حتـى إن شـميتس لا يسـتطيع تحمـل مسـئولية ذلـك بالكامـل. يصبـح هـذا التلخيـص "فابـو فابـو" فقـط مـن خـلال المقارنـة المنتقصـة: مصلحـة إداريـة مملـة تشـخص بهـا نظريـة سـيجموند فرويـد.

مـن المعـروف أن "فابـو فابـو" ليسـت جيـدة دائمًـا لإنجـاز حـوار موضوعـي يتـم فيـه تبـادل الآراء. فبـين وقـت وآخـر تصنـع بهـذه الطريقـة لعـب أكيـاس القـش التـي يـضرب عليهـا تبعًـا للمـزاج والرغبـة. وأحيانًـا أيضًـا تسـتطيع الصـور الكاريكاتوريـة الجيـدة أن تهـب أجنحـة للمناقشـات وتعطيهـا طعـمًا جديـدًا، وهـذا يتوقـف عـلى الحـالات الفرديـة.

يستطيع المرء أن يجد شيئًا عن أصوات الحيوانات، وكيف تحاكى في لغات العالم المختلفة تحت عنوان (www.georgetown.edu/faculty/ballc/animals). ويقدم مقال "تقرير" فى المجلد الأول من "القاموس التاريخي للخطابة" (توبنجن 1992) عرضًا لما أوصى به البلاغيون القدامى حول طرق عرض موضوع ما. أما فن الفلاسفة في الرضي عن النفس وقت السوء فيجد المرء حديثًا عنه في مقال Consolatio في المجلد الثاني من القاموس السابق ذكره (توبنجن 1994). أما فن "عرض" الوقائع من قبل الباعة فيشرحه روبرت ب. تشالدينى Cialdini في الفصل الأول من كتابه "التأثير - كيف يقتنع الناس ولماذا؟" (لاندسبرج 1987). وحول معركة المؤرخين وأسلوب التدليل المستخدم من قبل يورجن هابرماس يحدثنا كتاب إيمانويل جايس Geiss "مساجلة هابرماس، معركة ألمانية" (برلين 1988).



Johann Caspar Lavater



3. قرائن

يبدو ما يسمعه المرء مباشرة أو يراه أمرًا مؤكدًا، ولكن غالبًا ما يجب على المرء أن يبنى رأيًا حول أشياء لا توجد أو لم تعد توجد أمام الأعين. وفي مثل هذه الحالات يحتاج المرء لقرائن؛ فالكثير من الأسئلة يمكن بحثها من الأساس فقط بطريقة غير مباشرة، وذلك لأن الوقائع ليست ملموسة. ومن هذا اللون: الأسئلة حول الماضي، وعن الطقس غدًا، وعن المزاج العام المسيطر في البورصة.

ويعد تفسير القرائن تطبيقًا مهمًا ومنتشرًا. حتى الأطفال يحبونه؛ فمن الأفرع المكسورة أو من آثار فرامل السيارات على الطرق يتم استنتاج النتائج والتفكير في قصص حول ذلك. تعتبر القدرة على قراءة الأثر من الأدوات الخاصة الضرورية بالنسبة للخبراء الجنائيين ولمحترفي القتنص، ولكن من السهل إبان ذلك أن تضل الطريق.

أدلة للطوفان

كمثال لذلك نذكر قصة تدور حول هيكل عظمى ومكتشفه الطبيب السويسري وباحث الطبيعة يوهان ياكوب شويختسر (Scheuchzer (1672-1733 الذي اعتقد أنه اكتشف أدلة تبين أن الفيضان الذي تتحدث عنه التوراة قد وجد بالفعل. ففي ارتحالاته في الجبال اكتشف آثارًا لأسماك وقواقع ونباتات وأحيانًا لخشب متحجر.

وكان شويختسر يرى أن ما وجده ليس إلا بقايا أحياء غرقت أثناء الفيضان ثم تحجرت مع مرور الأزمان.

وفي سنة 1723 نشر كتابه "المجموعة المحنطة للفيضان" الذي عرض فيه اكتشافاته على الرأي العام المندهش. ولأنه قد اكتشف براعم صفصاف متحجرة أخذته الثقة بنفسه حتى فكر أنه يستطيع أن يحدد حتى الشهر الذي حدث فيه الطوفان.

ولكن كان لأهم اكتشافاته بعد فلسفي ولاهوتي وتربوي يسَّر نشره في أهم المجلات العلمية في عصره - وهي مجلة Philosophical Transaction of the Royal Society. وفيما بعد طبع منشورًا كي ينوِّر مواطنيه ويشرح لهم أن اكتشافه لم يكن غير "هيكل عظمى لبشرى حلَّ الشر على العالم بسبب آثامه". وقد اكتشف شويختسر هذا الهيكل العظمى على جانب بحيرة "البودن" في بلدة أوتنجن (دائرة كونستانس). وكان الهيكل مضغوطًا بشكل سطحي ومدفونًا في الحجر، حادث مذهل. فحتى الآن وجد شويختسر أنواعًا مختلفة من الأشياء المتحجرة" نباتات، أسماك، حيوانات ذوات أربع، حشرات، قواقع، فراشات"، ولكنه لم يجد قبل ذلك مطلقًا أية حفريات متحجرة لبقايا إنسانية. وقد أوضح هذه الحالة مع معاصريه هكذا: إن جثث البشر قد عامت بعد الطوفان دون هدف ثم تعفنت مع الوقت ببطء حتى إن المرء لا يجد لهم أثرًا. ولكن الآن تغير الحال فلم يجد المرء - كما يرى شويختسر - آثارًا مفردة فقط، وإنما وجد هيكلاً عظميًا كاملاً. هكذا وجد الدليل على حدوث الطوفان. ومن ثم فإن الكتاب المقدس على حق. وقد قام شويختسر الورع بتحديد سنة الاكتشاف تحديدًا دقيقًا؛ حيث إنه حدث "في سنة 4032 بعد الطوفان". لقد أثر اكتشاف شويختسر في معاصريه بقوة. ولكن فقط في عام 1811 تبينت طبيعة وماهية ما اكتشفه يوهان شويختسر في ذلك المحجر: لقد قام العالم وخبير التشريح جورج كوفييه (1769-1832 Cuvier) بدراسة الاكتشاف ثم أعلن أنه عبارة عن بقايا ميتة لحيوان سمندل ضخم. وكان هذا الإعلان بالطبع صدمة بالنسبة لأصدقاء نظرية الطوفان.

وبصفة خاصة لأن هذا الادعاء من قبل كوفييه كان شجاعًا، وذلك لأن السمندل الذي يعيش في أوروبا يبلغ طوله الأقصى ثلاثين سنتيمترًا على الأكثر، ولكن الهيكل العظمى الذي بحثه كوفييه كان يبلغ بخلاف هذا مترًا و35 سنتمترًا، ولكن لأن كوفييه عمل على الحفرية بطريقة منظمة لم يكن هناك احتمال ولو ضئيل لخطئه. فمن ناحية أعد الحفرية بطريقة أفضل من شويختسر، ومن ناحية أخرى قارن "الهيكل = العظمى" مع هياكل لحيوانات معروفة.



وهكذا أصبح "الآدمي الآثم" حيوانًا برمائيًا. ووجد بعد ذلك دليلاً على صحة النظرية الجديدة حين ظهر في عام 1829 سمندل ضخم حي أمسك به في اليابان ثم نُقل لأوروبا. إلى هنا ينتهي هذا المثال. فما النتائج التي يمكن للمرء أن يستنتجها من ذلك - مع التركيز بالطبع على فن قراءة الأثر؟

1. "توجد في الغالب إمكانيات عدة لقراءة إحدى القرائن". ولكن ينبغي للمرء لأجل هذا ألا يرضى بأول فكرة حتى وإن كانت تبدو معقولة ومقبولة. هذه القاعدة استخدمت من قبل كوفييه الذي رأى العظام بطريقة جديدة ووضع في اعتباره إمكانية ألا تكون خاصة بإنسان وإنما بحيوان.

2. "دائمًا ما توجد قرائن أكثر مما يبدو في البداية. وكلما زادت القرائن كلما كانت النتائج أكيدة". كوفييه لم يطرح فقط افتراضًا جديدًا، ولكنه - وحتى يختبره - بحث عن آثار جديدة. وهكذا لم يرض بمجرد المشاهدة التي يسرها له الكسر الذي حدث مصادفة للحفرية. وعلى العكس من شويختسر كشف وحرر عظام أخرى

من خلال الإعداد والتجهيز المجهد؛ مما سهل عليه مهمة تأكيد نوعية الهيكل العظمى.

كذلك فإن شويختسر قد تعرف على شيء مهم نوعًا ما. فبالنسبة للكثير من معاصريه كانت مثل هذه الحفريات ليست أكثر من تشكيلات متحجرة عفوية ولا معنى لها، وأنها نتجت عن "دوامة الأوحال البدائية". وبينما يرى الآخرون في هذا "ألعابًا غريبة للطبيعة" رآه هو كعلامات للعصور القديمة ينبغي فهمهما وشرحها، وهذا يقود للنقطة التالية:

3. "توجد قرينة ما حينما يقوم أحد المراقبين بالبحث عنها". وكل تفسير يعلل من خلال المعرفة والخبرة. وكلما كان المرء عارفًا بشكل أفضل كلما كان أكثر ثقة في تفسيره للقرائن. وهكذا فإنه من الطبيعي على سبيل المثال بالنسبة لشخص لا ينتبه للصخور أن يغلب على ظنه أن الآثار المحددة التي يُريها إياه البعض عبارة عن صدفة عفوية. فقط من يهتم بعمق وإخلاص بالأنواع المختلفة للصخور، يعرف أن بعض العلامات والأشكال لا ينبغي أن يُنظر إليها على أنها نتاج للمصادفة.

4. "من يقرأ القرائن يحتاج إلى معرفة حول العلاقات السببية". وينتج عن هذه القاعدة أنه كلما كانت المعرفة حول العلاقات السببية أكيدة، كلما كانت نتائج القرائن أكيدة. ولأجل هذا فإنه ليس مصادفة أن الإثبات بالأدلة في العلوم الجنائية أصبح منذ القرن الثامن عشر وبشكل مطرد أمرًا مهمًا حتى إنه جعل الاعتراف غير ذي جدوى: العلوم الطبيعية الصاعدة توفر وبشكل مطرد توضيحًا موثوقًا به حتى للآثار الصغيرة التي تبدو عديمة الأهمية. وإذا ما كانت القرائن أكيدة يمكن للمخبر السري أو للمفتش الجنائي أن يستنتج ما حدث.

5. "من يقرأ القرائن لا بد أن يحكى قصصًا"، وذلك لأن كل قرينة هي شيء خاص ومتميز. وقد نتجت عن حالات أخرى خاصة مميزة: في البداية حدث هذا - ومن ثم هذا. فقط في السياق الكلى

تكتسب الأشياء المفردة معناها وتأخذ قيمتها. إنه لفن أن تربط القرائن المفردة بطريقة تنتج عنها حكاية. لقد قام أرسطو في "منطقه" بتثمين قيمة هذا الفن. وتبعًا له دار الأمر حول إيجاد مصطلح يساعد على ربط الملاحظات الفردية. وإبان ذلك لا بد أن تكون للمرء القدرة على أن تأليف أشياء وربطها تبدو من النظرة الأولى وكأنها متنافرة.

6. "بصفة خاصة فإن ما يبدو تافهًا غالبًا ما يخفى قرائن مثيرة للاهتمام". وقد حول بعض العلماء هذه القاعدة إلى مبدأ للإرشاد المعرفي. مؤرخ الفن الإيطالى جوفانى موريللى illeroM (6181-1981) درس التفاصيل التافهة فى رسومات أساتذة الرسم القدامى - على سبيل المثال الأذن - وذلك لأنه كان يرى أن قدرة أحد الفنانين الكبار تظهر بصفة خاصة فى رسم مثل هذه الأشياء الصغيرة التي يعطيها المزورون والمقلدون في العادة اهتمامًا قليلاً مقارنة بالمناطق المركزية لإحدى الرسوم. بناء على مثل هذه الملاحظات استطاع موريللى أن يعيد النظر من جديد في نسبة بعض هذه الأعمال الفنية. سيجموند فرويد duerF (9391-6581) الذى كان مطلعًا على كتابات موريللى أعلن أن الظواهر اليومية التافهة ذات قدرة إخبارية متميزة، وقد اهتم بسبب ذلك باستفاضة بالأفعال غير الواعية وبالأحلام، وذلك كي يتتبع بهذه الطريقة صراعات اللاشعور. أيضًا لدى كشف أبعاد الجرائم تلعب التوافه دورًا ما، وذلك لأنها مصداقًا للطبيعة هي الشيء الذي لم يلاحظه الجاني.

هذا ما أردت قوله عن علامات الماضي، وإلى جانب هذا يوجد لونان آخران من القرائن: قرائن الحالات الآنية، وهى التي تسمى أيضًا أعراض، والقرائن التي تتنبأ بالمستقبل وتشير إليه.

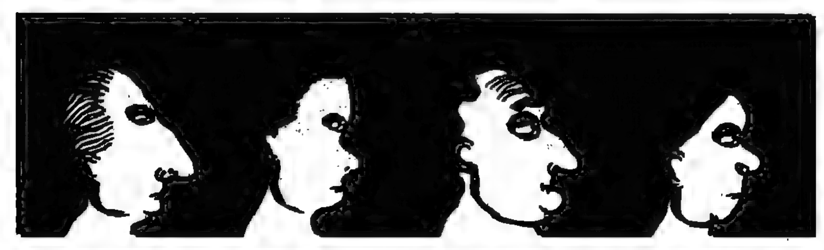
سعادة أو غضب أو حنق، عمر أحد الناس أو جنسه، إذا ما كان يشعر بالصحة أو لا - هذا كله يتضح بنظرة سريعة في وجه الآخر؛ لذا يغلب على الظن أن يُسأل هل يمكن للمرء إذا ما نظر بدقة لفترة أطول أن يكتشف أكثر من هذا. وكيف يكون الأمر مع طبع أو تعليم أو أمانة شخص ما؟ ولو وجدت علامات واضحة يستطيع المرء أن يقرأها في المظهر الخارجي لكان لذلك الكثير من المميزات. ولأمكن للمرء أن يرى الناس على ما هم عليه "حقيقة"، ولأمكن بهذا الشكل توفير بعض الخيبات. كان الراهب السويسري يوهان كاسبر لافاتر Lavater (1741-1801) على ثقة من أنه وجد أسلوبًا يعد بأن يحقق هذا. وكان يذهب إلى إمكانية الكشف عن دخيلة أحد الناس عن طريق بعض السمات الصغيرة التي قد لا تلاحظ. ولأجل هذا أصبح بمثابة الأب لعلم الفزيولوجيا Physiognomik الذي يزعم التعرف على الشخصية من خلال تفرس معالم الوجوه. عمومًا فإن لافاتر قد أقنع طبقة عريضة من قراء عصره - حتى إن جوته كان يعد من بينهم؛ حيث كان معجبًا بعلم تعابير الوجوه لدرجة أنه كتب بعض النصوص عن إصدارات لافاتر.

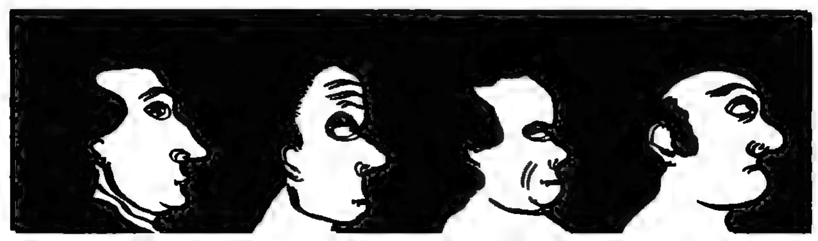
وهنا عينة مما يسمى القواعد السرية للافاتر "مئة قاعدة لعلم الفزيولوجيا من عام 1789"، وهي تتصل بمنطقة الجبهة وكل ما يمكن أن يستنتج منها. إنه اختبار للذكاء لا يحتاج لوقت طويل؛ فنظرة واحدة تكفي:

1. "يوجد على جبهة أُناس أذكياء ولطاف جدًا حسنات ليست بالكبيرة فيما بين الحاجبين، وهي لا تدل على قبح ولا على وخم العواقب، أما الحسنة البنية الغامقة على الشفة العليا، خاصة إذا كان بها شعر، فلا توجد لدى إنسان إلا وكان ينقصه كي يكون كاملاً شيء ما جوهري نشأ على الأقل بسبب خطأ جسيم في الشخصية.
2. الجبهات المستطيلة ذات الجلد المشدود الخالي من التجاعيد، والتي لا تظهر لدى لحظات السعادة النادرة أية تجعيدة حية

لطيفة، هي جبهات باردة، شامتة، ممرورة، عنيدة، ثقيلة، مغرورة، متزلفة وقليلة التسامح.

3. الجبهة المقوسة للخارج بقوة والمائلة لأعلى مع أنف منحن وأسفل وجه طويل -دائمًا ما تتحرك على حافة هاوية الجنون.
4. كل جبهة مقوسة لأسفل متحدرة للداخل عند العينين لدى إنسان بالغ هي علامة أكيدة على غباء لا علاج له.
5. كلما قلت الندوب والنتوءات والحفر العميقة، أي زادت المساحات المستوية، كلما كانت الجبهة خسيسة متوسطة الذكاء فقيرة الأفكار وغير قادرة على الابتكار.
6. توجد جبهات جميلة التقويس تبدو على القرب كبيرة وعبقرية، ومع ذلك فهي شاذة ونصف ذكية.... والمرء يكتشف في هيجان شعر الحواجب واضطرابها ذكاءها المتكلف والمصنوع.
7. التجاعيد المنحرفة على الجبهة خاصة إذا كانت تجاعيد متوازية أو تبدو هكذا هي بالتأكيد علامات على دماغ بدائي منحرف وشكاك.
8. تجاعيد الجبهة المتوازية، المستوية، غير العميقة أو المتوازية المتقطعة نادرة الوجود إلا لدى أُناس أذكياء جدًا، حكماء، مخلصين وصادقين".





المبدأ الذي تسير عليه هذه القواعد واضح جلي؛ فالأشكال المتناسقة تبدو باعثة على الثقة، وحيث يظهر عكس هذا، أي انعدام للتناسق سواء أكان تجعيدة منحرفة أم حسنة؛ فهنا - كما يقول لافاتر - يجب الحذر. كل انحراف وانعدام للتناسق يدل على خطأ. وبكلمات أخرى: من يبدو جميلاً لا بد من أن يكون ذكيًا وطيبًا ولطيفًا أيضًا. على أية حال كانت كتب لافاتر في عصره من أكثر الكتب المباعة. وإلى اليوم لا يزال يوجد في إدارات المستخدمين في بعض الشركات في الولايات المتحدة وآسيا من يُقيم انطباع وجوه طالبي الوظائف من خلال فزيولوجيين خبراء في معالم الوجوه.

إذا ما قام المرء رغم ذلك بمراقبة وجوه العلماء المشهورين يمكن حقًا أن يخامره الشك؛ فعن جوتفريد فيلهلم ليبنتس على سبيل المثال كتب أحد معاصريه، أنه أصيب مبكرًا "بصلعة كانت تنمو وسطها بقعة من الشعر في حجم بيضة حمامة". أما وجه هيجل فقد وُصف من قبل منافسه شوبنهاور بأنه يعطى "انطباع وجه خمار". وكثيراً ما نُظر لمارتن هيدجر بوصفه فلاح الغابة السوداء الصغير المهذب والساذج. جان- بول سارتر كان محولاً. وألبرت أينشتاين أيضًا لا يكاد يبدو في الصور المعروفة ذكيًا بدرجة خارقة، وإنما يبدو أقرب إلى جد ظريف مبلبلاً بعض الشيء.

ومما يجب ذكره هنا أن بعض معاصري لافاتر قد استنكروا طريقته تلك. فالفيزيائي كريستوف ليشتنبرج 1799-1742) Lichtenberg) كتب على سبيل المثال العديد من الكتابات المعارضة لهذا اللون من الفزيولوجيا، وهو يشكك في كتاباته تلك في التفسيرات الأحادية اليقينية للقرائن التي يستنتج منها لافاتر نتائجه. فالجلد غير النظيف أو الحسنات التي في الوجوه يمكن أن تشير إلى أسباب كثيرة أيضًا؛ حيث توجد عوامل وعلل لا تحصى تشترك - كما يقول ليشتنبرج - في بناء المظهر الخارجي، مثل التغذية، الطقس، الأمراض، ... إلخ. علاوة على ذلك، فإن الناس يمكنهم أن يتظاهروا ويراءوا مما يجعل عملية التفسير أكثر صعوبة. الوجوه ليست لافتات شوارع تحوى شفرة أكيدة

تسمح بتقرير المعنى. مثل هذه الشفرة مفتقدة فيما يخص الوجوه البشرية. ولكي يُستدل على شخصية أحد البشر لا بد للمرء - كما يقول ليشتنبرج - أن يراعى ليس فقط بعض القرائن الجزئية المفردة، وإنما أيضًا العديد من القرائن من بينها "أفعال" الإنسان، وذلك لأن المرء يفصح فيها عن نفسه بأمانة أكبر مما يُفصح شكله الخارجي. بالطبع لم تستقبل كتابات ليشتنبرج في معسكر الفزيولوجيين بإعجاب، وعندما أصدر هجاءه تحت عنوان "فزيولوجيا الذيول" (الذي سأعرض له في فصل المحاكاة الهزلية) كان كيل الفزيولوجيين قد طفح فأرجعوا ارتياب ليشتنبرج وشكه بسرعة إلى "انحناءة ظهره المفزعة".

يمكن اليوم على أساس من الدراسات التجريبية الإجابة بشكل أفضل مما كان في عصر ليشتنبرج ولافاتر عن السؤال عما إذا كان من الممكن قراءة ذكاء إنسان ما من مظهره الخارجي. فاليوم نعرف أن أغلب الناس يحكمون حقيقة على ذكاء الآخرين بالطريقة نفسها التي أوصى بها لافاتر في قوانينه السرية: صحيح أنهم لا يعيرون اهتمامًا لعدد الحسنات والتجاعيد الماثلة والتفاصيل الأخرى، ولكنهم يتبعون في الغالب ما يسمى "الجاذبية الآلية المعتادة"، ويقررون أن من يملك مظهرًا خارجيًا لطيفًا لديه أيضًا وبصورة آلية كل الصفات الإيجابية الأخرى - على سبيل المثال: أن يكون ذكيًا، صادقًا، موثوقًا به، نشيطًا، ناجحًا، ... إلخ. وتنبه الدراسات الحديثة إلى أن إلحاق أو ربط المظهر الجميل بالصفات الحسنة أمر له أساس صحيح، وأن أحد الأسباب المحتملة لهذا أن الناس الذين يتميزون بمعايير جمالية محددة يجذبون الانتباه أكثر، ومن ثم التشجيع الأكبر. ولكن الدراسات تبين في الوقت نفسه أن هذا الربط إحصائي فقط. فالناس الجميلة يمكن أن يصيبوا بخيبة شديدة بينما يمكن لإنسان غير جميل تشبه أنفه حبة بطاطس أن يكون عبقريًا؛ لذا فإن نقد ليشتنبرج القاسي للإلحاق "العلمي" عند الفزيولوجيين ما زال صحيحًا حتى من وجهة نظرنا اليوم.

علامات الآلهة

كان الرومان يراقبون طيران الطيور ليستشفوا إذا ما كانت الآلهة تؤيد ما يخططون له من مشاريع. ومنذ هذا الوقت بقيت الحاجة حية لرؤية علامة تنبؤية تهدى في المواقف الصعبة. وإليكم قصة كمثال: قرار في حياة جوته 1832-1749) Goethe). لقد كان الزمن الذى انغمس فيه جوته بشكل متنام بطلب من قبل صديقه الدوق كارل أوجوست في إدارة إمارة فايمار الصغيرة؛ حيث لا ينبغي له وهو يعيش في فايمار منذ نوفمبر 1775 أن يستمر أكثر من هذا في لعب دور الضيف الصديق والمرافق فقط. في يونيه 1776 عينه كارل أوغوست مستشارًا سريًا، وبذا أصبح له كرسي وصوت في اللجنة الثلاثية السرية التي يستشيرها الدوق؛ أي أنه كان بمعنى ما وزيرًا. ولكن بدأت دراسة الملفات والجلسات تثقل عليه مما أثر على نتاجه الإبداعي. ومن جانب آخر فتنته إمكانية التأثير في الحياة العملية. "الحكم!!" - هذا ما كتبه في 8 أكتوبر 1777 في مذكراته، كلمة وحيدة وعلامتي تعجب.

وفى هذا الموقف المتوتر بشدة قرر جوته أن يبحث عن علامة مشجعة؛ فبدأ في ديسمبر 1777 رحلة إلى جبال هرتس، وقد أفصح عما كان يبحث عنه هناك في خطابات قليلة لصديقته آنذاك شارلوته فون شتاين. بالطبع لم يكن يريد أن يراقب طيران الطيور في الجبال، ولكنه كان قد عزم على تسلق قمة جبل بروكن في الشتاء. وإذا ما تيسر له ذلك سوف يقبل المهمة الصعبة في فايمار. لقد كان هذا شكلاً رياضيًا حديثًا للتعرف على إرادة الآلهة؛ فالطريق إلى أحد الجبال يشبه طريق الحياة، وإذا ما تيسر تسلق الجبل يمكن للمرء أن يمتلك شجاعة للدخول في خطط مستقبلية.

جبل بروكن يبلغ طوله 1143 مترًا، وهو مغطى في الشتاء بالثلوج. وبالإضافة إلى ذلك، فإن قمة الجبل تظل ملفوفة بالضباب لمدة 300 يومًا في العام. ومن هنا كان نجاح مشروعه أقرب لعدم التحقق. وفى القرية الجبلية تورفهاوس التقى جوته بحارس الغابة يوهان كريستوف

ديجين الذي حذر جوته من الصعود إلى قمة بروكن لأنه هو نفسه لم يتسلق الجبل ولو مرة في الشتاء. وفى صباح العاشر من ديسمبر انزاح الغمام فقال حارس الغابة لجوته: "الآن يمكنك أن ترى جبل بروكن. تقدم جوته من النافذة وصاح: "وأنا لا ينبغي لي الصعود! أليس لديك خادم أو أي أحد...!!". قال حارس الغابة: "أريد أن آتى معك". وقد وصل جوته حقًا في اليوم نفسه إلى قمة الجبل. وكعلامة مؤيدة أخرى ظهر القمر في المساء كاملاً. وحينما عاد جوته مرة أخرى إلى فايمار كان قد اتخذ قرارًا بقبول الوظيفة الجديدة.

أقل رومانسية من هذا العلامة الإلهية التي كان العالم الرياضي البريطاني تشارلز بابيج Babbage (1791-1871)، الذي اخترع فيما بعد الكمبيوتر، يبحث عنها عندما كان في العاشرة من عمره. وقد حدث كل هذا بعد حوالي 20 سنة من تسلق جوته للجبل. لم يكن تشارلز بابيج يسأل نفسه عن مستقبله الشخصي، وإنما يهتم بعمق بمشكلة لاهوتية دينية. كان ببساطة يريد أن يعرف إذا ما كان الكتاب المقدس حقيقة أو لا. ولكنه لم يصل بعد تفكير طويل في القضية إلى أية نتيجة. ولأجل هذا قرر بابيج أن يقوم بتجربة، ولكنه على العكس من جوته، ممثل حقبة العاصفة والدفع، لم يرد أن يتسلق أية جبال، ولم يطلب أن يقوم الإله شخصيًا بإظهار القمر كاملاً له. بالنسبة للرائد الكمبيوتري كان يكفيه الإجابة بنعم أو لا. كان يريد أن يدخل، كما وصف في ترجمته الذاتية، في ساعة محددة حجرة محددة من بيت والديه، فإن وجد باب الحجرة مفتوحًا آمن بصحة الكتاب المقدس، وإذا لم تكن مفتوحة فلن يؤمن بهذا. مفتوحًا أم مغلقًا، صفرًا أم واحدًا، تلك كانت المسألة. فالمحاولة أجريت هنا بسوء نية: وذلك لأن تشارلز

الصغير يرى أن الإله لن يدعه يسقط في اللعنة الأبدية فقط؛ لأنه لم يعرف طريقة أخرى للمساعدة غير هذه التجربة. ولكن يبدو أن نتيجة التجربة لم تترك تأثيرًا كبيرًا على بابيج؛ ففي كتابه "مقاطع من حياة فلسفية" كتب يقول: "أتذكر جيدًا أنني ذهبت إلى الحجرة، ولكني لم أعد أتذكر إذا ما كنت قد وجدت الباب مفتوحًا أم مغلقًا". ربما سمح الإله لنفسه ببعض الدعابة ووارب الباب!

المراجع

تجـدون الموضوعـات التـي جمعـت هنـا تحـت عنـوان "قرائـن" في المراجع تحت عنـوان "السـيموطيقا" (نظريـة علـم العلامـات) - أو تحـت "التأويليـة" (نظريـة أو علـم الفهـم). أفضـل نظـرة عامـة تقدمهـا مقالـة "قرينـة" في المجلـد الرابـع مـن "المعجـم التاريخـي للخطابـة" (جوتنجـن 1998). وتقـدم مقالـة "علامـة التعـرف" في المجلـد الرابـع مـن "دائـرة معـارف الخرافـات" (برلين/نيويـورك 1984) فكـرة عـن تنـوع التواريـخ التـي تـدور حـول القرائـن. ومـما يسـتحق القـراءة المقـالات الشـهيرة للمـؤرخ كارلـو جينسـبورج Ginzburg: "صيانـة الأثـر - الصائـد يفـك لغـز الأثـر"، و"شـارلوك هوملـز يمعـن النظـر"، و"فرويـد يقـرأ موريلـلى - العلـم يبحـث عـن ذاتـه"، وذلـك في كتابـه "صيانـة الأثـر: حـول التواريـخ الخفيـة والفنـون والذاكـرة الاجتماعيـة" (ميونـخ 1988). القوانـين الرئيسـية التـي سـبق عرضهـا مدينـة كذلـك لكتـاب: جيرهـارد هـارد Hard: الآثـار وقراءتهـا" (أوسـنابروك 1995). اسـتقيت المعلومـات حـول زيـارة جوتـه لجبـل بروكـن مـن كتـاب: البريشـت شـونا Schöne: علامـات الآلهـة، وسـحر الحـب، وعبـادة الشـيطان" (ميونـخ 1993). كذلـك أريد أن أشـير إلى الدراسـة التـي صعـب الحصـول عليهـا حول العلاقـة بـين الـذكاء والجاذبية: ليـزلى تسـبروفيتش/ يـودث هـول/ نـورا مـورفى/ جليـان رودس: المظهـر الـذكي والمظهـر الجيـد: علامـات الوجـه والدلالـة عـلى الـذكاء وأصولـه" في الصفحـات مـن 238 إلى 249 مـن المجلـد 28، عـدد رقـم 2 مـن مجلـة Personality and Social Psychology Bulletin .

Thomasius





سلطات

لماذا نؤمن بما نؤمن به؟ في كتابه "خطابات إلي أميرة ألمانية" يفرق العالم الرياضي ليوناردو أويله Euler (1707-1783) بين ثلاثة أنواع من "الحقائق":

1. الأشياء التي نؤمن بها لأننا أدركناها ذاتيًا.
2. الأشياء التي نؤمن بها لأننا استنتجناها بعد تفكير متعمق.
3. الأشياء التي نؤمن بها لأن إنسانًا آخر قالها لنا.

كان هذا التفريق منتشرًا جدًا في عصر التنوير، ومنذ هذا الوقت تتمتع القناعات من "النوع الأول" بمكانة خاصة متميزة؛ فالمرء يعرف أن شيئًا ما حقيقة إذا ما رآه أو سمعه أو شعر به شخصيًا، وكذلك فإن التفكير الذاتي شيء جميل. بخلاف ذلك القناعات من النوع الثالث فهي نوعًا ما درجة ثالثة أيضًا. أما الأشياء التي يؤمن بها المرء لأن آخرين قالوها لنا فهي قناعات ضعيفة ويمكن مهاجمتها، وإلا فمن أين يعرف المرء أن ما قاله الآخرون صحيحًا؟

بناء علي هذه الخلفية فإنه من الغريب أن معظم القناعات التي لدينا ليست من النوع الأول ولا من النوع الثاني، وإنما من النوع الثالث. فنحن نؤمن بالغالبية العظمي من الأشياء ليس لأننا اختبرناها أو رأيناها، وإنما لأن أحدًا قالها لنا. ومن هنا يمكن للمرء دون كبير مبالغة أن يقول إن صورتنا عن العالم تعتمد علي ما نسمعه

من أقوال. فكون الشمس أكبر من كومة قش أو أن الإنسان متطور عن قرد وليس على سبيل المثال عن الدب آكل النمل، وهو أمر ممكن أيضًا؛ فهذا ما نعرفه لأننا قرأناه أو سمعناه. فالطفل لدينا يثق مبكرًا جدًا فيما يقوله والداه ثم فيما يقوله أستاذ المدرسة ثم أستاذ الجامعة ثم الجريدة اليومية. وفي الكبر يُعلن الكثيرون أنهم لم يعودوا يصدقون أحدًا، وأنهم لا ينبغي لهم الاعتماد على أحد، إلا كلابهم بالطبع. وهنا يمكن أن يقال إن البندول يتحرك في الاتجاه العكسي.

ويبدو الأمر في حد ذاته معقولاً إذا ما وثق المرء في آخرين، وغالبًا لا تكاد توجد بدائل لذلك. ويمكن للمرء التعرف بسهولة على قيمة شيء ما بأن يمتحن من يحكيه، فالرأي الذي يأتي في صحبة طيبة يتصرف بلباقة مثل إنسان يُقدم من قبل صديق.

الكلاسيكيون وشيوخ قبائل بحر الجنوب

يمكن للمرء أن يحاول قاصدًا إلحاق رأيه الخاص بصحبة طيبة، وهذا يعني أن يربطها بأشخاص أو مؤسسات يثق فيها من يراد إقناعه. الاسم التقليدي لهذا الإجراء هو argumentum ex autoritate أي "التعليل من خلال الإلحاق" أو "الإحالة على سلطة نافذة". فالسلطات النافذة بمثابة المرسى الذي ترسو عليه الآراء. وفي صناعة الإعلانات يتحدث المرء عن ما يسمي Testimonials أي "خطاب التذكية"، كأن يُعلن أناس مشهورون عن منتج معين. بالطبع لا بد من أن تكون العلاقة بين هذا الإنسان المشهور والمنتج مشجعة؛ فليس كل إنسان مناسبًا لكل قول.

فكلمة فلسفية على سبيل المثال لن تجدي كثيرًا إذا ما قام ميشائيل شوماخر بوضعها على خوذته إبان مسابقة الفورميلا1-. وذلك لأن كل جماعة لها سلطاتها النافذة. يتجلى هذا في الفلسفة في "الكلاسيكيين". فهم قد خاضوا سباقهم في أيامهم الخالية وخرجوا منه مكللين بالنجاح. حتى وإن كان الكلاسيكيون أشخاصًا ماتوا منذ أمد

طويـل؛ فـإن الأمـر، خـلال المناقشـات الفلسـفية، يصبـح سـهلاً بالنسـبة لنظريـة مـا إذا تـم ربطهـا عـلي سـبيل المثـال بكانـط أو أفلاطـون.

ولكـن تبجيـل الكلاسـيكيين يخفـي حقيقـة أن المصادفـات في الغالـب هـي التـي تجعـل شـخصًا مـا كلاسـيكيًا بينـما تعمـل في الوقـت ذاتـه عـلي أن يُنـسي آخـر للأبـد، فـإذا مـا حصـل شـخص مـا - لمـرة واحـدة - عـلي مـكان في الذاكـرة الجمعيـة يصبـح عملـه مـع مـرور الوقـت ذا معنـي متجـددًا. ويمثـل كارل ماركـس (1818-1883 Marx) عـلي سـبيل المثـال نموذجًـا لذلـك؛ فالكثـير مـن الجمـل التـي صنعـت التاريـخ أضيفـت إليـه؛ عـلي سـبيل المثـال جملـة "الديـن أفيـون الشـعوب" أو شـعار "العـمال ليـس لديهـم مـا يفقدونـه غـير قيودهـم"، أو نـداء "يـا عـمال العـالم اتحـدوا". فالبعـض يعتقـد أن هـذه الجمـل المشـهورة عالميًـا قـد صُكـت مـن قبـل ماركـس، ولكـن الحقيقـة أنهـا قيلـت مـن قبـل غـيره: فالشـعار الـذي يتحـدث عـن الديـن يرجـع إلي الشـاعر نوفاليـس (-1772 Novalis 1801)، والشـعار الـذي يتحـدث عـن القيـود يرجـع للثـوري الفرنـسي جـان- بـول مـارات (1743-1793 Marat)، أمـا الجملـة الأخـيرة فتعـود إلي كارل شـابر (1817-1870 Schapper) وهـو رفيـق كفـاح معـاصر لـكارل ماركـس، ولكنـه لا يـكاد يعـرف. فـلأن هـذه النصـوص اسـتخدمت مـن قبـل ماركـس وضعهـا القـارئ المتأخـر في رصيـده، بينـما أصبـح قائلوهـا الحقيقيـون طـي النسـيان. بهـذه الطريقـة تتكاثـر الومضـات الفكريـة للأشـخاص المشـهورين بعـد موتهـم.



فالكلاسيكيون هم "نوعًا ما" منتجات صناعية، ولكن تعظيمهم يزداد من قبل الأجيال المتأخرة؛ حيث يظهرون أعظم مما كانوا في الحقيقة، بل توجد شخصيات سلطوية تم اختراعها "بالكامل". مثال ذلك الطبيب العجوز الطيب د. زومر (الذي يزجي نصائحه دون توقف منذ عام 1969). وكما هو معروف فإنه ينشر نصائحه في مجلة شبابية، وأنه مستعد دائمًا للإجابة عن كل الأسئلة التي من قبيل: "النجدة، صدري يكبر!". وخلف اسم د. زومر لا يوجد فرد واحد، وإنما فريق متغير من المحررين والنفسيين. والمجلة لم تعد تهتم في الفترة الأخيرة بالحفاظ على سرية هذا التقنع.

أما النموذج الرائع لهذا الأمر فيتمثل في حالة "تويافي رئيس قبيلة جزر بحر الجنوب" الذي نشر آراءه في كتاب "البابالاجي" Der Papalagi. وفي هذا الكتاب يهتم تويافي نقديًا بالأوروبيين (أي البابالاجيين) وينظر لهم من وجهة نظر أحد سكان الجزر الجنوبية. وهذا الرجل ذو الاسم الغريب والأسلوب المتميز يأخذ الموضوع بقوة وجدية. وهو يكتب عن الكتب: إنها "سيئة ووخيمة النتائج، وذلك

لأن كل الأفكار سواء أكانت جيدة أم سيئة تقذف مباشرة علي حصيرة بيضاء رقيقة جدًا. "لأنها سوف تطبع" كما يقول البابالاجي... ثم يتم ضغط الكثير من حصائر الأفكار في حزمة واحدة، "إنها كتب" كما يسميها البابالاجي، ثم ترسل إلي أنحاء الدولة الكبيرة. وسريعًا ما يصاب كل من تناول هذه الأفكار بالعدوى. والمرء منهم يلتهم هذه الحصائر الفكرية مثل موز لذيذ، وهي توجد في كل كوخ، والمرء منهم يكدس بها الصناديق، والكل، صغارًا وكبارًا، يقرضونها مثل قرض الجرذان لأعواد القصب. ومن هنا فإن القليلين منهم هم الذين ما زالوا قادرين علي التفكير الرشيد، في مجال الأفكار الطبيعية، مثلما هو الحال لدي كل سكان الجزر الحقيقيين".

وفي القصص التالية يوجه نقده بالطبع إلي الفلوس: "عندما تتحدث مع أحد الأوروبيين عن إله الحب، يتقبض وجهه ثم يبتسم. يبتسم بسبب سذاجة تفكيرك. لكن أعطه قطعة معدنية دائرية لامعة أو ورقة نقدية كبيرة ثقيلة - تلمع عيناه مباشرة ويجري ريقه؛ فالمال حبه، والمال إلهه".

كل هذا يبدو، رغم طريقة الكتابة الطفولية البريئة، إلي حد ما، متقادمًا وتقليديًا. ولكن هذا لا يعوق النجاح؛ فالبابالاجي أصبح كتابًا شبه مقدس لدي جماعات حماية البيئة وبيعت منه ملايين النسخ. وفيما بعد ثبت أن الأحاديث ليست لأحد سكان جزر بولينيزيا، وأنها كتبت من قبل إيريش شويرمان (Scheurmannn (1878-1957 الذي وضع اسمه علي الكتاب كمحرر، والذي كان قد سافر عام 1914 إلي جزيرة سامو؛ حيث لم يبق هناك أكثر من سنة عاد بعدها عبر أمريكا إلي ألمانيا حيث نشر كتابه هذا سنة 1920. وقد روج في هذا الكتاب للكثير من نظريات النقد الثقافي التي كانت آنذاك بمثابة "الموضة". في البداية كان نجاح الكتاب محدودًا، ولكن في السبعينيات أصبحت حصيرة شويرمان الفكرية من أكثر الكتب المباعة. وقد وصل الكثير من الأوراق النقدية الثقيلة والمعادن الدائرية إلي دار النشر التي فعلت كل شيء حتى تستر هذه الكذبة وتحجبها. فمن المثير جدًا أن

يقوم رئيس قبيلة من جزر بحر الجنوب بتوجيه نقده لأوروبا بدلاً من ألماني سئم من الحضارة! فقط من خلال اختراع رئيس القبيلة توياڤي تمكن شويرمان من أن يجعل تصوره للعالم ينال رضي الجمهور العريض واعترافه بعمقه. ومنذ ذلك الوقت حصل رئيس القبيلة المتخيل على مكان ثابت في المناقشات النقدية الثقافية.

ضد السلطوية

كما أن كل منا يعرف أناسًا يقدر آراءهم، يوجد كذلك أناس لا يريد أغلبنا أن يكون له شأن ما بآرائهم. وكما يُقدر الرأي الذي يأتي في "صحبة طيبة"، يحط من قيمة رأي ما إذا ما جاء في "صحبة سيئة".

ولكن ماذا تعني "الصحبة السيئة"؟ كما أن لكل جماعة شخصياتها السلطوية النافذة يكون لها أيضًا شخصياتها التي تقف ضد هذه السلطوية، وهي شخصيات لا بد من التعرف عليها حتى ينجح المرء في وضع الآراء غير المرغوبة في "زوايا" محددة ليسهل التقليل منها.

كثيراً ما يوضع الرايخ الثالث وممثلوه في هذا السياق؛ فالآراء التي يمكن إرجاعها إلى فترة الرايخ الثالث تنزلق بسهولة تحت الأضواء المعتمة، كما هو الحال على سبيل المثال في المناقشة حول موضوع "الموت الرحيم". وبهذه الطريقة يمكن حذف هذه الآراء بالكامل من نطاق المناقشات العامة. ومن هنا فإن جملة مثل "هذا ما كان يمكن أن يقوله المرء إبان الرايخ الثالث" أصبحت عبارة تقليدية تستخدم حتى اليوم في الكثير من المساجلات بوصفها دليلاً يقع على الخصم كالصاعقة.

مطارد للساحرات وتنويري

دائمًا ما تكون الآراء التي تبني على الإحالة على سلطوية نافذة محلاً للنزاع؛ حيث يمكن للمرء أن يحيل على سلطات أخرى تزعم العكس أو يمكن له أيضًا أن يسوق الأسباب التي من أجلها لا ينبغي الوثوق كثيرًا في هذه السلطوية أو تلك. كذلك يمكن للمرء أن يكون راديكاليًا، ويشكك فيما يسمي (التعليل من خلال الإحالة علي سلطة نافذة). وهنا يشرح المرء أنه من المهم جدًا له أن يقوم "شخصيًا" بتكوين رأيه الخاص. وقد وجد في مجال الفلسفة - ولأكثر من مرة - انتفاضة حقيقية ضد هذه السلطويات. وأشهر هذه الانتفاضات هو ما حدث في عصر التنوير؛ حيث وقف التنويريون إلى جانب "إعمال الفكر" ونقدوا العادات والتقاليد والنقل الأعمى عن الآخرين. وذلك لأن هذا يمكن أن يؤدي وبسهولة إلى اتخاذ القرار الخطأ. وقد بدأ اشتعال التنوير في القرن السابع عشر ليس بسبب التأملات الفكرية النظرية، وإنما بسبب الصحوة من حالة المطاردة الجمعية للساحرات. وقد تشكل التنوير بوصفه نضالاً ضد إحراق الساحرات. وكان رجل القانون والفيلسوف كريستيان توماسيوس (Thomasius 1655-1728) أول أبطال التنوير ورواده. كان أستاذًا للقانون في جامعة لايبزج، وكان يعتقد منذ البداية في وجود السحر والشعوذة. وقد شرح هذا في لغة ألمانية قديمة وأثرية فقال: "لقد كنت مع الرأي العام القائل بوجود السحر والشعوذة حتى إنني أحسست شخصيًا أن الساحرات قد أنجبن من الشيطان الكائنات الجنية المسماة Elben، وأنهن سافرن عبر الهواء وفي صحبة الشيطان إلي جبل البلوكرس". ومن الثابت أن توماسيوس نصح عام 1694 بإدانة متهمة بالشعوذة قُدمت إليه أوراقها ليكتب عنها تقريرًا. ولكن القضية اتخذت طريقًا غير معتاد. فتقرير توماسيوس لم يبهر زملاءه الجامعيين الذين دققوا فيه ثم طرحوا بعض الأسئلة حول القرائن التي اعتمد عليها. ولما كانت الأسئلة مفاجئة لتوماسيوس، الذي أراد أن يستفيد من تقريره الصارم، اضطربت عليه الأمور. وفي النهاية قررت الكلية التقدمية أنه لا بد

من أن يُطلق سراح المتهمة التي تدور حولها القضية، وبذلك لم يحقق كريستيان توماسيوس نجاحًا باقتراحه الإدانة.

وقد أعطته هذه الخيبة المهنية؛ حيث جعل نفسه بهذا التقرير أضحوكة، فرصة التفكير، بعد أن كان يكتفي وهو رجل القانون بالتصديق الأعمى للإشاعات التي تنطلق حول الساحرات والشيطان. ومع الوقت تحول توماسيوس من ساولوس إلي باولوس، وأصبح أشهر المعارضين لقضايا مطاردة الساحرات في ألمانيا.

وفي سنة 1702 ظهر كتابه "جمل تعليمية قصيرة حول رذيلة السحر"، والذي تمثلت ذروته في طلبه وقف كل القضايا التي تتصل بمطاردة الساحرات، وذلك لأن السحر الأسود غير موجود. وقد كلل نضاله أخيرًا من خلال الكتابات الكثيرة والمغامرة الشخصية الخطيرة بالنجاح؛ حيث أُلغيت قضايا مطاردة الساحرات - أولاً في بروسيا ثم في كل ولايات الرايخ الألماني القديم، ولكن توماسيوس لم يكن سعيدًا بهذا. كيف حدث أنه شخصيًا آمن بمثل هذه الشائعات الواهية؟ وبتتبعه لهذا السؤال أصبح توماسيوس أول تنويري ألمانيا.

وقد طور توماسيوس أول نظرية عن الأحكام المسبقة، وهي النظرية المميزة للفلسفة التنويرية ككل، والتي لم تفقد إلي اليوم شيئًا من معاصرتها. وقد قسّم توماسيوس الأحكام المسبقة إلي درجتين: الأحكام التي تعتمد على السلطات، وتلك التي أحدثها التهور والتعجل. وكان هذا التقسيم من جانبه بمثابة اللقاح التنويري، وذلك لأنه يسّر بصفة عامة التعرف علي الأحكام المسبقة.

والأحكام المسبقة التي تعتمد على الإيمان بسلطة ما، كما يقول توماسيوس، هي الأسوأ في معالجتها: "ولكن إذا ما قام أحدهم مرة بسبب الحب النظري للسلطوية البشرية بابتلاع رأي خاطئ فإنه يصعب التخلص منه لدرجة أن أذكي الناس لا يريدون الاعتراف بالخطأ كما لو أنهم لا يستطيعون دفع الأدلة المعارضة، وإنما يلتصقون به ويقولون إن هذا حدث بسبب نقص فهمهم، وأن الناس الذين أخذوا عنهم هذا الرأي يمكنهم الدفاع عنه بشكل أفضل".

البشر مطبوعون على القابلية للأحكام المسبقة، ولكن لماذا؟ يرجع السبب، كما يرى توماسيوس، إلى عجز أطفال البشر. فبينما أطفال الحيوانات بفضل غريزتها تجد طريقها بسرعة، يظل أطفال البشر ولوقت طويل عالة على والديهم. هنا يجد توماسيوس السبب الذي لا يمكن علاجه للاستعداد المرضي للإيمان بالخرافات والأحكام المسبقة: فالناس "تسمع" عن أشياء كثيرة قبل أن يرونها، والأطفال "يفهمون فكرة الآخرين عن ماهية الأشياء قبل أن يتمكنوا شخصيًا من التفكير حقيقة في هذه الأشياء". الأطفال مطبوعون على الإيمان بسهولة - وهكذا يجب أن يكونوا - والسبب في هذا "أن الأطفال تصل إليهم بجانب الحقائق القليلة ملايين الأخطاء". ومن هنا فإن التحرر من الأخطاء والخرافات والأحكام المسبقة يمثل، منذ وقت كريستيان توماسيوس، أهم نقاط مشروع التنوير الذي اعتني كما تقول جملة إيمانويل كانط المتأخرة: "بمسلمة التفكير الذاتي في كل وقت". وكان الهدف ألا يثق المرء في الأفكار التي تأتيه من الدرجة الثانية أو الثالثة، وإنما على الحكم الشخصي والتجربة الذاتية. كان العصر العظيم للتنوير في القرن الثامن عشر، ولكنه كان قد بدأ قبل ذلك مع كفاح كريستيان توماسيوس ضد الاعتقاد في السحر والشعوذة.

لم يكن النقد الذي وجهه التنوير للسلطوية سهلاً، وذلك لأنه تبين سريعًا أن التفكير الذاتي محدود المدى. كان الاعتراض المستمر ضد الآمال العريضة التي أيقظها التنويريون يتمثل في أن التفكير الذاتي النقي لم يتيسر حتى للتنويريين شديدي الصرامة، حتى إن جملة "تحلى بشجاعة أن تخدم تفكيرك الخاص" التي قدم بها إيمانويل كانط التنوير لم تكن نتيجة لتفكير ذاتي وإنما هي منقولة؛ فهي ترجمة لحكمة رومانية قديمة هي (Aude Sapere!) "أودا سابرا!" أي "استخدم عقلك"، وهي توجد علي سبيل المثال لدي هوراس.

إعمال الفكر

رغم كل هذا التنوير فلم تنحسر استعبادية السلطوية، بل إنها زادت بطريقة ما. فالإنسان الحديث، مقارنة بأجداده قبل ثلاثة قرون، يؤمن - بكثرة واضحة - بأشياء يعرفها فقط عن طريق السماع. فلم يحدث قبل ذلك مطلقًا أن كان تفكير الأفراد محددًا بقوة من قبل وجهات النظر والآراء التي يأخذها عن الآخرين دون أن يختبرها أو أن تكون له القدرة على ذلك. ولا يرجع هذا إلى الكسل الذي قد يكون موجودًا في بعض الحالات الفردية. ولكن هنالك سبب مهم يتمثل في فيضان الآراء والمعلومات التي لا يستطيع الفرد أن يهضمها؛ فالمرء في مجتمع تقسيم العمل مضطر للاعتماد علي الخبراء.

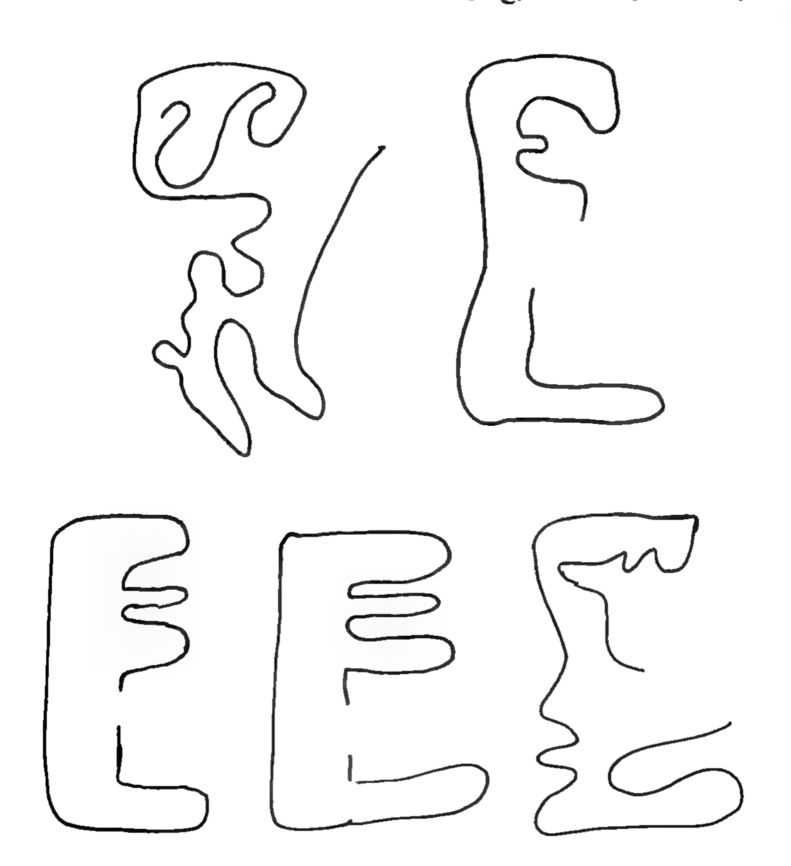
وبهذا نرجع مرة أخرى إلى بداية هذا الفصل؛ أي إلى القناعات من النوع الثالث التي تعد أقل أهمية مقارنة بالنوعين الأولين. لقد كان حلم التنوير أن تُلغي هذه القناعات، وأن يفكر عوضًا عنها ذاتيًا.

ولكن هذا ليس ممكنًا بشكل كلي شامل، وإلا لنتج عن هذه المحاولة على الأقل ضرورة التخلي عن كل شكل من أشكال الحياة الاجتماعية، وأن يستوطن المرء الصحراء، بل إن هذا أيضًا لن يصبح كافيًا؛ لأن المرء سيتأثر أيضًا بالذكريات حتى في الصحراء. أما الطريق الراديكالي للتنوير فسيكون هكذا: أن يضرب المرء دماغه بنشابة خشبية حتى يمسح أسطوانة التخزين كليًا. بهذه الطريقة وحدها يمكن للمرء أن يتحرر من الأحكام المسبقة، ولكنه سيفقد في الوقت نفسه القدرة على التفكير. ومن هنا فإنه من المفيد أن يكون واضحًا منذ البداية أن التفكير الذاتي يمكن أن يتيسر بصورة جزئية فقط، وذلك لأنه من غير الممكن البدء "بالكامل" من نقطة الصفر. ....

لعبة: البريد الصامت

1. اذهب إلى البدروم وابحث في كراتين وصناديق الأشياء المنسية عن الشيء الأكثر غرابة الذي يمكن لك أن تعثر عليه. ربما كان هذا الشيء تذكارًا لرحلة ما أو بقايا مترية أو خيط دوبارة.

2. ارسم تخطيطًا لهذا الشيء.
3. اعرض هذا الرسم التخطيطي على صديق، ثم اطويه مرة أخرى، واطلب منه أن يُعيد رسم هذا الرسم التخطيطي من ذاكرته.
4. خذ الرسم الجديد، واذهب به لصديق ثان أو لجار أو لواحد ممن تعرفهم، واطلب منه أن يرسم الرسم الجديد من الذاكرة. هذا مثلما في لعبة البريد الصامت، ولكننا نستخدم الصور هذه المرة.
5. كرر هذا الأمر لست أو سبع مرات.



ترتبـط هـذه اللعبـة بتجربـة لعـالم النفـس الاجتماعـي الإنجليـزي فريدريـك بارليـت 1886-1969) Bartlett) الـذي كان يريـد أن يعـرف ماذا يبقـى مـن معلومـة أو مـن صـورة بعـد أن تمـر عـبر الكثـير مـن الـرؤوس. وكانـت النتيجـة: أنـه توجـد خطـوة بعـد أخـري نوعًـا مـن التيسـير؛ حيـث تُفقـد تفاصيـل عـدة، ولا يبقـي في النهايـة غـير نمـوذج تخطيطـي يتناسـب مـع عـادات التفكـير والرؤيـة لـدى الجماعـة. ورغـم ذلـك يبقـي شيء غـير محـدد مـن قبيـل "كان فيـه حاجـة ثانيـة" مـا زالـت ناقصـة - هـذا إذا لم يكـن الأمـر عكـس هـذا. وذلـك لأنـه لـن توجـد في سلسـلة الحـكي (الرسـم/ اللعـب) تفاصيـل متروكـة فقـط، وإنمـا تفاصيـل أخـرى مضافـة، وهـي التفاصيـل التـي تناسـب الصياغـة الشـخصية، بـل تجعلهـا واضحـة ومتناسـقة وذات معنـى.

المراجع

استقيت الفرق بين الأنواع الثلاثة من القناعات من كتاب "خطابات إلي أميرة ألمانية" للعالم الرياضي ليوناردو أويله Euler (1707-1783) الذي ظهر عام 1768 (توجد طبعة مختصرة لهذه الخطابات ظهرت عام 1968 عن دار نشر ريكلام/ لايبزج). وقد وجه هذه الخطابات الرائعة الواضحة مثل زجاج إلي فريدريكا فون براندنبورج-شفيدت (1745-1808)، وهي ابنة عمومة الملك البروسي فريدريش الثاني، وقد عاشت بوصفها رئيسة لدير فى وقف علي أطراف مدينة هيرفورد (ولاية فيستفالن). حينما تلقت الأميرة هذه الخطابات كانت في حوالي الخامسة عشرة من عمرها. وقد كتبت الخطابات من برلين حيث كان أويله في ضيافة فريدريش الثاني. وقد بسط أويله نظريته عن القناعات الثلاث في الخطابات من رقم 115 إلى رقم 120. أما عن كريستيان توماسيوس فتوجد معلومات مختصرة، ولكنها محيطة لدي رولف ليبرفيرت Lieberwirth في: "كريستيان توماسيوس: عن قضايا السحر والشعوذة" (ميونخ 1987). عن نظرية الأحكام المسبقة لكريستيان توماسيوس انظر كتابه: "مدخل إلى نظرية العقل" (هيلدسهايم 1968/ هآله1691). أما نقد الأحكام المسبقة في عصر التنوير فيصوره فيرنر شنيدرس Schneiders في كتابه: "التنوير ونقد الأحكام المسبقة" (شتوتجارت - باد كانشتاد 1983). حالة البابالاجي وبعض القصص المشابهة بسطت في كتاب: "نظرة الغريب بوصفها أداة أسلوبية للنقد الثقافي الغربي" (فرانكفورت/ماين 1984).

Martin Heidegger



5 النظر

تُظهر لعبة البريد الصامت ما يمكن أن ينتج إذا ما حاول كثيرون بعد بعضهم البعض استيعاب ما رآه السابق عليه دون أن يستطيع رؤية الأصل ومراقبته مرة أخرى. بالطبع سيختفي الانطباع الأصلي ببطء، وسيظهر بدلاً منه شكل جديد تمامًا، وهذا هو الحال إذا ما كان الشيء معقدًا ومتعدد المعاني.

وقد استعملت هذه اللعبة لدراسة طريقة عمل الذاكرة الجمعية. فاللعبة تظهر أنه يوجد دائمًا اتجاه لجعل محتوى عقل ما "سهل الهضم"، وذلك إذا ما تمت نمذجة هذا المحتوي. صورة التذكر تبتعد بصفة خاصة بسرعة عن نقطة البدء إذا ما كانت هذه النقطة معقدة ولها أكثر من معني. وإبان ذلك لن يتم التخلي فقط عن بعض الأشياء، وإنما تضاف أخرى أيضًا، ولكنها تكون على سبيل المثال مثل الطوق للقطة أو الحواجب للوجه. وعلى كل حال سيفقد المصدر الرئيسي خصوصياته بصفة مطردة ويكيف نفسه بشكل متنام ليناسب الصور المنتشرة في العالم. ويمكن ملاحظة هذه النمذجات في حكي وإعادة حكي القصص التي يتطور فيها حدث ما ليصبح ببطء "قصة مثيرة".

مثل هذه الحكايات منتشرة أيضًا في الفلسفة. وبصفة خاصة، وهذا عجيب، حين يُستند "مباشرة" إلى الواقع. ومن الغريب أن النصوص الفلسفية غالبًا ما تصبح باهتة وغير ناضجة حين يصبح

العالم المحسوس موضوعًا لها؛ فحيث ينبغي أن يكون الأمر طازجًا وملموسًا نجد في الغالب مستحضرًا توليفيًا جافًا. فالأمثلة والحكايات التي يريد الفلاسفة من خلالها إضافة البهجة والحيوية على أعمالهم هي في الغالب منقولة، بل وأكثر من مرة؛ فمن نُقل عنه كان قد نقل بدوره عن غيره. أحيانًا يجب على المرء أن يرجع بسلاسل الرواة مئة عام من أجل الوقوع على مؤلف قد رأى الأمر "شخصيًا". فإذا ما تعلق الموضوع بمصطلح الصدفة، وجري البحث عن مثال محدد فيمكن للمرء أن يكون متأكدًا من أن الحديث سيصل عاجلاً أو آجلاً إلى مثال الطوبة التي سقطت من السقف. فإذا ما تعلق الأمر بمصطلح الشيء المادي سيظهر مثال المكتب في المرآة طوعًا. وإذا ما تعلق الأمر بحقيقة الأنواع فإن المرء يعرف منذ فترة مثال الوردة. فالأمثلة تنتقل من مؤلف إلى آخر مثل الخبز المقدد في مركب للنجاة لا يسمح لمن فيه بأكله، وإنما بشمه فقط. ومن هنا فليس من الغريب إذا ما ظهر مع الوقت أن هناك نقصًا محددًا في التغذية.

ومن هنا، فإنه من المفيد باستمرار "تدقيقًا للنظر" أن تُقاس الأمثلة علي الواقع، وأن تُقرأ مع الشك بأنها منقولة، وكذلك فإنه من المفيد تنويع الأمثلة واستبدالها بأمثلة جديدة.



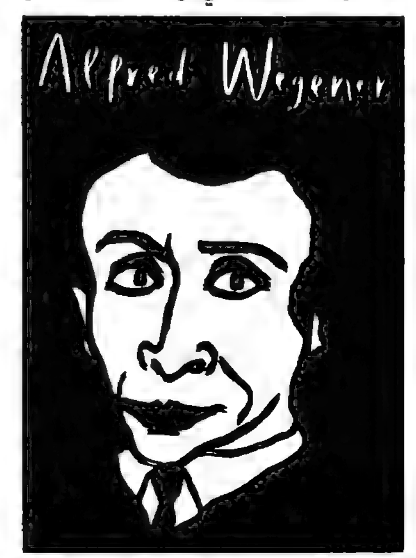
وهذا بالضبط كان هدف المدرسة الفينومينولوجية (الظاهرياتية) التي أسست من قبل أدموند هوسرل 1938-1859) Husserl)، وكان شعارها "الرجوع للأشياء نفسها". وقد طور الفينومينولوجيون ثقافة جديدة للوصف تختلف بطريقة إيجابية عن المناقشات المجردة

للاتجاهات الفلسفية الأخرى. وقد اجتهد تلاميذ هوسرل بشغف يبلغ حد الهوس لأجل توصيفات دقيقة للمشاعر أو الأحاسيس أو عمليات التفكير. وقد كشف إبان ذلك عن بعض النظريات القديمة جدًا حول المشاعر أو الجسد أو الوعي بوصفها مختلقة - أو "مصنوعة" ولا تتفق كما كان يقولون "مع أصول الفينومينولوجيا". "هوسرل ركب لي عيونًا" - بهذه الكلمات الجميلة مدح مارتن هيدجر Hei-degger (1889-1976) أستاذه الفلسفي في إحدى المرات. وقد امتدت تأثيرات الفينومينولوجيا خارج نطاق الفلسفة فأثرت علي الرياضيات وعلم النفس وعلم الاجتماع. كما أنها قد تلاقحت مع الأدب أيضًا؛ فالفينومينولوجي والكاتب جان-بول سارتر (1905-1980 Sartre) أُعطي عام 1964 جائزة نوبل التي رفضها لأسباب سياسية.

بالطبع لم يكن الفينومينولوجيون أول من عرف أهمية أن يرفع المفكر نظره بين حين وآخر عن الكتب ليديره في العالم. ويوجد نموذج رائع يجده المرء لدى الفيلسوف الرياضي جوتفريد فيلهلم ليبنتس (1646-1716) الذي يوصف عادة بأنه عقلاني، أي أنه وضع ضمن اتجاه فلسفي يعلي العقل علي الإدراك الحسي، ولكنه كان يتمتع أكثر من تجريبيين كثيرين بموهبة الرؤية النزيهة غير المغرضة. ويتبين هذا في الجدل مع مبادئ رينيه ديكارت (1596-1650 Descart). كان ديكارت يمثل الرأي الذي يقول إن الشيء الوحيد الذي يمكن التعرف عليه بوضوح وصراحة في أشياء العالم الخارجي هو أبعادها الهندسية التي يمكن تحديدها. ومن هنا فإن الرياضيات يمكنها أن تقدم وصفًا موثوقًا به ومرضيًا للعالم الخارجي، وهي رؤية يشاركه فيها إلى اليوم الكثير من علماء الطبيعة. وقد وقف ليبنتس ضد هذا الرأي، وقال إن هذا الشكل الذي يزعم من قبل ديكارت لا يوجد على الإطلاق، فالمرء إذا نظر نظرة اعتباطية يظن أن بإمكانه التعرف بوضوح على شكل الأشياء، ولكن الملاحظة عن قرب تظهر أن كل شيء يحوي حفرًا غير محدودة وشروخًا دقيقة لا يمكن لشكل هندسي ما أن يتعامل معها بطريقة مرضية. ومن هنا فإن الوصف الرياضي للظواهر لا يُعطينا معرفة واضحة جلية، وإنما فقط معرفة تجريدية مبهمة. فمن

خلال تدقيق نظر يسير تمكن ليبنتس من أن يقلب نظرية تبدو جيدة التعليل وفوق هذا مركزية رأسًا على عقب.

وتدقيق النظر يعني أن الإنسان يحمل ما يراه على محمل الجد ولا يتجاهله. وهذا الأمر ليس بدهيًا كما قد يبدو؛ لأن المرء يُعطي من خلال التربية والتعليم نماذج للرؤية لا يمكن له تجنبها، وهي نماذج تحدد أي التفاصيل مهمة وأيها جانبي لا وزن له. ومن هنا فإن من يرى شيئًا لا يراه الآخرون قد يواجه صعوبات لا يمكن له تجاوزها. ولا أعرف في هذا السياق مثلاً أفضل من تطور نظرية الزحزحة القارّية بواسطة الجيوفيزيائي الألماني ودارس المنطقة القطبية الفريد فيجينر (Wegener 1880-1930). لقد نظر فيجينر بدقة إلى المعالم الساحلية للقارات، ولاحظ ما يمكن لكل طفل أن يراه، وهو أن معالم الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية يتناسب تمامًا مع تجويف ساحل غرب أفريقيا، وإن المحيط بين أوروبا وأمريكا يمكن إغلاقه دون جهد إذا ما قام المرء بتحريك بعض الخطوط الساحلية قليلًا. كان يمكن لفيجنر بالطبع أن ينحي هذه الملاحظة جانبًا ويهز كتفيه قائلاً: إن الأمر مجرد صدفة، ولكنه بدلاً من ذلك أعلن نظريته عن أن القارات كانت في وقت ما قارة عملاقة واحدة ثم انفصلت عن بعضها البعض. أخذ فيجنر يجمع الأدلة على صحة هذه الفرضية، وأشار من بين ذلك على سبيل المثال إلى تشابه عالم الحيوان في كل من أمريكا الجنوبية وأفريقيا الجنوبية لدرجة مدهشة. ورغم ذلك عُد فيجنر من قبل المتخصصين مجنونًا وغريب الأطوار. وقد أشير كدليل على جنونه إلى أنه لم يقدم "شرحًا" مقنعًا لهذه الزحزحة العجيبة للقارات، ولكن لم يكن من الممكن التدليل على فرضيته



بواسطة النظريات المسيطرة آنذاك في مجال الجيولوجيا ولذا فإنها فرفضت.

وقد مات فيجنر عام 1930 لدى محاولته التدليل على فرضيته من خلال قياسات مختلفة في الثلوج الأبدية على جزيرة جرينلاند. فقط بعد ثلاثين عامًا تمكن الجيولوجيون من تقديم أدلة حاسمة على صحة نظرية الزحزحة القارية المعترف بها اليوم علميًا على مستوى العالم.

المراجع

أخـذت لعبـة البريـد الصامـت مـن كتـاب فريدريـك بارليـه Bartlett "التذكـر" (كمبريـدج 1932). وهـي مبسـوطة في اللغـة الألمانيـة في كتـاب سـتيفن شـفارتس Schwartz "كيـف توصـل بافلـوف لاسـتخدام الكلـب - التجـارب الكلاسـيكية الخمس عـشرة لعلم النفـس" (فاينهايم/بـازل 1991). عـن الأبحـاث الجديـدة حـول الاسـترجاع أو النسـخ التسلسـلي انظـر المقـال الشـامل عـن "الأبحـاث السرديـة التجريبيـة" في المجلـد الرابـع مـن "دائـرة معـارف الخرافـات" (برلين/نيويـورك 1984). حـول خصوبـة تدقيـق النظـر في الفلسـفة كتـب هيرمـان شـميتس في كتابـه البرنامـج: "الفينومينولوجيـا الجديـدة" (بـون 1980). يعـد شـميتس أهـم فينومينولوجيـي الأحيـاء، ولذا أريـد أن أشـير إلي العـرض الموجـز لفلسـفته الـواردة في كتابـه "الموضـوع الـذي لم يُقتـل بحثًـا" (بـون 1990). توجـد بعـض الملاحظـات المهمـة حـول أهميـة تدقيـق النظـر في كتـاب بيـتر بيـيري Bieri "حرفـة الحريـة" (ميونـخ/ فينـا 2001) عـلى وجـه الدقـة في "الفاصـل الموسـيقي الثـاني". مـن يريـد التعـرف عـلى المنهـج الأصـلي للرؤيـة الفينومينولوجيـة ينبغـي عليـه أن يقـرأ "تلميـذ هـوسرل" هانـز ليبـس Lipps عـلى سـبيل المثـال كتابـه "الطبيعـة الإنسـانية" (فرانكفورت/المايـن 1941)، أو أيضًـا فيلهلـم شـاب Schapp عـلي سـبيل المثـال "دراسـات حـول فينومينولوجيـا الإدراك" (هالـه 1910). جـاءت ملاحظـة ليبنتـس حـول إمكانيـة هندسـة الطبيعـة عـلي نحـو مسـتتر لـذا ذكـرت مصدرهـا. وهـي عبـارة عـن ملاحظـة صغـيرة بعنـوان Primae veritates "الحقائـق الأولي" وقـد نـشرت للمـرة الأولي في القـرن العشريـن في الكتـاب الـذي حـرره كوتـوره Couturat تحـت عنـوان "الشـذرات والأعـمال القصـيرة غـير المنشـورة لليبنتـس" (هيلدسـهايم 1961 (1903) ص522).

Gottfried Wilhelm Leibniz



6 أمثلة

تعد الأسئلة بمثابة العناصر الأهم في كل برهان، وهي تحاول أن تدعم أو تبرهن على كل قول عام من خلال حالة وحيدة. ومن ثم يبدو الأمر كما لو أننا نريد أن ندعم بيتًا أمالته الريح بواسطة بعض نبات البوص. فبواسطة الأمثلة المفردة يمكن للمرء أن يجعل المقولات العامة على الأكثر مفهومة ولكنه لا يعللها، حتى إن مقولة مبتذلة مثل: "البغال (وهي كما نعرف خليط من الحصان والحمار) لا تتميز بالخصوبة" لا يمكن التدليل عليها بشكل حاسم من خلال الأمثلة حتى وإن كانت كثيرة جدًا. ولكن يتم، على العكس من هذا، رفض هذه المقولة من خلال مثال معارض وحيد. ففي خريف 2002 علي سبيل المثال تحدثت وسائل الإعلام عن حالة من هذا القبيل؛ ففي قرية مغربية ولدت بغلة بغلاً صغيراً ذكرًا. وحاليًا يحاول العلماء فهم الكيفية التي تمكنت بها هذه البغلة من تجاوز الحواجز الجينية المعروفة. فالطبيعة تقوم من وقت إلى آخر أحيانًا بكسر قوانينها الخاصة، ومن ثم لا يمكن كمبدأ الثقة في مقولة عامة حتى وإن كانت الأمثلة التي تدلل عليها كثيرة جدًا؛ فعلي المرء أن يترك مجالاً للمفاجآت.

اختبار الحِكم

كلما جاءت الجملة شاملة، كلما بدت واضحة، خاصة إذا جاءت من قبل فلاسفة مشهورين. ورغم ذلك ينبغي للمرء أن يحاول تكوين انطباعه الخاص (من خلال الأمثلة ونقيضها) عن مدى اتساع وتعميمية إحدى وجهات النظر. وهكذا تنتهي بعض النظريات أو تتحلل ذاتيًا. على سبيل المثال الأطروحة التالية للودفيج فيتجنشتاين (Wittgenstein (1889-1951): "حدود لغتي هي حدود عالمي". هذا القول يؤثر في البداية بطريقة مدهشة، ربما لأنه يبدو للمرء كما لو أنه قد قرأه "في مكان ما". حدود لغتي... حدود عالمي - يا لها من جملة حسنة الرنين. ورغم ذلك ينبغي التساؤل: هل هذه حقيقة؟ في البداية سوف تلح علينا الأمثلة الإيجابية، وكلما استطاع أحد أن يعبر عن نفسه جيدًا، كلما كانت لديه القدرة، كما يبدو، على الوعي والإدراك، وكانت تجاربه ثرة غنية. ولكن إذا ما قام المرء "بتحوير" هذه الأمثلة قليلاً سرعان ما تظهر المشاكل بسرعة. كيف يكون الحال عندما يتصور المرء طفلاً صغيراً لا يعرف الكلام بعد؟ هل تسري هذه المسلمة هنا أيضًا؟ الأمر بالطبع أقرب للنفي. يعرف علماء نفس الطفل ومستشارو التربية أن أحد الأخطاء التي يمكن أن تكون وخيمة العواقب أن يُظن أن الأطفال لا يدركون الأشياء لأنهم لا يستطيعون التواصل اللغوي؛ فعالمهم الانفعالي أكبر من قدرتهم على التعبير. وبهذا يصبح لدى المرء مباشرة مثال ضدي يبعد بسهولة أمثلة أخرى. فأطروحة فيتجنشتاين، إذا ما تجردت، لا تخلو قياسًا على الأمثلة من مشاكل؛ فهي تبالغ في تجاوزها لمعني اللغة.

حالة أخرى تأتي هذه المرة من مجال العقل العملي وتتعلق بالأمر المطلق لإيمانويل كانط (Kant (1724-1804 والذي نصه: "افعل الفعل بطريقة تكون فيها مسلمات إرادتك صالحة طوال الوقت لأن تصبح مبدءًا لتشريع عام". وهنا توهم صعوبة الصياغة والكلمات الدخيلة مثل كلمة Maxime "مسلمة" وكلمة Prinzip "مبدأ" توهم بدقة وإحكام الجملة التي تبدو لبعض الناس وكأنها إحدى "النتائج"

الخالدة للفلسفة. وهنا أيضًا فإن الأمثلة التي تؤكد هذا الأمر قريبة جدًا. أليس الواقع حقيقة أن الإنسان ينبغي أن يحترم كرامة الآخرين وألا يسرقهم أو يخدعهم؟ ألا يسهل هذا الواقع رفع هذا ليكون تشريعًا عامًا؟ لكن سرعان ما تظهر المشاكل إذا ما بدأ المرء يهتم بالأمثلة الجانبية: وكيف يكون هذا مع مسلمة أن يكون المرء مدخرًا، وأن يجعل أمواله بشكل دائم في البنك. فهذا مبدأ يبدو في حد ذاته عقلانيًا، ولكن هل هو خليق لأن يكون مبدءًا لتشريع عام؟ هذا يبدو بالطبع أقرب للرفض؛ لأن الادخار الشامل المفيد للأفراد يكون بمثابة تدمير لكل اقتصاد وطني.

مثال آخر من حياة كانط الشخصية: لقد ظل طوال حياته دون زواج، وفي هذه الحالة تكون المسلمة: "كن عازبًا!". وهو مبدأ كان - كما يبدو - معقولاً من وجهة نظر كانط. فهل من حقنا أن نسأل عما إذا كان من الممكن أن تصبح هذه المسلمة أيضًا مبدءًا لتشريع عام؟ ألا يمكن أن تؤدي مع الوقت إلى نتائج سيئة غير مرجوة؟

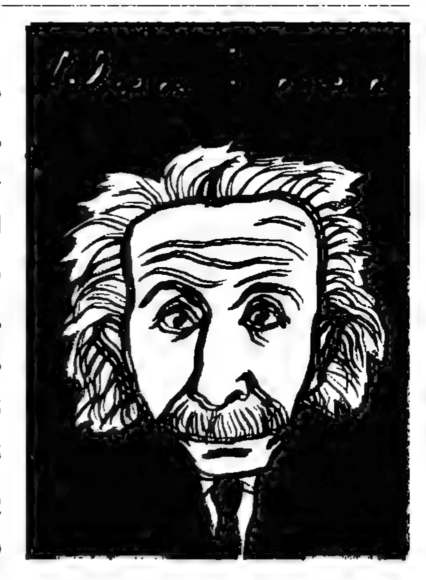
معركة أينشتاين

من يطرح نظرية عامة لا ينبغي له أن يخاف بشدة إلا ممن يحاولون إيجاد أمثلة معارضة لطرحه. وكلما كانت النظرية أكثر عمومية، كلما كانت فرصتهم أكبر للوقوع على مثل هذه الأمثلة المعارضة، استطاعوا أن يضعوا المنظرين بالتالي في مواقف حرجة. ومن ناحية أخرى فإن، كل هجوم بالأمثلة المعارضة يقدم كذلك فرصة متميزة للدفاع.

فالمثال المعارض إن لم يكن ضربة قاضية يظهر النظرية التي تصدت له قوية ويمكنها التوصيل والشرح "فعلاً". بهذه الطريقة فإن الهجوم المردود يقوي النظرية التي كان مشكوكًا في أمرها. وكثيرًا ما يُعاد سرد هذا الهجوم المردود من قبل ممثلي نظرية معينة أو موقف محدد، وينبغي أن يكون هذا السرد مؤثرًا بشكل أشبه بما يحدث لدى القبائل المتحاربة؛ حيث تعد الندوب والجروح برهانًا على الحق في

البقاء. ومن هنا يتضح خطر الهجوم بالأمثلة المعارضة الخطرة إبان مناقشة حول ميكانيكا الكوانتم (نظرية الكم) التي دخلت حوليات العلوم منذ زمن طويل. كان مسرح الصراع مؤتمرًا للفيزيائيين، وهو "مؤتمر سولوي الخامس" عام 1927. وقد تمثلت المعارضة في ألبرت أينشتاين (1879-1955) Einstein الذي كان مقتنعًا بأن ميكانيكا الكوانتم خطأ، وعلى الجانب الآخر مؤسسو نظرية ميكانيكا الكوانتم، وكانوا جميعًا من الفيزيائيين الشباب وهم: فولفجانج باولي Pauli (1900-1958)) وفيرنر هيزنبرج (1901-1976) Heisenberg ونيلس بور (1885-1962) Bohr). كان أينشتاين يلتقي كل يوم على الإفطار بهؤلاء الثلاثة لا يمل من طرح شكوكه ضد نظرية الكوانتم، وكان يتصور وبشكل دائم تجربة لا بد من أن تظهر عدم صحة النظرية. وبينما اكتفي كل من باولي وهيزنبرج بالاستماع للاعتراضات دون أن يعطوا الأمر أهمية، أخذها بور مأخذ الجد وفكر إبان النهار في دفعها، ولدى العشاء قام بتفنيد براهين أينشتاين.

ولكن أينشتاين لم يقبل بالهزيمة، وبعد ثلاث سنوات، وفي "مؤتمر سولوي السادس"، فكر في شيء مميز جدًا، تجربة علبة الفوتون (وحدة طاقة الضوء). وكان يريد بهذه التجربة أن يقلب مبدأ عدم اليقين، وهو قانون أساسي في ميكانيكا نظرية الكم. وبعد العرض الذي قدمه أينشتاين اضطرب بور بشدة؛ لأنه لم يستطع في حينه تبين أماكن الضعف في التجربة والأخطاء المحتملة في الاستدلال لها. وقد كتب أحد الزملاء فيما بعد: "لقد كانت صدمة حقيقية لبور... وخلال المساء كان مضطربًا بشدة، ينتقل بحديثه من واحد إلى آخر محاولاً أن يقنع كلاً منهم بأن هذا الاستدلال لا يمكن أن يكون صحيحًا، وأنه يعني - إذا كان عند أينشتاين حق - نهاية الفيزياء، ولكنه لم يستطع أن يقدم دفاعًا وجيهًا. ولن أستطيع مطلقًا أن أنسي منظر كلا المتصارعين حينما كانا يغادران النادي...: كان أينشتاين يبدو كشخصية عظيمة وابتسامته تملأ الوجه، بينما كان بور المضطرب يمشي إلي جانبه مهرولًا... ولكن في اليوم التالي جاء نجاح بور الكبير".



لقد اكتشف بور خطأً في براهين أينشتاين. وقد استخدم في تفنيده إياها وعن قصد أيضًا جملاً من نظرية النسبية العامة التي كان أينشتاين قد طورها قبل ذلك بقليل. وقد رفع هذا النصر في أعين الفيزيائيين الحاضرين من هيبة نظرية الكوانتم وقيمتها. لقد تصدت لمحاولة هدم ذكية كانت تريد دحضها، ولكن أينشتاين لم يعترف طبعًا بهزيمته، وظل حتى وفاته يعتبر نظرية الكوانتم غير صحيحة.

تستطيع الأمثلة المعارضة أن تزعزع إحدى النظريات، ولكن هذا لا يعني بطريقة آلية نهايتها، بل يستطيع المرء أن يضعف هذه الأمثلة بطرق متنوعة؛ حيث يمكنه ببساطة أن يتجاهل المثال ويرفضه؛ فإن لم ينطلِ هذا على أحد يمكنه أن يعلن أن المثال حالة استثنائية، أو أن يستخدم الفرضيات المساعدة التي تقضي على المثال من خلال الشرح، بل يمكنه أخيرًا أن يعمل على الاختلافات الدقيقة، وأن يجعل المثال بهذه الطريقة غير ضار.

الحوار التالي يرينا كيف يعمل هذا الأمر، وهو بمثابة إعداد حواري لقصة من قصص روبرت موزيل. والأمر لا يتعلق هذه المرة بالفوتون والكوانتم، وإنما بالسؤال عما إذا كانت الخيل تستطيع الضحك. الكثيرون منا يعتقدون أن هذا غير ممكن؛ لأن الضحك كما يزعمون أحد السمات المميزة للبشر. وكذلك كان السيد ماير:

السيدة ماير: رأيت قبل قليل حصانًا يضحك. لقد تمت زغزغته فضحك.

السيد ماير: ماذا؟ تقولين تمت زغزغته؟

السيدة ماير: أجل تحت الإبطين، وهذا ما أثار ضحكه، ولأن للحصان أربعة آباط فإن استعداده للزغزغة ضعف استعداد الإنسان.

السيد ماير: ولكن هذا لا يبرهن الأمر لأن الضحك ميزة إنسانية.

السيدة ماير: وكان لديه إلى جانب هذا مكان ذو حساسية خاصة على الجانب الداخلي للفخذ!

السيد ماير: لا بد أنك تحلمين.

السيدة ماير: وكلما اقتربت فرشاة الغسيل من هذا المكان الحساس يجعل أذنيه للخلف وهو مضطرب يريد أن يصل إلى هذا المكان، فإن لم يستطع يظهر أسنانه. كانت الفرشاة تقترب أكثر فيتقافز المهر على قدميه راقصًا. أما الأذنان فكانتا متجهتين باستمرار للخلف، وفجأة أظهر كل أسنانه. كان يضحك.

السيد ماير: هذا جنون. لقد أظهر أسنانه، ولكن هذا لم يكن ضحكًا.

السيدة ماير: إنه لم يقهقه ضاحكًا. هذا ما لم يفعله. هذا شيء تستطيعه أنت فقط.

السيد ماير: ماذا تعنين؟

السيدة ماير: لا شيء... لكن هذا المهر... لقد تكررت هذه اللعبة بشكل دائم. لقد كان "يريد" أن يضحك وينتظر أن تقترب الفرشاة مرة أخرى.

السيد ماير: إنه "لم" يضحك، وإنما أظهر أسنانه فقط.

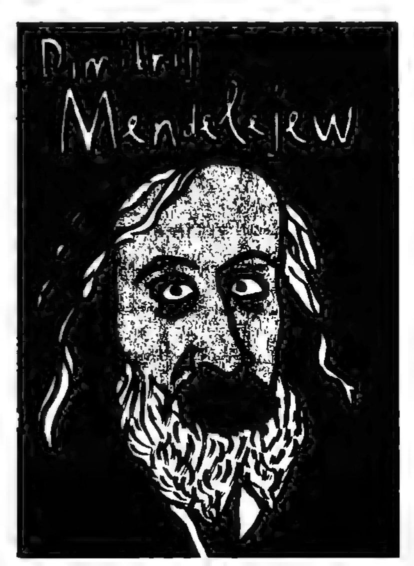
السيدة ماير: حسنًا، إذا كنت تقصد أن تقول إن الحصان ليس مثلك يضحك على نكات طاولة البيرة فلا اعتراض لدي، ولكني لا يمكنني أن أؤاخذه على هذا.

النبوءات

عادة ما يكون المثال حقيقة يستحضرها المرء ليدعم أطروحة ما، ولكن ما زال يوجد إجراء برهاني أكثر إدهاشًا وتأثيرًا، وهو إجراء يتمثل في إطلاق النبوءات. كأن يعطي المرء أمثلة ما لأطروحته الخاصة التي لا تزال غير معروفة. وهنا يهجم المرء على المجهول مثل طفل على كيس للعجائب، ويمكن للمرء أن يلفت الأنظار ويثير الاهتمام إذا ما أخرج حقيقة من الكيس ما كان قد وعد به.

وقد حولت العلوم الطبيعية هذا الإجراء إلى جزء مكمل لمنهجها. فأية نظرية لا يحكم عليها فقط باشتمالها على الحقائق المعروفة، وإنما بشكل جوهري بمدى مساهمتها في التعرف على حقائق جديدة.

وقد استخدم الكيميائي الروسي ديميتري إيفانوفيتش منديليف -Men delejew (1834-1907) صاحب "الجدول الدوري للعناصر الكيميائية" هذه الطريقة لأجل إطلاق النبوءات حول العناصر التي لم يكن قد تم اكتشافها، وتوجد لها فراغات في جدوله. كان يمكن لمنديليف أن يقول: "لا بأس، إن جدولي هذا عبارة عن تخطيط تنظيمي فقط، ومن ثم فإنه قد لا يكون كاملاً"، ثم يعلن: "ولكن ليس هذا الجدول يعتمد على قانون ما، وينبغي أن توجد في هذه الفجوات عناصر لا نعرفها بعد". كانت هذه النبوءة تشبه رهانًا بينه وبين مجموع زملاء التخصص ، وهو لا يراهن هنا فقط على جدوله الدوري للعناصر، وإنما أيضًا على سمعته كعالم. وحين اكتشفت العناصر التي تنبأ بها منديليف ارتفعت مكانة جدوله بوضوح. وهكذا حقق منديليف ميزة حاسمة علي خمسة كيميائيين آخرين نشروا في

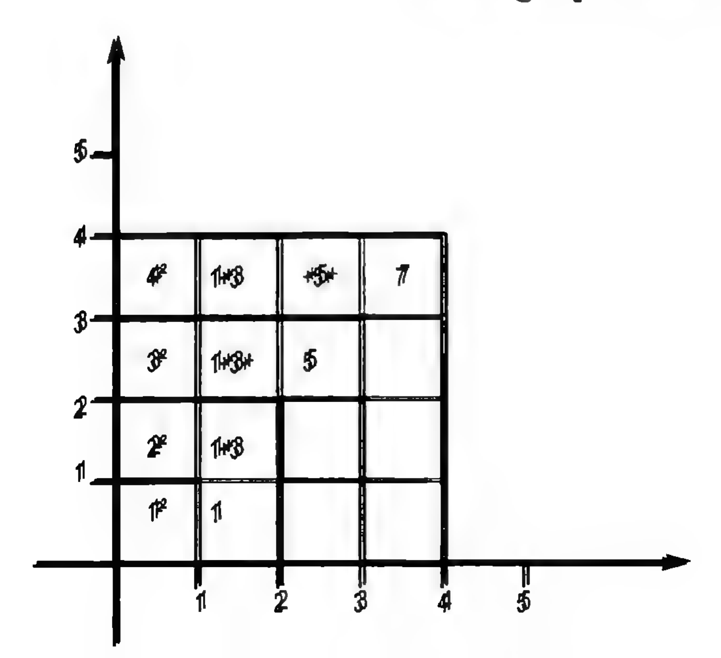


الوقت نفسه أو حتى قبل نشر مندليف لجدوله الدوري للعناصر الكيميائية، ولكنهم كانوا حذرين، ولم يجازفوا بجعل ما نشروه نبوءات عن العناصر غير المعروفة.

وللبرهان بمساعدة النبوءات تأثير نفسي قوي، ولكن الحقيقة أيضًا أن نبوءة ناجحة لا يمكنها أن تبرهن على نظرية عامة بحسم نهائي، ولكنها تزيد حقل الأمثلة اتساعًا.

أمثلة وأسباب

نشر أرسطوطاليس في كتابه "الخطابة" أن المرء ينبغي أن يستخدم الأمثلة فقط في المجادلات الشعبية وليس حين يتناقش مع الفلاسفة. ففي هذه الحالة لا بد للمرء أن يتعامل بالبراهين، وهنا لدينا ظاهرة رياضية ينبغي لها أن تجعل هذا الفرق واضحًا. والأمر يتعلق هنا بالمتواليات التي تبدو إذا ما قام المرء بجمع الأعداد الفردية بالترتيب، وعاين العدد الذي ينتج كل مرة:



$4 = 3 + 1$

$9 = 5 + 3 + 1$

$16 = 7 + 5 + 3 + 1$

$25 = 9 + 7 + 5 + 3 + 1$

فالأعـداد الفرديـة إذا مـا جمعـت معًـا تعطـي مربـع العـدد، وذلـك واحـد بعـد الآخـر هكـذا:

$2 \times 2 = 4$

$3 \times 3 = 9$

$4 \times 4 = 16$

$5 \times 5 = 25$

ولكـن هـل هـذا صحيـح دائمًـا؟ يمكـن للمـرء أن يواصـل هـذا لمئات المـرات، ومـن ثـم يمكنـه في وقـت مـا أن يقـول: الآن لا بـأس لـدي مـا يكفـي مـن الأمثلـة. ولكـن المـرء لـن يكـون سـعيدًا بهـذه الطريقـة جـدًا؛ لأنـه لـن يفهـم القضيـة عـلي وجههـا الصحيـح إلا عندمـا يطلـع عـلي "السـبب"، ويعـرف لمـاذا يحـدث هـذا الانتظـام المتـوالي. ومـن هنـا فـإن برهانًـا اسـتدلاليًا ينبغـي ألا يقـود فقـط إلي معرفـة شـكلية حـول هـذا الانتظـام، وإنمـا أن يقـود أيضًـا إلي فهـم عميـق لهـذا الأمـر. ولكـن المشـكلة أو العيـب هنـا أن مثـل هـذا البرهـان معقـد حقيقـة؛ ففـي حالـة المتواليـات العدديـة لا يوجـد مـا هـو أفضـل.

البرهـان يـرد هنـا بشـكل هنـدسي. وإبـان ذلـك يلتـزم المـرء أولاً بالجانـب الأيمـن للمعادلـة، أي بالأعـداد المربعـة فهـي تمثـل مـن خـلال المربعـات في نظـام إحـداثي توافيقـي. والآن يسـتطيع المـرء أن يجـد في الرسـم كيـف تتكـون المربعـات الكبـيرة مـن المربعـات الصغـيرة: فيـما يخـص رقـم 1 فإنـه مربـع وحيـد وذلـك لأن $1^2 = 1$. وفيـما يخـص $2^2 = 4$ فالمربـع الكبـير يتكـون هنـا مـن المربـع الأصـلي، بالإضافـة إلي ثلاثـة مربعـات أخـري كـما سـبق في معادلـة $1 + 3 = 4$. هكـذا يمكـن للمـرء أن

يستمر في هذا، وأن يري أنه كي ينتقل من n^2 إلي $(n+1)^2$ ينبغي عليه بالضبط أن يضع خطًا رأسيًا عليه خانات حرف (n) وفي ناحية اليمين خطًا أفقيًا عليه خانات حرف (n)، ثم خانة أخري في الزاوية العليا يمين. وهكذا فإن المجموع كله هو (2n+1) (أي سلسلتين من خانات حرف بالإضافة إلى خانة أخرى في الزاوية العليا يمين). وهكذا يحصل المرء على البرهان المأمول.

وفي هذا ما يكفي عن المتواليات العددية. لقد وجد هذا البرهان عليها لدى ليبنتس الذي تناوله في خطاب مطول إلي صوفيا شارلوته فون هانوفر (1705-1668)، والتي كانت ولسنوات طويلة على صلة بريدية مع ليبنتس. لا ريب في أن هذه الفكرة اللطيفة للفيلسوف قد أعجبت هذه السيدة، لاسيما وأن الإيضاحات والبراهين في البلاط كانت أكثر خشونة. لقد قامت في إحدى المرات بمرافقة دوق هولشتاين الذي كان يستعر بحبها، وحتى يبهرها ويؤثر فيها لم يخطر في باله غير أن يشرب في صحتها على مرة واحدة كوبًا ضخمًا من البيرة، ولكن الاستعراض فشل؛ فالكوب الكبير فاق قدرة الدوق الذي تقيأ ما في جوفه. ولكن لأن عشقه كان كبيرًا فإنه حاول مرة أخرى من جديد كما كتبت صوفيا شارلوته: "وقد شربه مرة أخرى حتى يبرهن لي على الولع الذي يكنه لي".

المراجع

لأجل نظرة عامة شاملة انظر مقالة "مثال" في المجلد الأول من "المعجم التاريخي للخطابة" (جوتنجن 1992). وعن الأمثولة وهي شكل خاص للمثال يدور المقال الخاص في المجلد الرابع من "دائرة معارف الخرافات" (برلين- نيويورك 1984). من يرد معلومات دقيقة حول تجربة وحدة طاقة الضوء (علبة الفوتون) فعليه بصفحة الويب الإنجليزية التالية:

cfa-www.harvard.edu/~lli/personal/images/science/bohr_)
(einstein.html

وهي تقدم ضمن ما تقدمه صورة واضحة ومعبرة لكل من أينشتاين وبور.

Kürbis



7 الضبط والتعريف

السيد لوزه: من الآن فصاعدًا سأجعل كل جهدي آه.. كله.. آه لخدمة أسرتي.

لوزه الابن: هل يعني هذا أنك أُحلت على المعاش؟

السيد لوزه: آه.. نعم، يمكن أن يقال هذا.

من يرد الضبط والتدقيق مثل ابن السيد لوزه في هذا المشهد المأخوذ من (Pappa anta portas) يستبدل صياغة بأخرى لا تدع مجالاً للتأويلات. الفعل اللاتيني Praecidere يعني تقريبًا "يقطع". مثل هذا القطع مفيد ليس فقط في المناقشات اليومية، وإنما أيضًا في المجادلات الفلسفية كما يدل علي ذلك الحوار التالي الذي جرى بين فيلسوف علم الاجتماع يورجن هابرماس والنجار المحترف المنظر العلمي كارل بوبر. بدأ هابرماس بهذا العرض المتصلد: "النظريات تبرهن على أهميتها بالنسبة لمجال ما وإمكانية استخدامها فيه إذا ما استوعبت تنوع الواقع". وقد اختصر كارل بوبر هذه الجملة إلى جوهرها هكذا: "النظريات يمكن تطبيقها على مجالات محددة إذا ما كانت قابلة للتطبيق عليها".

من الناحية التقنية يعمل الضبط إما من خلال ترجمة صياغة إلى صياغة أخرى: "ما تريد أن تقوله حقيقة هو..."، أو من خلال الفروق:

"أن لا تعني هذا، وإنما ذلك". فالضبط مفيد ليس فقط في الهجوم، وإنما يساعد أيضًا في الدفاع:

السيد ماير: أنت تتأخر مرة أخرى. يبدو أن لديك مشاكل مع المواعيد.

ماير الابن: لا ليس مع المواعيد، وإنما مع الأوامر.

الموعد يتفق عليه بين الجانبين بينما الأوامر بعكس ذلك تكون محددة فقط من قبل شخص واحد. سواء قدم لنا هذا أو ذاك؛ فإن هذا هو ما يحدث فرقًا.

عوالم الكلمات

يعد الضبط أداة مفيدة في المشاحنات اليومية، ولكنه يمكن أن يكون نتاجًا لرغبة المرء في أن يعبر عن نفسه بدقة، وأن يُقيم التفاهم على أساس متين، وتحت هذا النوع تندرج الكثير من الأبحاث الفلسفية.

وهو يؤثر على غير الفلاسفة في الغالب بطريقة غير مريحة. وغالبًا ما يطرح السؤال عما إذا كانت توجد وصفة سهلة لجلاء الأمر. فالمرء يجب عليه أن يعرض ما يعنيه بطريقة تضارع في وضوحها طريقة كتب القراءة المدرسية؛ حيث توجد صور "الأشياء" على صفحة و"الكلمات" التي تسمى بها على الصفحة المقابلة.

نادرًا ما يتحدد معنى إحدى الكلمات مباشرة من خلال عرض للأمثلة؛ ففي الغالب يكون من الضروري المقارنة مع الكلمات قريبة المعاني، وهذا يشبه أن معرفة المرء بآخر تكون أفضل إذا ما تعرف على أسرته أيضًا.

إذا ما وجد تلميذ - على سبيل المثال، في شهادته المدرسية - تقدير "ضعيف" في الكيمياء والفيزياء والرياضيات، فإن هذا التقدير ينبئه بأن اجتهاده ناقص وهذا طبيعي.. وهكذا يمكنه أن يعزي نفسه قائلاً: "الكمال لله وحده!"، ولكنه لم يفطن بهذا إلى معنى هذا التقدير؛ إذ

إن معناه يبدو فقط من خلال موقعه في سياق سلسلة الدرجات الأخرى.

يشبه هذا ما يحدث مع الكلمات التي تظهر في المناقشات الفلسفية. فمعناها لا يفهم بمفرده، وإنما فقط من خلال المقارنة بالكلمات الأخرى متشابهة المعنى. ويتمثل الحد الأدنى إبان ذلك في المقابلة بين صياغتين تتشابهان ولكن لا تتطابقان، ويمكن تعميم هذا الإجراء كما يلي: يمكن للمرء أن يضع الكلمات في دائرة شبيهاتها حتى يحدد معناها.

هكذا يعمل على كل حال الفلاسفة وعلماء اللغة الذين يعنون بالفروق الدقيقة في مجال اللغة؛ فهم يهتمون "بالمترادفات" Syn-onymen أي الكلمات ذات المعاني المرادفة في لغة ما. وكان أول من اهتم ببحث المترادفات متصوف يدعى بروديكوس فون كيوس (القرن الخامس قبل الميلاد) الذي ربما كان أستاذًا لسقراط. ومنذ هذا الحين كان الاهتمام بالفروق الدقيقة يتوهج بين حين وآخر، ولكن فقط في القرن الثامن عشر، في عصر التنوير، استيقظ لون من الإعجاب الواسع بالمترادفات. وقد وضع البداية في فرنسا الأب جيرار Girard (1677-1748) الذي أصبح عمله "دقة اللغة الفرنسية" نموذجًا يُحتذى للكثير من معاجم المتشابهات المتأخرة. وكما يرى جيرار فإن الإنسان المثقف ينتبه بدقة لظلال الكلمات، ويعرف كيف يعبر عن أفكاره ومشاعره بدقة كبيرة، وهو يتميز عبر هذا مباشرة عن غير المثقفين. فمحك الاختبار يتمثل هنا في المترادفات، أي تلك الكلمات التي يظن غير المثقف أنها تعني بالضبط المعنى نفسه، بينما يدقق المثقف في الاختلافات ويراعيها في تفكيره وحديثه.

وقد ترك مؤلف جيرار أثرًا كبيرًا على معاصريه، واحتفل به بإعجاب من قبل التنويريين، وانتبهت إليه الطبقة الأرستقراطية كذلك، وقد دفع اهتمام الباريسيين بأبحاث الكلمة أحد معاصري جيرار للحديث عن حمى الولع بالمترادفات. وقد انتشرت هذه الموجة بسرعة، وفي ألمانيا اقتدى صامويل يوهان إرنست شتوش Stosch (1714-1796)

بنموذج جيرار، وأصدر عام 1770 عمله "محاولة في التحديد الصحيح لبعض الكلمات المرادفة في اللغة الألمانية". وقد أثبت شتوش من خلال مشروعه أنه لا توجد مطلقًا كلمات ذات معانٍ متساوية، وتحدث في المجلدات التالية للعمل فقط عن الكلمات "ذات المعاني المتشابهة". وقد استطاع شتوش النبيه أن يثبت أن هناك فرقًا بين كلمتين تبدوان وكأنهما متشابهتان تمامًا مثل كلمة (umsonst) التي تعني "دون مقابل" وكلمة (vergeblich) التي تعنى "سُدى أو بلا طائل": "فالعالم يستخدم (umsonst) إذا لم يُثَب على عمله ولم يحصل على اعتراف... ويستخدم (vergeblich) إذا لم يصل إلى هدفه الذي حدده ولم يحدث أثرًا ما". ولم يكن عمل شتوش دون جدوى؛ حيث أصبح مؤسسًا لعلم دراسة المترادفات الألماني. لقد اكتشف بكتابه المملوء بذكاء الحياة والاستنتاجات المفاجئة دقائق لطيفة في العمل الرائع للثروة اللغوية. فهل ترن الكلمات "ناعمة وسهلة ومنبسطة ومستوية" وليست متطابقة تمامًا؟ ألا ترمز وتشير وتصف واقع هندسي واضح؟ أليس من الأفضل للمرء أن يستبعد تنوع هذه الكلمات بوصفها تكسرات غير مفيدة في ثوب اللغة؟ وهذا كما يؤكد شتوش غير ممكن؛ لأن كلاً منها متمايز ومختلف عن بعضه البعض؛ فكلمة (Glatt) أي "ناعم" هي المقابل لكلمة (rauh) أي "خشن"، وكلمة (Eben) أي "سهل" هي المقابل لكلمة (höckig) أي "وعر"، وكلمة (Platt) أي "منبسط" هي المقابل لكلمة (erhoben) أي "مرتفع"، وكلمة (flach) أي مستوي هي المقابل لكلمة (hoch) أي "عالي" أو لكلمة (tief) أي "عميق".

كانت اكتشافات شتوش في حقل معاني الكلمات، حيث الفروق الدقيقة هي كل شيء، ثمرة لنوع من علم مجالس السمر؛ حيث كان يعرض تأملاته في الجلسة العائلية إبان طعام العشاء، يتناقش حولها، ويسجل ملاحظاته التي يعرضها على الأصدقاء لينقحها في النهاية ويعيد صياغتها. فالبحث عن الفرق المناسب كان لعبة مسلية تشبه تمامًا حل وتخمين الألغاز. نعم كان المنهج الصارم مفتقدًا، ولكن يبدو أن الهواية أو عدم توفر الخبرة كانت بمثابة الشرط لهذا النجاح. وبالإضافة إلى الكتاب المقدس بترجمة لوثر لم يكد الواعظ شتوش

يستخدم مصادر أخرى لدى صياغة عمله هذا، ولكنه نجح إبان ذلك في الوقوع على بعض الفروق الجميلة جدًا، ومن بين ذلك تفريقه بين كلمة (zufrieden) أي "سعيد" وكلمة (vergnügt) أي "مسرور": "المرء يكون سعيدًا (zufrieden) إذا حقق ما تمناه، ويكون مسرورًا (vergnügt) إذا لم يتمن أكثر من هذا".

التعريف

التعريف ذو نسب قريب جدًا للضبط والتحديد. وهنا يتعلق الأمر أيضًا بتحديد معنى إحدى الكلمات. ولكن التعريف له شكل صارم، وذلك لأن التعريفات ليست ضبطًا وتحديدًا فقط، وإنما هي في الوقت نفسه اتفاقات وتعاهدات، حيث سيصبح من المتفق عليه أن معنى محددًا سيستخدم في سياق محدد من الآن فصاعدًا. والتعريفات لا تسري عادة دون تبسيطات؛ حيث تفقد في العادة الفروق الدقيقة، وهو الأمر الذي يعوض من خلال الوضوح المكتسب. ويعد التعريف منذ القدم اهتمامًا أساسيًا للفلاسفة، وهذا ما كان يجده معاصروهم غريبًا كما تدل على ذلك شذرة باقية من أحد الأعمال الكوميدية من العصور العتيقة:

أ: وكيف حال أفلاطون وسبوزيبوس وميناديموس؟ ماذا يعملون الآن؟

ب: آه، لقد سألت خبيرًا، رأيت حشد التلاميذ في ملاعب الأكاديمية، واستمعت لأحاديثهم غير المحتملة: تعريفات للطبيعة، وفحص لثمرة القرع من أي صنف هي. في البداية وقفوا صامتين ثم انحنوا وأمعنوا النظر، وفجأة قال أحدهم: هذا خضار دائري الشكل! وصرخ آخر: نبات عشبي! وقال ثالث: بل شجرة! وهنا ضحك طبيب صقلي كان يقف هناك وقال: "إنهم جميعًا مجانين".

أ: لا بد من أنهم قد غضبوا بشدة؛ لأن هذا لا يليق في قاعة المحاضرات.

ب: أخ، أين؟ إنهم لا يهمهم شيء كهذا. أما أفلاطون الذي كان يقف هناك فإنه قال بكل لطف ودون غضب: إذن مرة أخرى لنبدأ التعريف من البداية مرة أخرى... ما القرع؟ ومن ثم عادوا للإدلاء بآرائهم مرة أخرى...

ولكن هل اهتم أفلاطون (348-428 ق.م.) وتلاميذه فعلاً بالتدريب على تعريف القرع. لقد كان الاهتمام في الغالب بأشياء جادة سامية، وكانت "الفضيلة" شيئًا مفضلاً في المناقشات، ولكن ليس بمعنى إلقاء خطب عن الأخلاق وجدواها، ولكن أكثر من هذا كان الاهتمام بالتساؤل عن معنى الفضيلة، ماذا تعني بالتحديد. وعن إحدى الفضائل، بالتحديد الفضائل، تدور محاورة مبكرة لأفلاطون بعنوان "لاخس" Laches (وهو يعني الضحك بالألمانية ولكن لا علاقة للمحاورة به مطلقًا). وفي هذه المحاورة يدور الحديث بين سقراط واثنين من قادة جيش أثينا. كان الأول يحمل اسمًا غريبًا بعض الشيء على أسماعنا هو "لاخس"، بينما يدعى القائد الثاني نيكياس. وقد ثبتت حقيقة الاسمين تاريخيًا، وكان سبب الحديث والمحفز عليه أرستقراطي عجوز يدعى لوزيماخوس.

ما هذا الشيء حقيقة الذي يسمى شجاعة؟ حول هذا السؤال تدور المحاورة، وهو سؤال قد يبدو غريبًا بالنسبة لنا. فالشجاعة تعد شيئًا متقادمًا، صحيح أنها كانت قبل عدة سنوات لا تزال معروفة وشائعة تحت مسمى "القدرة على تحمل الآلام" أما اليوم فيمكن للمرء أن يرى المرونة بوصفها الفضيلة الأساسية للعصر. أما في مجتمع عسكري جدًا مثل أثينا القديمة، والذي كانت تثار فيه الحرب كل عدة سنوات، فكانت توجد قيم أخرى. حتى تربية الأطفال كانت في الحقيقة عبارة عن تربية عسكرية؛ فمدارس الجمنازيوم اليونانية المقصورة على الذكور كانت تقدم دروسًا في الفلسفة والموسيقى والقواعد اللغوية أيضًا، ولكن جوهر المنهج التعليمي كان يتركز حول التربية البدنية.

كان القائدان اللذان تحاورا مع سقراط على قدر عظيم من الاختلاف. كان لاخس أقرب لأن يكون قاطع طريق قديم، بينما يبدو نيكياس مثقفًا لبقًا. وقد خاطب سقراط من يشبه قاطع الطريق أولاً، وطرح عليه سؤال "ماذا تعني الشجاعة حقيقة؟"، وقد أجاب لاخس بمثال: "إذا ما اعتزم المرء أن ينتظم في الصف ضد الأعداء ليدافع ولا يهرب، فإنه بالتأكيد رجل شجاع".

وقد رأى سقراط أن التعريف ينقصه التعميم، وذلك لأنه توجد حالات شجاعة خارج الجيش أيضًا؛ حيث يمكن أن يكون أحدهم شجاعًا في تحمله لمرض ما أو لسفرة بحرية. وبناء على ذلك حاول لاخس مرة أخرى أن يقدم تعريفًا آخر، وفي هذه المرة أوضح: "الشجاعة هي بطريقة ما متانة الروح المتحصلة". ولكن سقراط لم يكن سعيدًا بهذا أيضًا. وقد وجد مثالاً معارضًا؛ فمتانة الروح يمكن أن تعني أيضًا عنادًا غير عقلاني! وبعد ذلك أعاد لاخس تنقيح رأيه مرة أخرى، وقال إن الشجاعة هي متانة الروح "العقلانية". ولكن سقراط لم يسعد بهذا أيضًا - ووجد لهذه الحالة أيضًا أمثلة معارضة: على سبيل المثال أن لا يوافق طبيب ما على بعض رغبات طفل عنده التهاب رئوي، رغم أنه يستجيب في العادة لمثل هذه الرغبات؛ فالطبيب يظهر بهذا نوعًا من متانة وقوة الروح، ولكنه لا يسمى مع ذلك شجاعًا.

وعقب ذلك سلّم لاخس بالأمر، ولكن ليس دون أن يفرغ غضبه على هذه المبالغة في التدقيق: "أنا مصمم يا عزيزي سقراط على ألا أتنازل أو أتوقف قبل الحين، ولكني غير معتاد على مثل هذه الأبحاث. وقد تملكني بسبب كلماتك نوع من الولع بالتفوق، ولذلك يغضبني حقًا أنني لا أستطيع أن أعبر إلا قليلاً عما أفكر فيه. أنا أعتقد أنني أعرف ما تعنيه الشجاعة، ولكن هذا يتفلت مني بشكل غريب، حتى إنني لا أستطيع أن أحدد وأقول ما هي بالضبط". وقد رأى سقراط أن محاولة تحديد معنى الشجاعة يحتاج في ذاته لشجاعة ما وشجع محاوره على أن يبقى في الحوار. وعقب ذلك أضاف نيكياس تعريفًا ذكيًا أوضح فيه أن الشجاعة هي المعرفة بما يخافه المرء وما

لا يخافه سواء أكان ذلك في الحرب أم في خلاف ذلك. وما إن تفوه بهذا الرأي حتى أوضح لاخس أن هذا التعريف مضحك، وذلك لأن المعرفة والشجاعة تقعان على مستويات مختلفة جدًا. والآن يستخدم التطبيق الذي استخدم قبل قليل من قبل سقراط، ويضرب مثالاً مضادًا. فأحد الأطباء أو أحد الفلاحين يملكان كما يقول وجهة نظر واضحة جدًا كل في مجاله حول ما يخاف منه وما لا يخاف منه - المرض وندف الثلج. ولكن هذا لا يجعل أيًا منهما شجاعًا.

ثم تبودلت الكرة هنا وهناك لعدة مرات، وأخذ يتبين أن نيكياس أيضًا لا يمكنه الدفاع حتى النهاية عن نظريته. وبعد قليل انتهت المحاورة دون الوصول إلى تعريف نهائي واضح. وكانت النتيجة بكلمات سقراط هي: "إجابة نيكياس تحتوى فقط على ثلث الشجاعة، ولكننا نسأل عن الشجاعة ككل، ما هي".

فالمرء لا يمسك في النهاية شيئًا بيديه، وهذا ما يحدث كثيراً في المحاورات الأفلاطونية. فالكثير من الطرق تنقطع هناك فجأة وتنتهي إلى لا شيء أو إلى التضارب، وهذا ما لاحظه أيضًا معاصروه الذين لم يروا في تدريبات التعريف أكثر من تمضية الوقت دون هدف، ولأجل ذلك فإن الفلاسفة أشخاص يهتمون - بشكل جدي رهيب - بالقرع.

فهم معنى التعريف

هل يجب أن تكون مناقشات التعريف صعبة ومعقدة دائمًا؟ أما كون المرء قد أنهى التعريف أم لا فإن الأمر يتعلق بالهدف الذي يتبعه. إذا ما أراد المرء أن يجد تعريفًا يحيط فقط بكل الحالات الخاصة أو المتعلقة بموضوع؛ فإن هذا يصبح مثل مرض مزمن، وذلك لأن كلمات أي لغة حية تكون في حالة حركة وتغير دائمين، حتى إن تعريفًا ما يحوي المعنى في جملة وحيدة لا يقدم في أحسن الأحوال إلا اختصارًا للقطة سريعة.

الكثير من التعريفات لا تدعي إمكانية التعبير بدقة عن المعنى المتشعب لأحد الأشياء. أكثر من هذا تكون الصدارة في كثير من

الأحيان، لوجهات النظر العملية. فالمرء يريد - لأجل هدف محدد - أن يتفق على معنى محدد، حتى عندما يقر المرء منذ البداية أنه لا يمكنه بهذا التعريف تغطية معنى إحدى الكلمات الحية في اللغة اليومية بالكامل.

أما كيف يتقدم المرء إبان ذلك فهو ما يمكن للمرء أن يفهمه ويراه من قانون الحصول على الأنواط الحربية؛ فلمثل هذه الأنواط لا يحتاج المرء إلى تعريف جامع للشجاعة؛ فمن الواضح منذ البداية أن الأمر لا يتعلق في "كل" الأحوال بالشجاعة. أكثر من هذا تقرر المعايير التي تعد كافية لإثبات الشجاعة العظيمة في الحرب. لو طبقت هذه المعايير بيسر وسهولة، وكفل بالتالي التوزيع المنظم للنياشين على الناس الشجاعة لحقق التعريف غرضه حتى وإن كان يعد من الناحية الفلسفية شديد السطحية.

وحتى لا يصبح الأمر عسكريًا جدًا لننظر إلى نوط نسائي كمثال، وهو النوط النمساوي ذو الاسم الجميل "جواري الفضيلة". وقد أنشئ هذا النوط عام 1662 بواسطة إلينورا (1630-1686) زوجة القيصر فرديناند الثالث. ورغم أن معنى الاسم غامض ولا يمكن تخمينه، فإن النوط فكر فيه كنوط من أنواط الشجاعة؛ خاصة الشجاعة في المواقف الخطرة - ألا وهي مواقف الإغراءات الشهوانية. ومثل هذه الأشياء كانت شائعة ومعتادة في البلاط، ومن أجل هذا وضعت منشئة النوط كهدف لها "المحافظة على الفضيلة الصرفة وسط صخب الحياة الدنيوية الواسعة، وأن تجعل قوتها المسيطرة والمنيعة الرذيلة واضحة".

بالطبع نتج عن ذلك مباشرة مشكلة؛ فمن الذي يمكنه أن يُنعم عليه بمثل هذا الوسام؟ من يكون هذا الشخص الطاهر محمود الأخلاق؟ ولكن كانت زوجة القيصر التي أسست الوسام تعرف حلاً للمشكلة. لقد ابتكرت الملكة تعريفًا ربما يبدو - في ضوء الشروط النظرية - قليل النجاح، ولكن يمكن تنفيذه - من الناحية العملية - بطريقة جيدة. فهناك على سبيل المثال علامات مميزة يستطيع المرء من خلالها التعرف على الشخصية الصالحة كان منها حسب الأهمية.

وتبعًا لرأيها: أن المرأة التي ينبغي أن تنل الوسام لا بد من أن تكون "كريمة المولد ومن بيت عريق النسب". فالأصل النبيل يبدو كما لو كان ضرورة أولية للفضيلة، بل وهو بالإضافة لذلك مما يسهل إثباته. أما المعيار الثاني فكان غامضًا: يجب أن يكون عفاف المرأة وطهرها مشهورًا "على الأقل من خلال الإشاعة". لم يكن سقراط ليسعد بمثل هذا التحديد، ولكنه كان كافيًا لأجل الاختيار العملي لمن ستنال النوط. فيما بين عام 1662 وعام 1675 نالت الوسام 72 سيدة تقريبًا.

ما بين استكشاف التعريف الدقيق لسقراط وتحديد إلينورا زوجة القيصر النمساوي انفتح حقل واسع. يمكن قياس الحاجة إلى تعريف ما بقدرته على تقديم إجابة محددة عن أحد الأسئلة. لنأخذ على سبيل المثال لغز السنجاب الذي حكى من قبل عالم النفس الأمريكي وليم جيمس James (1842-1910). وهو يدور حول أن أحد المشاة قد لاحظ سنجابًا يصعد على جذع شجرة؛ فقرر الرجل أن يراقب هذا السنجاب عن قرب فتبعه، ولكن الحيوان السريع أخذ يرجع للخلف كي يبقي جذع الشجرة بينهما ويظل الرجل المخدوع يلف حول الجذع دون أن يرى من السنجاب إلا عينين صغيرتين وأذنين منتصبتين وباديتين من خلف الجذع. وبناء على هذا توجد المشكلة التالية: هل يتحرك الرجل حول الحيوان أو لا؟

كيف يجاب على هذا السؤال؟ الغالبية سيحسمون بسرعة أحد الخيارات؛ فإما أن يتضح كما يبدو أن المتريض يجرى حول الحيوان، أو أن يقول المرء لا، بل إنه يجرى على الأكثر حول الشجرة. أما مفتاح الإجابة فيتلخص في التعريف، وذلك أن فعل الدوران حول شيء يمكن أن يستخدم بطريقتين: إذا ما تصور المرء أن أحدًا سيأخذ خطوة بعد أخرى موقفًا محددًا من شيء معين على سبيل المثال جنوبًا ثم غربًا ثم شمالاً ثم شرقًا، ومن ثم فإن الرجل قد دار حول الحيوان. فإذا ما تصور المرء أن أحدًا يجري في دائرة ليرى شيئًا ما أولاً من الأمام ثم من الجنوب ثم من الخلف وأخيرًا من الجانب الآخر؛ فإن الرجل لم

يجر حول السنجاب؛ لأنه كان يحافظ أثناء هروبه على البعد نفسه؛ فمن يريد أن يحل هذا الخلاف لا بد له أولاً أن يتخذ قرارًا فى هذا.

بهذه الطريقة يمكن للمرء أن يحل مشكلة السنجاب، هذا إذا لم يوجد من يأبون إلا أن يعرفوا إذا ما كان المرء قد دار "حقيقة" حول السنجاب أم لا؟ وعلى كل حال - سواء أكان هذا قد حدث حقيقة أم لا، فإن الأمر يتعلق جزئيًا بمعنى بعض الكلمات المحددة التي يستخدمها المرء، والتي يستطيع أن يثبتها من خلال تعريف ما.

عاطل؟

ليست التعريفات مفيدة في حل بعض الألغاز فقط، وإنما أيضًا ذات معنى خطير بالنسبة لعدد كبير من المناقشات العامة، وهذا يتوقف قبل كل شيء على أن التعريفات تمثل شروطًا للإحصائيات، وأن الإحصائيات تمثل بدورها أساسًا لعدد غير محدد من المجادلات. تبعًا للتعريف يمكن للمرء أن ينجز الإحصائيات المتباينة. فمصطلح البطالة يقدم على سبيل المثال مجالاً لسلسلة طويلة من التعريفات التي يمكن التدليل عليها، وتبعًا لكل تعريف نحصل كل مرة على رقم مختلف عما سبقه. بالنسبة لمكتب العمل الاتحادي في نورنبرج فإن المتعطل هو على سبيل المثال:

- من يريد أن يعمل أكثر من 18 ساعة في الأسبوع،
- من لا يبحث عن عمل لمدة قصيرة فقط،
- أكبر من 15 سنة وأصغر من 65 سنة،
- ومن يكون مستعدًا للدخول إلى سوق العمل بسرعة.

فمن كان في السبعين، على المعاش، ويبحث عن عمل دون جدوى لا يمكن أن يحسب هنا كعاطل. فالتعريف الرسمي يعارض فعلاً المفهوم البدهي للبطالة. فالطبيعي أن يتصور المرء تحت كلمة عاطل، شخصًا يريد أن يعمل لأجل المال، يستوي في ذلك لأي وقت، ولكنه لا يجد عملاً. هذا التعريف "البدهي" أوسع من التعريف الرسمي، ولكنه لا يشمل أيضًا الأعمال غير المسجلة، على

سـبيل المثـال ربـة بيـت تريـد أن تعمـل لمـدة عـشر سـاعات في الأسـبوع في "بوتيـك للموضـة". ألا يرتفـع عـدد المتعطلين بشـدة بسـبب هـذا التعريـف؟

ثـم يصبـح الأمـر أكـثر تعقيـدًا، وذلـك لأن الإحصـاءات الرسـمية لا تشـمل عـادة أعـداد كل المتعطلـين، وإنمـا "نسـبتهم المئويـة" فقـط. وهـذه النسـبة هـي ناتـج قسـمة كل مـن المتعطلـين والعاملـين. وبهـذا تتضاعـف المشـكلة، وإلا فكيـف نعـرِّف الشـخص الـذي لديـه عمـل؟ في ألمانيـا مـا زال يوجـد تعريـف لا يعتـبر أصحاب الأعـمال الخاصـة والموظفـين والعسـاكر ضمـن "العاملـين"، وبذلـك فإنهـم لا يحسـبون إبـان تحـري نسـبة المتعطلـين.

وهكـذا يوجـد إجـراء سـهل للهبـوط بنسـبة المتعطلـين يتمثـل في أن يرفـع المـرء عـدد العاملـين مـن خـلال تعريـف ملائـم، وبالتـالي سـتهبط نسـبة البطالـة. وهـو إجـراء طبـق بنجـاح في أماكـن أخـرى؛ ففـي بريطانيـا العظمـى هبطـت النسـبة المئويـة في عـام 1986 مـن (13,6) إلى (12,2)، وذلـك دون أن يحصـل أي مـن المتعطلـين عـلى أيـة مسـاعدة للحصـول عـلى وظيفـة مـا.

الفشل في التعريف

يعـد التعريـف فنًـا صعبًـا، ومـن السـهل إبـان ممارسـته ارتـكاب العديد مـن الأخطـاء. وهنـا إليكـم نظـرة إجماليـة عـلى بعـض هـذه العثرات:

' المثل المعارض'

ينبغـي تحديـد كل تعريـف، ومـن ثـم فمـن المنطقـي اختبـار مـا إذا كان التعريـف قـد حقـق مـا وعـد بـه. وبنـاء عـلى ذلـك يمكـن للمـرء أن يقـوم بعمـل تجربـة يقـوم فيهـا بالبحـث عـن شيء مـا يجـب أن ينـدرج تحـت المصطلـح، ولكـن البحـث يظهـر أنـه "غـير" موجـود؛ مـما يعنـى أن التعريف ضيـق كـما كان الحـال مـع التعريـف الأول للاخـس الـذي عنـي أن الشـجاعة هـي أن يلـزم المـرء الصـف؛ حيـث قـصر الشـجاعة عـلى حالـة محـددة مـن المجـال العسـكري. التعريفـات التـي تعتمـد عـلى أمثلـة "دائمًـا" مـا تكـون ضيقـة جـدًا.

أمـا اختبـار مـا إذا كان أحـد التعريفـات قـد جـاء واسـعًا فأمـر لا يسـتغنى عنـه، وكذلـك يمكـن أن تجـرى تجربـة يبحـث فيهـا المـرء عـن نمـاذج وضعـت تحـت التعريـف رغـم أنهـا لا تنتمـي في الحقيقـة إليـه. ولهـذا اقـترح نيكيـاس أن الشـجاعة هـي المعرفـة المتحصلـة حول مـا ينبغي الخـوف منـه ومـا لا ينبغـي. وقـد قـدم زميلـه لاخـس كمثـال معـارض حالـة الطبيـب والفـلاح اللذيـن يعرفـان، كل في مجالـه، مـا ينبغـي الخـوف منـه ومـا لا ينبغـي، وهـي معرفـة لا يوصـف المـرء لأجلهـا بالشـجاعة.

يوجـد أيضًـا مثـال معـارض ظريـف ولبـق صاغـه أرسـطوطاليس في "الأخـلاق الكـبرى" Magna Moralia، وهـي محـاضرة أخلاقية للمسـتمعين الشـباب؛ فالجنـود، كـما قـال، لديهـم في الغالـب معرفـة محـددة تجعلهـم في موقـع مـا يعرفـون أنـه مـن غـير الممكـن أن يحـدث لهـم فيـه مكـروه، ومـن ثـم فهـم يتحركـون في مثـل هـذه المواقـع بهـدوء، رغـم أن مـن لا خـبرة لـه قـد يصـاب بالهلـع. فهـل يمكـن وصفهـم بالشـجاعة لأنهـم يعرفـون حقيقـة مـاذا يخافـون ومـا لا يخافونـه؟ بالتأكيـد لا؛ فهـم آمنـون لأنهـم يعتمـدون في ذلـك عـلى خـبرة سـابقة.

٢. التعريف بالسلب فقط!

التعريفـات التـي تعـرف الـشيء بمـا يفتقـده تخطـئ هدفهـا. فمـن يرى عـلى سـبيل المثـال "أن حسـن التهذيـب هـو كل مـا تفتقـده" لا يـشرح شـيئًا عـلى الإطـلاق. مثـل هـذا التعريـف محبـب في المعـارك السياسـية الكلاميـة؛ لأن تسـمية مـا "لا" يريـده المـرء أسـهل في الغالـب مـن تسـمية مـا يريـده فعـلاً، لأن هـذه التسـمية تعنـي المخاطـرة.

٣. التعريف الدائري!

التعريـف الدائـري هـو تعريـف يظهـر فيـه مـا ينبغـي تعريفـه في كلـمات التعريـف مـرة أخـرى سـواء كان ذلـك خفيـة أو علنًـا. عـلى سـبيل المثـال التعريـف التـالي لتقديـر "جيـد جـدًا" مـن قبـل مؤتمـر وزراء الثقافـة الألمـاني: "ينبغـي أن تمنـح درجـة (جيـد جـدًا) إذا مـا كان جهـد

الطالب مناسبًا". وهذا ما يمكن قوله بطريقة أخرى هكذا: "درجة (جيد جدًا) تمنح إذا كان الجهد جيدًا جدًا". فهذا ما كان يمكن للمرء أن يصل إليه دون مؤتمر لوزراء الثقافة، بل يمكن للمرء أن يعرف هذه الدرجة بيسر ودون دوران هكذا: درجة (جيد جدًا) تكون هي التقدير إذا حقق الطالب "كل" ما ينتظره المدرس.

أي أن الحال كما تقول النكتة السخيفة المشهورة "يكون اليمين حين يكون اتجاه الإبهام لليسار". ولكن هذا لا يعني أن المشكلة قد حلت بسهولة. فعند الرؤية المقاربة يتأكد للمرء أن اليمين والشمال لا يكاد من الممكن تعريفهما دون دوران. وهنا لا بد للمرء من أن يجعل أحد "يُريه" أين اليمين وأين الشمال لكي يفهم معنى هذه الكلمات.

٤. مجازي!

نقطة أخرى لنقد التعريفات تتعلق بالوضوح. فالوضوح يتحول لمشكلة إذا ما اعتمد التعريف على الصور. على سبيل المثال كأن تعرف الشجاعة بأنها "لؤلؤة الأخلاق"؛ فهذا ليس تعريفًا، وإنما محاولة لتفادي التعريف من خلال وصف مجازي مبالغ فيه.

٥. اختبار التناسق

لكل تعريف شكل: "الصيغة (x) تعني فيما يلي (y)". فالمؤلف الذي وضع تعريف ما لا بد له من أن يلتزم به. ورغم ذلك لا بد من المراقبة الدائمة لمدى جدية هذا الالتزام. ولذا فمن المفيد في أي نص أن تستبدل الصيغة (x) في كل الجمل التي تظهر فيها وبطريقة آلية بالصيغة (y) وملاحظة ما سينتج.

اختبار هذا الاستبدال مفيد لاختبار ونقد النظريات، وذلك لأنه ليس من النادر هنا أن أحد التعريفات يطلق بصخب ثم ينسى بعد ذلك مباشرة.

كيف تصك التعريفات؟

لقد أصبحت أسطورة قصة التلميذ الذي كان يجب عليه أن يكتب موضوعًا في امتحان الثانوية (الأبيتور) حول "ما هي الشجاعة؟" ولكنه يقف بعد خمس دقائق ويعطي المدرس ورقة بيضاء كتب في أخرها: "هذه شجاعة". وهنا توجد روايتين حول الدرجة التي نالها الموضوع: تبعًا للأولى حصل التلميذ على أعلى درجة (15 درجة)، وتبعًا للثانية حصل على (14 درجة) فقط؛ وذلك لأن صحة الجملة [في الألمانية] يجب أن تكون: "هذي شجاعة".

رغم ذلك لا يمكن لهذه الأعمال الرمزية أن تحل دائمًا محل العمل المزعج والصعب في الصياغة. هذه الأعمال الرمزية مرتبطة بالمواقف بينما التعريف غير مرتبط؛ حيث يمكن للمرء أن يستخدمه دون الارتباط بموقف ما. والعمل يصبح سهلاً إذا ما بدأ المرء بأي نوع من الأعمال التمهيدية. وتتمثل نقطة الانطلاق الجيدة في دوائر المعارف التى تحوي تعريفات لا تحصى.

من يريد أن يعرّف لا بد أن يبحث أولاً عن أمثلة، غير مرهون في ذلك بالهدف الذي يسعى إليه. "التجميع يمثل بداية التعريف". وهنا تكون الحالات الخاصة ذات دلالة كبيرة. ولا يفعل المتحاورون في محاورات أفلاطون شيئًا غير هذا. من خلال الاهتمام بتجميع الحالات، والمقارنة، والتنظيم، وربما من خلال إعادة الترتيب يتضح التعريف ببطء أو تنتج على الأقل مقاربة تعريفية يمكن تحسينها فيما بعد. فالمرء يكوّن صفوفًا وسلاسل ومن خلال ذلك يبرز ببطء التعريف الذي يربط هذه الصفوف والسلاسل.

بهذه الطريقة نتجت التقسيمات والتبويبات العلمية المهمة، ليس فقط في مجالي علم النبات وعلم الحيوان، وإنما في الطب والكيمياء كذلك. وقد روي عن ديميتري إيفانوفيتش مندليف الذي تعرضنا له من قبل بوصفه مكتشف "الجدول الدوري للعناصر"، والذي يظهر في الكثير من كتب الكيمياء كدرويش، أنه كان خلال سفراته الطويلة بالقطارات عبر روسيا يلعب إحدى ألعاب الباشينس (لعبة كوتشينة

لفرد) ولكن بكروت اللعب التي تحمل خصائص العناصر الكيميائية، والتي كان يقوم إبان ذلك وبشكل متكرر بمحاولة ترتيبها، وهكذا استنتج في النهاية ليس فقط مجموعات العناصر، وإنما الجدول الدوري للعناصر كلها، وهو الجدول الذي يمثل قلب الكيمياء.

الغموض

تفيد التعريفات في تحويل الغموض واللبس إلي وضوح وجلاء، ولكن هذا لن يتم دون أن يتبقى شيء. وهذا ليس مستحبًا أيضًا، وذلك لأن الكلمات المبهمة لها ولا ريب غرض أو هدف ما؛ فهي ليست فقط شرطًا لإمكانية اللياقة وحسن التصرف، وإنما أيضًا مادة خام مهمة للتندر والتسلية: جاءت امرأة حامل إلى الخباز وقالت: "نفسي في خبز!"

قال الخباز: "العجائب لا تنتهى!".

ألعاب لغوية

يتعلق الأمر في لعبة المترادفات بالتفريق بين المعاني المتقاربة بشدة. أما لعبة غلاية الشاي فقد بنيت بعكس هذا على الكلمات التي لها معنيان (ما يسمى بالمشترك اللفظي Homonyme).

لعبة المترادفات

مما يؤسف له أن معاجم المترادفات المعاصرة تتخلى في الغالب عن محاولة شرح ظلال المعنى، وتكتفي بأن تستدعي إمكانيات الصياغة من الذاكرة. وهنا بعض الأمثلة من معجم شتوش صعب الأسلوب، وهي أمثلة تغري بتتبع الفروق الدقيقة وبحثها:

1. الأمل Hoffnung. الاطمئنان Vertrauen. الثقة والإيمان Zuver-sicht.

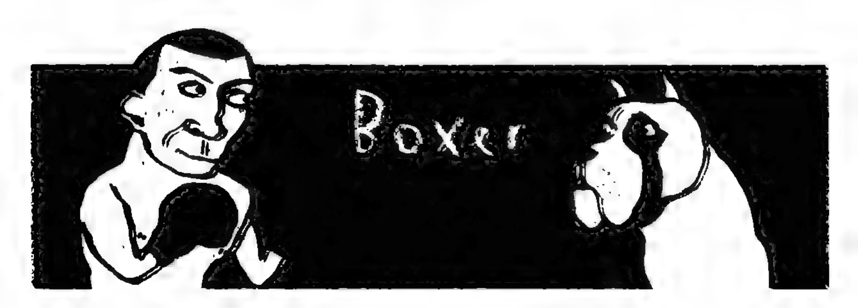
2. المنتبه Aufmerksamkeit. الحذر Achtsamkeit. الحريص Be-dachtsamkeit.

3. التفكير Denken. التأمل Sinnen.

"**الحل**" (استنادًا لشتوش)[1]: (1) الأمل Hoffnung يعني انتظار شيء ما إيجابي. أما الاطمئنان Vertrauen فينتج إذا ما كان لدى المرء بعض الأسباب الوجيهة لانتظار شيء ما إيجابي. أما الثقة الإيمانية Zu-versicht فتنتج لوجود أسباب أكيدة مقنعة. (2) الإنسان المنتبه Auf-merksamkeit يريد أن يحفظ ما قيل له، أما الحذر Achtsamkeit فيريد أن يستخدمه. أما الحريص Bedachtsamkeit فهو الذي يتريث قبل أن يفعل. (3) التفكير Denken هو وعي وتنظيم أكثر من أي شيء آخر بينما التأمل Sinnen أقل استهدافًا لأمر ما من التفكير.

عقلية المتقدمين

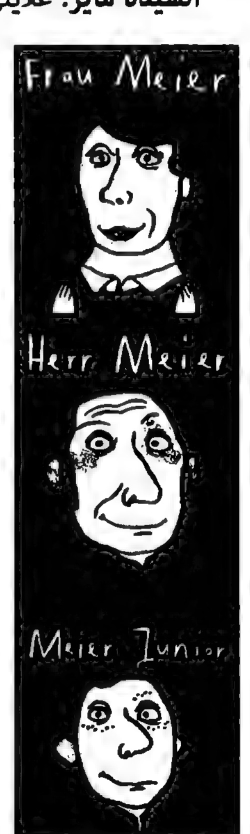
في "الترادف" تمتلك كلمتان (فيما يبدو) معنىً واحدًا، وفي المشترك اللفظي لدينا العكس، أي كلمة واحدة ذات معنيين: فإذا ما قلنا "رباعي" فالمعنى هنا لا يقتصر فقط على لعبة الورق الرباعية، وكذلك الأمر مع كلمة "التاج" فهي لا تعني ما يوضع فقط على رءوس الملوك، وإنما كذلك على قمة الأسنان.



(1) يرد هذا الحل في الأصل مقلوبًا (المترجم).

وكـما لاحـظ أرسـطوطاليس فـإن الأشـياء أكـثر دائمًـا مـن الكلـمات، ومـن ثـم ينبغـي عـلى بعـض الكلـمات أن تقـوم بـأدوار عـدة. وعـلى هـذا المشـترك اللفظـي تقـوم لعبـة غلايـة الشـاي، وهـي لعبـة محببـة ومنعشـة لـلأسر إبـان الازدحـام الطويـل للطـرق السريعـة. وفي هـذه اللعبـة يتفـق لاعبـان عـلى كلمـة مزدوجـة المعنـى يرمـزان لهـا بكلمـة "غلايـة الشـاي"، ويقومـان بوصفهـا وشرحهـا للآخريـن ليخمنوهـا، تقريبًـا كـما يـلي:

السيدة ماير: غلايتي يمكن شراؤها.



ماير الابن: غلايتي أيضًا.

السيدة ماير: غلايتي يمكن المسح عليها.

ماير الابن: غلايتي أيضًا.

السيدة ماير: غلايتي يمكنها الحركة.

ماير الابن: غلايتي أيضًا.

السيدة ماير: غلايتي تحب قضم الجبنة.

ماير الابن: غلايتي لا تجوع أبدًا.

السيدة ماير: غلايتي تحفر جحورًا.

ماير الابن: غلايتي تتحرك على سجادة مطاطية.

"**الحل**"[1] : الفأرة

(1) يرد هذا الحل في الأصل مقلوبًا (المترجم).

المراجع

أفضل مدخل لموضوع التحديد والتعريف يقدمه إيرنا نايس Naess في كتاب "الاتصال والبرهنة" (كرونبرج 1975). حول معني الكلمات يخبرنا كتاب القواعد القديم لسلسلة كتب Duden بشكل أفضل من الجديد، وأفضل اقتراح هو العودة لإحدى طبعات الفترة ما بين عام 1966 وعام 1986، وبداخلها فصل هيلموت جيبيرت Gippert حول "محتوى الكلمة وتقسيم الثروة اللغوية". هنا لا بد من الإشارة للنص الوحيد الجديد المتخفي حول صامويل شتوش الذي نُسي دون وجه حق، وهو نص أوفه بوركسن Pörksen عن "الغنى المعجمي" في كتاب "اللغة العلمية والنقد اللغوي" (توبينجن 1994). توجد أمثلة جيدة لكيفية استخدام اللغة لإخفاء الحقائق لدى ولف شنايدر Sch-neider في كتابه "الألمانية للمحترفين. طرق للأسلوب الصحيح" (ميونخ 1999). حول موضوع التعريف في المناقشات العامة يخبرنا فالتر كريمر Krämer في كتابه "هكذا يمكن الكذب بمساعد الإحصائيات" (ميونخ 2000). يوجد عرض ذكي مختصر للأشكال المتنوعة للتعريف في مقال "وصف" في المجلد الأول من "المعجم التاريخي للفلسفة" (بازل 1971).




Georg Christoph
Lichtenberg

8 صـور

الانتخابـات البرلمانيـة الألمانيـة لعـام 2002: كان الحـزب الاشـتراكي الديمقراطـي (SPD) متأخـرًا في الاسـتفتاءات عـن الاتحـاد (الحـزب المسـيحي الديمقراطـي (CDU) والحـزب المسـيحي الاجتماعـي (CSU)). كانـت الإحصائيـات في متنـاول اليـد، تذكـر الأرقـام، ولكـن لا أحـد يسـتطيع أن يقتنـص فرصـة الإمسـاك بالمـزاج العـام. وإبـان ذلـك اخـترع فرانـز مونتفيرينـج رئيـس اللجنـة الانتخابيـة لحـزب (SPD) أخـيرًا الصـورة الموحيـة التاليـة: "لقـد بـدأ آخـر ربـع سـاعة، ولا بـد لنـا مـن أن نسـجل هدفـين آخريـن". هكـذا شرح الموقـف لأعضـاء (SPD) أيـن يقـف الحـزب ومـا ينبغـي عملـه.

لقـد كانـت هـذه سـنة كأس العـالم التـي وصـل فيهـا الفريـق الألمـاني بشـكل مفاجـئ للمبـاراة النهائيـة. ولكـن سرعـان مـا ظهـر أن المقارنـة ذات مزالـق خطـرة، وذلـك لأن الكثيريـن لم يسـمعوا جملـة: لا بـد لنـا مـن أن نسـجل هدفـين لـكي نكسـب، وإنمـا: نحـن أقـل بهدفـين مـن المنافسـين ومـا زال أمامنـا ربـع سـاعة؛ لـذا قـام سـياسي حـزب (CDU) فولفجانـج شـتويبله وبـكل سرور باسـتخدام هـذه الصـورة؛ ففـي مقابلـة مـع مجلـة ديـر شـبيجل زاد بكـرم كبـير مـن المسـافة بـين حزبـه (CDU) وحـزب (SPD): " إذن فالنتيجـة هـي (4 : 1). كذلـك أعجبـت المقارنـة أدمونـد شـتويبر مرشـح الاتحـاد (CDU/CSU) لمنصـب المستشـار فقـال: "في النهايـة سـيأتي (يعنـي المستشـار شرودر) ويقـول: "لحظـة، سـيادة الحكـم،

لقد لعبنا لمدة 85 دقيقة بتكتيك خاطئ، ولذا فإننا مهزومون بنتيجة (3 : صفر)!".

فتبعًا لشتويير فإن النتيجة هي: (3 : صفر)!.

فيما بعد أوضح شرودر نفسه في أحد حواراته أنه لا يرى أنه في الدقائق الأخيرة من المباراة، وإنما في نهاية الشوط الأول فقط. وبعد أن حكيت قصة لعبة كرة القدم في كل أشكالها تقريبًا كان يجب بأي شكل ابتداع صورة جديدة. وفي الوقت المناسب ابتكر يوشكا فيشر الصورة الجديدة المطلوبة؛ حيث قال للمراسلين: "أنتم أمام أحد أبطال سباق المسافات الطويلة، وأنتم تعرفون أن سباق المسافات الطويلة يحدد فقط بعد الكيلومتر رقم 38، وآنذاك لن يرى المرء بعض من كانوا في المقدمة".

الصور يمكنها تبعًا لغرض المتحدث أن تسلي، تعلم، تشنع، أو تجمل. وهي تسمح باستخدامها بطرق متعددة، ولذا فهي محببة جدًا في كل أنواع المجادلات سواء أكانت سياسية أم علمية. والمرء يفرق بين أنواع عدة منها، من بين ذلك: التماثل Analogie، المجاز Metapher، الرمز Gleichnis، والاستعارة Allegorie. في الرمز تكون نقطة الارتكاز في التاريخ. أما التماثل فصورة موضوعية باردة يكون فيها التوتر السردي أقل أهمية، وذلك لأنها تعتمد قبل كل شيء علي منطقية البنية. أما الاستعارة فهي صورة مكونة تبعًا لشفرة محددة، وهي تستخدم في الفن والأدب بشكل أكبر من استخدامها في البراهين. وأخيرًا فإن المجاز كلمة تقوم مقام كلمة أخرى (على سبيل المثال مباراة كرة القدم مقام الانتخابات البرلمانية). ولكن الحدود بين هذه الأشكال مائعة وغير واضحة، ويكفي لهدفنا هنا استخدام المصطلح غير المحدد تمامًا "صورة" (أو القصص المصورة). ودائمًا ما يتعلق الموضوع باستبدال حقيقة بأخرى بطريقة مسلية، على سبيل المثال كما في استبدال الانتخابات البرلمانية بلعبة كرة القدم.

أما أية ميزة تملكها طريقة تعبير تصويرية أمام أخرى غير تصويرية فتبدو بوضوح في المقارنة. وهنا جملتان تتناولان الموضوع

نفسـه: أولاً صيغـة تجريديـة مـن كتـاب تعليمـي حـول "دلالـة الجملـة الألمانيـة" تقـول: "قسـمت طـرق تركيـب الجملـة الألمانيـة بطريقـة تـأتي فيهـا - في العـادة - الوحـدات ذات المعلومـات الأكـثر أهميـة، وهـي في أغلـب الحـالات الفعـل، في النهايـة".

لا بـد للمـرء مـن أن يعيـد قـراءة هـذه الجملـة مرتـين عـلى الأقـل حتـى يفهمهـا، ولكـن هـذا القـول يمكـن أن يؤثـر بطريقـة مختلفـة جـدًا إذا مـا صيـغ في صـورة مجازيـة - لنسـمع مـارك تويـن Twain (1835-1910) الـذي كتـب في مقالـة عـن "اللغـة الألمانيـة الرهيبـة" قـال فيـه: "إذا مـا بـدأ كاتـب ألمـاني جملـة فـإن ذلـك يبـدو كـما لـو أنـه يغطـس في محيـط عميـق وبعـد أن يختفـي لفـترة طويلـة لا يـراه المـرء خلالهـا يظهـر أخيرًا وفي فمـه فعـل". فمـن خـلال صـورة المؤلـف الغاطـس تتحـول المعلومـات إلى قصـة صغيرة يمكـن أن يراهـا المـرء أمامـه مباشرة، وهـذه الصـورة ليسـت مسـلية فقـط، وإنمـا واضحـة أيضًـا.

الصـور تعطـي للموقـف وجهًـا، وغالبًـا مـا يصبـح الأمـر واضحًـا مـن خـلال الصـورة المناسـبة؛ فمبـاراة كـرة قـدم تؤثـر بوضـوح أكـثر مـن انتخابـات متعبـة طويلـة المـدى. وإذا مـا تمـت صياغـة صـورة مـا لمـرة يمكـن أن تصبـح مثـل ملصـق إعـلاني مرفـوع يسـلم مـن واحـد إلى آخـر. يصعـب أن توجـد وصفـة ناجحـة لاخـتراع الصـور. وكان أرسـطوطاليس يـرى أن صـورة جيـدة تتطلـب فكـرة وموهبـة. ولكـن رغـم ذلـك يمكـن تقديـم بعـض الأفـكار الأساسـية. عـلى سـبيل المثـال لا بـد مـن أن تكـون المواقـف أو المشـاهد أو الحقائـق التـي يسـتخدمها المـرء كصـورة أسـهل وأكـثر تحديـدًا ووضوحًـا مـما ينبغـي شرحـه مـن خـلال هـذه الصـورة. فصـورة مـن دائـرة راقيـة تؤثـر بشـكل إيجـابي، بينـما تؤثـر صـورة غـير راقيـة بشـكل سـلبي. وإذا مـا صنعـت صـورًا خـلال مناقشـة مـا؛ فإنـه مـن المفيـد للمـرء أن يفكـر في كيفيـة يجعـل بهـا هـذه الصـور تعمـل لصالحـه، وهنـا مثـال يوضـح كيـف يمكـن للمـرء أن يفعـل هـذا:

تحويل

وقعت أحداث هذه القصة في روما القديمة، وهي لا تدور حول الاختلافات الفلسفية، وإنما حول صراع قاس على السلطة. فبعد إلغاء الملكية نشأ صراع بين الأسر النبيلة أو ما يسمى Patriziern (النبلاء) وطبقات الشعب الدنيا أو ما يسمى Plebejern (أي العامة). وقد قام النبلاء بتقسيم السلطة فيما بينهم، وتحكموا بالتالي في الجزء الأكبر من ثروة المدينة.

أما العامة فكانوا على العكس مبعدون من قبل الموظفين السياسيين وكانوا بخلاف هذا يعانون من الظلم. وكان هذا الذي عده النبلاء حقًا لهم هو ما يجعل العامة غاضبين. ولكن لأنه كان واضحًا للعامة أن الدولة لا يمكن أن تسير أحوالها بدونهم، خاصة الجيش الذي يمكن أن ينهار دون عساكر الطبقة الدنيا؛ فإنهم ثاروا ووصل الأمر في القرنين الخامس والسادس قبل المسيح إلى ما يمكن أن يسمى صراع طبقات.

وإبان ذلك حدث في يوم ما أن ما يسمى بالطبقات الدنيا رحلوا بالكامل عن روما، وأقاموا بمتاعهم على الجبل المقدس الذي يقع في مقابل المدينة. وهناك كان القرار أن تقام مدينة جديدة دون نبلاء، فلا حاجة لهؤلاء الكسالى غير المفيدين الذين يعيشون متطفلين على الآخرين، ويقبعون خلاف ذلك في الوظائف الحكومية ذات المرتبات العالية حيث لا يجيدون غير هش الذباب.

بالطبع ضج النبلاء بسبب هذا الرحيل الذي لم يسمع بمثله من قبل. فمن ينبغي إذن أن يقوم بأعمالهم؟ ومن ينبغي أن يخرج للقتال؟ هل ينبغي استعمال العنف لإرغام هؤلاء العامة على العودة للمدينة؟ وأخيرًا اتفقوا على أن يبعثوا رجلاً للتباحث، رجلاً فاضلاً يدعى مينينيوس أجريبا Agrippa وهو ينتسب للطبقات الدنيا، ولكنه تمكن من الدخول لطبقة النبلاء. كان على هذا الرجل أن يقنع العامة بالعودة، ولكن كان عليه قبل ذلك أن يشرح لهم أن اتهاماتهم للنبلاء غير مبررة وغير عادلة.

إذن خرج مينينيوس أجريبا من المدينة، وصعد الجبل، ووصل للمعسكر الذي نزلت به العامة. وقد تُرك حتى وصل إلى وسط المكان، وجمع حوله مجموعة من العامة، ثم ألقى خطبة عصماء كانت في الحقيقة عبارة عن حكاية مصورة:

"في الوقت الذي كان فيه كل شيء في الإنسان، ليس كما هو الحال الآن، يعمل معًا، وإنما كان كل عضو له إرادته الخاصة، أغضب الأعضاء الأخرى أن كل عملهم الدائم يذهب للمعدة التي لا تفعل شيئًا غير التلذذ بالمتع. وهنا اتفقوا جميعًا على أن يعاقبوا المعدة؛ فلم تعد الأيدي تنقل طعامًا للفم، ولم يعد الفم يطعم شيئًا، ولم تعد الأسنان تمضغ شيئًا. وفي الوقت الذي أرادوا فيه أن يعاقبوا المعدة بالجوع أضنوا أنفسهم وأنهكوها، فأصيب الجسم كله بالهزال. هنا فقط ظهر أن المعدة تقوم أيضًا بعملها حين تهضم الطعام وتمنح الأعضاء قوة جديدة".



تأثرت العامة المتذمرة بالحكاية. بالطبع المعدة! كان النبلاء موضع مقارنة بالمعدة! فهم يهضمون ويوزعون. ودون المعدة يبدو الأمر بالنسبة للأعضاء الأخرى سيئًا! هكذا فكرت العامة، وكان مينينيوس أجريبا سعيدًا؛ حيث بدا الأمر كما لو أنه قد حقق غايته. ولكن هنا وقف وسط الجموع أحد العامة بملابسه الرثة المهلهلة وقال:

"التحية لك يا مينينيوس أجريبا. لقد تحدثت عن المعدة والأعضاء فأحسنت، وتبدو لي قصتك الرمزية مما يستحق التفكير فيه. أليس الهدف منها أن نرضى بالنبلاء ونقر طريقة حياتهم الكسولة الفارغة؟ يا لها من عضو مفيد هذه

المعدة! تستقبل وتوزع أيضًا! رغم ذلك لا بد من أن أعترف بأنني أعرف قصتك هذه بصيغة أخرى. فاسمح لي أن أحكيها أيضًا. نعم هي صيغة قذرة وعامية، ولكن ألسنا كلنا عامة؟". هنا صارت بين الجموع همهمة، وارتفعت بعض الصيحات المفردة مثل "اسمعوا، اسمعوا!" و"أحكِ لنا!". وهنا واصل العاميّ كلامه: "إذن دعوني أحكي. لقد كان الوقت الذي خلق فيه أول إنسان. كان كل عضو يريد أن يصبح ملكًا. قال العقل: لأنني أعمل كل العمل وأقوم بالتوجيه وأهتم بالتفكير يجب أن أكون ملكًا. وقالت الأيدي: لا. فلأننا نقوم بكل العمل من إطعام الكلب إلى عدّ الفلوس نستحق أن نكون الملك. هنا خفق القلب قائلاً: إنني القوة المحركة للكل ومن غيري لا توجد حياة؛ لذا ينبغي أن أكون الملك. وقال العضو التناسلي: لأنني المعني بأمر الخلفة وأنا الذي أهدي السعادة العليا للحياة؛ فإنني يجب أن أكون الملك. هكذا أخذ كل أعضاء الجسد يدلون بالأسباب الوجيهة لكونهم يستحقون الملك. وفي النهاية قالت المؤخرة... أجل يا مينينيوس المؤخرة!". هنا أخذت الجموع تضحك بشدة على فكرة أن تكون المؤخرة هي الملك. عند هذه الجزئية علت بعض الصيحات بين المستمعين حيث صاح البعض: "لديه كل الحق!" وقال آخرون: "هذا هو لبُّ الموضوع!". وواصل الرجل العاميّ كلامه: "غضبت المؤخرة بشدة وأغلقت نفسها وأضربت عن العمل حتى تسمم الجسم، وبدأ العقل في ارتكاب الأخطاء وأصبح مهددًا بالتعطل، وأصبحت السواعد مرهقة، وأخذت الأيدي في الارتعاش بشكل يرثى له، وأصبح العضو التناسلي خاملاً متراخيًا. لقد أصبحت الأعضاء في حالة يرثى لها وأقروا إبان خوفهم للمؤخرة بالمُلك. وبينما كان أعضاء الجسد يقومون بأعمالهم المعتادة كان لا عمل للمؤخرة غير إلقاء الأوامر وإنتاج كمية ضخمة من الخراء".

هكذا حكى الرجل العاميّ فأخذت الجموع تهيص وتصيح معجبة، ولكنه واصل حديثه قائلاً: "لا تتركون أنفسكم تُخدع بالقصص المصورة الخاطئة التي يريد هذا المينينيوس أجريبا الذي يأخذ راتبه من البرلمان أن يبيعها لنا. لتثبتوا على موقفكم! إن قصتي الرمزية

تحـوي مـن الحقيقـة أكـثر مـن قصـة مينينيـوس المخترعـة! نحـن نعـرف مـا ننتظـره مـن النبـلاء".

هكـذا تكلـم الرجـل العامـيّ فاحمـر وجـه مينينيـوس أجريبـا مـن الغضـب جـدًا، ولكـن الرجـل العامـيّ صـاح أيضًـا: "يـا عـمال العـالم اتحـدوا جميعًـا! وناضلـوا معًـا ضـد العـدو المشـترك!".

هـذا عـلى الأقـل مـا رواه لنـا تيتـوس ليفيـوس Livius (59 ق.م. – 17 م.). وحقيقـة فـإن الروايـة تحـكي فقـط عـن قـدوم مينينيـوس أجريبـا. أمـا الرجـل العامـيّ فـإن كتـب التاريـخ لا تشـير إليـه حتـى اليـوم، ربمـا لم يوجـد قـط. ولكـن عـلى أيـة حـال فـإن هـذه الخرافـة النقيـض ترينـا كيـف يمكـن للمـرء أن يتـصرف مـع القصـص التصويريـة: أن يـرج عناصرهـا قليـلاً ثـم يعيـد ترتيبهـا مـن جديـد حتـى تنتـج صـورة جديـدة يمكـن للمـرء أن يسـتنتج منهـا نتائـج جديـدة.

مواصلة التفكير

تنطـوي القصـص المصـورة عـلى مجازفـة، وذلـك لأنهـا تسـمح باسـتخدامها ضـد مـن يحكيهـا – هـذا إذا مـا اسـتطاع المـرء أن يدلـل عـلى أن مـن يحـكي لا يعـرف مـا يحـكي عنـه.

وهنـا مثـال آخـر، قصـة البقـرة: تتعلـق المناقشـة التـي سـنتطرق إليهـا مـن ناحيـة الموضـوع بماهيـة الحقائـق، وإذا مـا كانـت توجـد عـلى الإطـلاق: هنـاك مدرسـة فلسـفية تسـمى "التركيبيـة" Konstruktivis-mus تـرى أن الحقائـق إذا مـا نظـر إليهـا حتـى النهايـة فإنهـا في الواقـع مخترعـة. مـن الكُتّـاب الذيـن ينتمـون إلى هـذا الاتجـاه عالمـة اجتـماع العلـوم كاريـن كنـور- سـيتنا Knorr-Cetina التـي جعلـت شـعار كتابهـا "صناعـة المعرفـة" المقولـة التاليـة (المنقولـة عـن كاتبـة أدب الجريمـة دورثي سـايرس Sayers): "إن الحقائـق، يـا سـيدي الفاضـل، مثـل البقـر؛ إذا مـا نظـر إليهـا المـرء بتمعـن فإنهـا في العـادة تجـري بعيـدًا".

مقارنة جميلة وأصيلة تحوي بالإضافة إلى ذلك ملحوظة مفاجئة، ولكن بهذه الصورة تحديدًا بدأ عالم الاجتماع الفرنكفورتي لوتر هاك Hack نقده للمؤلفة: "حتى وإن بدت صورة عالم الاجتماع بوصفه مربيًا للأبقار مؤثرة من اللحظة الأولى؛ فإن كل راعي بقر حقيقي يعرف أن البقرة، وإن غيرت من موقفها وجرت بعيدًا، فإنها تظل في المعتاد بقرة (هذا يتغير فقط عندما يتم ذبحها وسلخها)". لوتر هاك يأخذ المقارنة هنا بجدية ويسير معها لعدة سنتيمترات أخرى. وقد تبين بالتأكيد أن الصورة إذا ما أخذت بدقة فإنها لا تحقق ما وعدت به. وبالإضافة إلى ذلك يمكن للمرء أن يضيف أن البقر المذعور فقط هو الذي يجري إذا ما نظر إليه. أما الغالبية فتنتظر بهدوء وتواصل المضغ والاجترار.

غالبًا ما تحوي الصور التي تظهر فيها الحيوانات على مناطق ضعف، وذلك لأن الكاتب المثقف الذي يستخدم المجازات أو الاستعارات الحيوانية ليس لديه في الغالب المعرفة الضرورية. وهذا ما يدلل عليه أيضًا المثل السائر التالي: "هنا يستعرض الأسد أظلافه". وهو المثل الذي يستخدمه بعض ناقدي الفنون كي يعبروا عن إعجابهم بأحد الأعمال الرائعة. ويبدو أنهم لا يعلمون أن الأسد بوصفه من الحيوانات آكلي اللحوم لا يملك على الإطلاق أظلاف (أي حوافر) وإنما كفوف ذات أظافر. أما الحوافر فتوجد لدى الخنزير البيتي وأقربائه، ولأجل هذا يتحدث المرء عن "داء الفم والحوافر".

الأخذ حرفيًا

كتب أرسطوطاليس في كتابه "الطوبيقا" (أي الجدل) أن المرء يمكنه أن "يرهق الخصم بأن يأخذ ما يقوله حرفيًا". وإبان ذلك ينتج بسهولة نوع من النكات اللغوية السخيفة تبعًا للنموذج التالي: "أعطته أذنيها؛ فهل أعادهما حقًا إليها؟". بعض أقوال خطب الكرنفالات واستعراضات الكباريهات تعيش بالضبط على أخذ التعبيرات التصويرية المجسمة في اللهجات واللكنات بحرفية أو تعيد ترتيبها ورصفها مرة أخرى.

يمكن للمرء بهذه الطريقة ليس فقط وضع النكات وإنما أيضًا نزع الرهبة بالضبط كما فعل برتولد بريشت Brecht (1898-1956) في عمله "أسئلة عامل قارئ": "الإسكندر الشاب يحتل الهند. فقط بمفرده؟ لقد هزم قيصر بلاد الغال. ألم يكن معه ولو على الأقل طباخ؟".

استبدال

من ينتقد الصور التي استخدمها الآخرون ينبغي له أن يقدم قدر المستطاع صوره الخاصة. أرتور شوبنهاور Schopenhauer (1788-1860) وقف ضد تصور محدد واسع الانتشار حول الذاكرة، وهو تصور أن الذاكرة يمكن مقارنتها بحاوية رُصت فيها الذكريات فوق بعضها البعض. وقد اعترض شوبنهاور بأن هذه الصورة لا تتوافق مع الظواهر المهمة، وذلك لأن هذه الصورة لا تشرح التذكر الشبه آلي الذي يثيره مسبب ما. على سبيل المثال عندما يتذكر المرء قطعة موسيقية كاملة ما أن يستمع لمطلعها الإيقاعي. فمثل هذه الخاصية لا يتم توضيحها من خلال مجاز أو استعارة الحاوية. وهنا يقترح شوبنهاور استبدال الصورة التقليدية: "إذا ما أراد المرء أن يكون صورة لهذه الخاصية التي تميز قدرتنا على التصور... فإنه مما يبدو لي أن الصورة الأصح هي صورة المفرش الذي يقوم بعمل الثنيات التي ثني عندها مرارًا فيما بعد بنفسه". يبدو لي أن شوبنهاور كان يفكر في مفرش الطاولة الكتاني الثقيل الذي كان في وقت ما "موضة"، والذي حينما يتم كيّه بما يكفي فإنه يبدو حقيقة وكأنه ينثني تلقائيًا. هذه الصورة تشرح - كما يرى شوبنهاور- لماذا يمتلك الناس الذين يفكرون باستمرار في الشيء نفسه ذاكرة قوية: إنهم يواصلون - كما يمكن أن يقال - كيّ ذكرياتهم بشكل مستمر. أما الآخرون الذين ربما كانوا مبدعين بشكل كبير ولديهم باستمرار أفكار جديدة فإن لديهم في الغالب - كما يقول شوبنهاور - ذاكرة ضعيفة.

بالتأكيد فإن لهذه الصورة أيضًا حدودها، وهي على كل حال لم تصبح مشهورة بوجه خاص، ولكن تأملات شوبنهاور تظهر أن صورة ما تُحضر معها باستمرار تداع للخواطر محدد، حتى إن تبادل الصور يمكن أن يثير أفكارًا جديدة.

مغزى الفكاهة

أريد أن أنهي حديثي بنظرة إلى لون من القصص المصورة أصبح محبوبًا من الممثلين والسياسيين، وأعني هنا القصة المصورة ذات النوادر، والتي تمثل شيئًا ما بين اللغز والنكتة والتماثل. وهنا بعض النماذج:

- لقد قفزت مثل نمر، وهبطت مثل مفرش سرير!
- إنها السلسلة (زيرو زيرو) - فقط للرمي في دورة المياه!
- إنها برامج موزية (من الموز)، لذا فهي تنضج لدى الزبائن.
- التعليم مثل المربى كلما كان قليلاً كلما تطلب الأمر توسيع دائرة الدَهن.
- علاقة السياسي بالعلماء تشبه علاقة أحد السكارى بعمود النور، أي أنه يبحث عن شيء يمسك به وليس عن تنوير.

في كل هذه الأمثلة يكشف في النادرة أو الملحة عن قرينة غير منتظرة تكسر توقعات القارئ أو السامع، ومن ثم تنتج التسلية. إذا ما عرض معنى بمثل هذه الطريقة فإنه يكون مقنعًا، ومن هنا فليس من الغريب أن المقارنات الفكاهية تستخدم بشكل مضاعف ليس فقط في المناقشات اليومية، وإنما أيضًا في الفلسفة كما ترينا الملاحظة التالية من ليبنتس:

"هنا بالضبط تتميز معرفة البشر عن معرفة الحيوانات. فالحيوانات تعتمد فقط على التجربة وتهتدي بالأمثلة، وذلك لأنها إذا كان في وسع المرء التقدير لا تتمكن أبدًا من التوصل لبناء جمل ضرورية، بينما البشر مستعدين للعلوم الواضحة المقنعة. فالنتائج التي تستنتجها

الحيوانـات تقـف عـلى نفـس درجـة تلـك التـي تسـتنتج مـن قبـل أصحـاب المذهــب التجريبــي الذيــن يزعمــون أن مــا حــدث لعــدة مــرات يحــدث في الحــالات التــي تبــدو شــبيهة أيضًــا، ومــن هنــا يســهل عــلى البــشر أن يصطـادوا الحيوانـات، وأن يرتكـب التجريبيـون السـذج الأخطـاء بسـهولة شـديدة".

إلى هنـا ينتهـي حديـث جوتفريـد فيلهلـم ليبنتـس. لقـد كان رأيـه أن الإنسـان مفطـور عـلى بعـض المعـارف المحـددة التـي لا يحصلهـا مـن خلال التجـارب، عـلى سـبيل المثـال المعرفـة الرياضيـة الأساسـية. أمـا التجريبيـون فينكـرون مثـل هـذه المعرفـة، ويذهبـون إلى أن كل المعـارف تكـون عـن طريـق الخـبرة والتجربـة. وهنـا يجـري ليبنتـس مقارنـة بـين التجريبيـين والحيوانـات، وهـذا لا يعـد مثـيرًا أو مشـوقًا، ولكـن سرعـان مـا تـأتي العلاقة المفاجئـة بـين الحيوانــات التــي تســقط في الــشراك والتجريبيــين الذيــن يسـقطون في الأخطـاء. فمـن تماثـل سـهل توصـل ليبنتـس بطريقـة سـحرية لبرهــان مدهــش، ووضــع في الوقــت نفســه أمــام ناظــري القــارئ ســمو العلــوم الواضحــة المقنعــة. الفكــرة مفاجئــة، ولكــن مثــل هــذه البراهــين النــادرة المســتملحة يمكــن دحضهــا مثلهــا في ذلــك مثــل الأدلــة الأخــرى أيضًــا.

ولكـن كيـف يصـل المـرء لمقارنـة مـن هـذا النـوع؟ ربمـا يمكـن التعلـم هنــا مــن جيــورج كريســتوف ليشــتنبرج المعــروف بملاحظاتــه وبراهينــه الذكيــة التــي لا تعتمــد فقــط عــلى فكــره اليقــظ، وإنمــا أيضًــا عــلى عملــه التجميعــي النشــط. كان يســجل كل مــا يبــدو لــه غريبًــا أو ملفتًــا للنظــر - أولاً دون هــدف محــدد، وفيــما بعــد يســتخدم كنزه مــن الأفــكار والتفاصيل المهمـة لـكي يجعـل براهينـه لامعـة وفكاهيـة. وهكـذا وقعـت لـه مـرة الكلمـة الإسـبانية التـي تعنـي "مقـص الشـمعة" (وكان يسـمى حتـى عصره باسـم "منظـف الضـوء"، وهـو مقـص يسـتخدم لتقصـير فتلـة الشـمعة) فكتـب: "الكلمـة الإسـبانية لمنظـف الضـوء هـي Despavilladéra ويقـال أن هـذا الاسـم يعـود إلى أحـد القـادة الكبـار". إلى هنـا ينتهـي مـا كتبـه

في إحدى "المسودات" المعروفة. فيما بعد صنع ليشتنبرج من هذه الملاحظة برهانًا استخدمه بنجاح ضد أحد معارضيه.

كان الداعي لذلك جدلاً مع مترجم هوميروس يوهان هاينرش فوس Voß (1751-1826) الذي كان يريد أن يدخل في ترجمته طريقة جديدة تناسب نطق اللغات القديمة لكتابة أسماء آلهة العصور العتيقة. وهكذا قرر فوس أن يكتب Zevs وتنطق "تسيفس" بدلاً من Zeus "زيوس". وهو تجديد لم يفهمه أو يقتنع به كثيرون. وهنا استحضر ليشتنبرج "منظف الضوء" مرة أخرى وكتب ضد فوس: "تسيفس... كلمة غبية لتسمية إله الآلهة. توجد كلمة ملوكية لدى الإسبان يطلقونها على "منظف الضوء" هي على ما أعتقد Despavil-ladéra. بالتأكيد فإن كل إنسان لا يعرف كلا الكلمتين سيظن أن كلمة "تسيفس" هي "منظف الضوء"، وذلك لأن الكلمة تحتوي على شيء ما يشبه فعلاً حركة العطس السريع".

المراجع

يمثل كتاب "خرافات وأمثال ورموز" لرينهارد ديتمار Dithmar (ميونخ 1976) إحدى المجموعات الجميلة التي تحوي على مقدمة واضحة ومفيدة. كذلك يقدم لنا إيكهارد مارتن Marten مدخلاً جيدًا حول مناقشة دور الصور في الفلسفة وذلك في كتابه "خيط الأريادن أو لماذا يخرِف الفلاسفة" (لايبزج 2000). يمثل كتاب "جدول لعلم الاستعارة" لهانز بلومنبيرج Blumenberg (فرانكفورت/ماين 1999- الطبعة الأولى صدرت عام 1960) أحد الأعمال الكلاسيكية حول هذا الموضوع. لقد انصب اهتمام بلومنبيرج طوال حياته على معالجة معنى الصور للتفكير الفلسفي. يمكن للقارئ مراجعة المقال الخاص بالتماثل في المجلد الأول من "المعجم التاريخي للخطابة" (توبنجن 1992). ويبدو لي أن أفضل دراسة عن النادرة أو الدعابة هي التي قدمها بيتر فينتسل Wenzel في كتابه "من بنية الدعابة إلى دعابة البنية" (هايدلبرج 1989).

Francis Bacon



9. تجميع

عندما وصف أرسطوطاليس العمل التنظيري للفلسفة bios the-oretikos بأنه أفضل أشكال الحياة فلربما كان يفكر أيضًا في أحد جامعي الكتب، يهتم - ويحب - بمجموعته، ينظمها ويقلبها على الوجهين، ويبحث عن نماذج جديدة. كان أغلب الفلاسفة المهمين تقريبًا من جامعي الكتب. على سبيل المثال أفلاطون (348-428 ق.م.) الذي ينتسب لأسرة أرستقراطية وكان رجلاً غنيًا، كان يشتري النصوص الفلسفية النادرة، حتى أنه كان يدفع أحيانًا مبالغ طائلة. وقد دفع مرة في كتاب يتكون من ثلاث لفائف حول نظريات فيثاغورث Py-thagoras (570-497 ق.م.)، كما رُوي لنا، مئة مينين Minen (للمقارنة نقول إن الأجر السنوى لأحد عمال البناء كان يبلغ آنذاك قرابة أربعة مينين).

وكان أرسطوطاليس نفسه يمتلك مكتبة كاملة أهداها بعد وفاته لتلميذه ثيوفراسطوس Theophrast (287-372 ق.م.). ولكن جمع الكتب يعد فقط المظهر الخارجي للتجميع الفلسفي. الفلاسفة "جامعو أفكار". حتى القراءة، هذا النشاط القديم للفلاسفة، هو لون من ألوان التجميع. كلا الكلمتين: كلمة Lesen (قراءة)، وكلمة Sammeln (تجميع) تعنيان في أصلهما الألماني المعنى نفسه تقريبًا - أي إعادة ترتيب الأشياء التي تستحق الحفظ. وحتى اليوم يمكن للمرء أن يتحدث عن Weinlese أى قطف أو جمع العنب، وأحد

أنواع القطف أو الجمع هذه تتمثل في قراءة أحد الكتب؛ فالقارئ يتجول عبر السطور والصفحات مثلما يكون الحال في التجول عبر حقل العنب، وهو يجمع إبان تجواله الفواكه العقلية والروحية من هنا وهناك.

الكثيرون لديهم عادة وضع علامات خاصة إبان القراءة، وذلك حتى يجدون طريقهم بشكل أفضل فيما بعد. فالبعض يخططون بقلم الرصاص، ويسجلون ملاحظاتهم على هامش الصفحة، بينما يريد آخرون لها أن تلمع وتضيء ولذا يستخدمون الأقلام الملونة. هذا بينما يقوم فريق ثالث بعمل ملخصات، ولذا فهم يكتبون أثناء القراءة. وهذا النشاط قديم قدم الكتاب نفسه، حتى إن السوفسطائي هيبياس الإليسي (القرن الخامس قبل الميلاد) وضع كتابًا بعنوان "كتاب قراءة للأشياء ذات القيمة المعرفية"، والذي جمع فيه مقتطفات من أعمال الشعراء والفلاسفة اليونانيين.

أرسطوطاليس، الذي كان أيضًا عالمًا للطبيعة، كان يجمع تقارير حول الحيوانات والنباتات؛ فحتى عصره لم تكد توجد مؤلفات حول هذه الأمور. كان يتحدث مع صيادي السمك والرعاة والقناصين ويسجل ملاحظاته الخاصة كتابيًا. وكذلك كان يجمع آراء المذاهب الفلسفية؛ لذا فنحن لا نعرف الكثير من الأفكار إلا من مؤلفاته فقط التي كان يبدأها في الغالب بنظرة شاملة حول الأفكار التي قيلت من قبل فلاسفة آخرين حول إحدى المشكلات. وينبغي أن يكون كتابه التعليمي حول إعمال الفكر "الطوبيقا" (أي الجدل) قد نتج عن هذا التجميع للتعريفات والبراهين.

فمن لا يجمع لا يمكنه أن يحرز تقدمًا داخل الحقل الفلسفي. فتجميع النظريات الفلسفية له أثر تنويري؛ لأن وجهة نظر ما لن تبقى طويلاً الإمكانية الوحيدة، وإنما تصبح نسبية بواسطة الإمكانيات المتنوعة. كذلك يمكن توضيح خصوصية أحد الآراء بشكل أفضل من خلال المقارنة. ويشبه هذا أن تفصح قطعة مالية قديمة عن جمالها وغناها التاريخي إذا ما رتبت في مجموعة منظمة. فتجميع التعريفات

والبراهين ييسر رد الهجوم بسرعة إبان المجادلات، ويضاف إلى ذلك أن التجميع يعطى للمرء، عند الاحتياج، إذا ما كان لديه برنامج محدد، القدرة على شق تفرعات جديدة للمجادلة.

وفي المجموعة سرعان ما تختفي الحدود بين الخاص وغيره، وهذا ليس سيئًا باستمرار؛ فالأفكار لا بد من أن تهاجر من دماغ إلى آخر حتى تتطور. وعلى كل حال يصعب في الغالب التثبت من أصل إحدى الأفكار، وغالبًا ما يتبين أن من حدده المرء "كدماغ أصل" قد قام بالأخذ عن آخرين. بالطبع لا ينبغي للمرء أن يتزين بريش غريب، ولكن من يتشبث بألا يستخدم إلا ما يخصه يعطل قدرته الإنتاجية.

أما كيف يوظف المرء مجموعته فأمر يتعلق بمن يجمع. الكثيرون يسجلون الآراء أو البراهين التي تلفت انتباههم في دفتر أو كشكول منفرد مخصص لذلك. ويعد صندوق البطاقات إمكانية بديلة للدفتر أو المفكرة. وهي إمكانية جرى استخدامها فقط منذ القرن السادس عشر. ويعد الأكاديمي السويسري كونراد جيسنر Gesner (1516-1565) مخترعها. وقد نصح "بأن يكتب كل ما هو مهم ويمكن استخدامه على جانب واحد لورق جيد"، ثم يقطع الورق بالمقص حتى يمكن ترتيبه وتبويبه تبعًا للموضوعات. ومنذ هذا الوقت أصبح صندوق البطاقات بشكل متزايد محبوبًا لدى العلماء، وذلك لأن مجموعة المواد لا تصبح ميتة أو معفرة، وإنما حديقة مسحورة متحدثة يقضي الجامع داخلها أجمل ساعاته.

وحتى إذا ما تفاقم أمر صندوق البطاقات مرة، وقد لا يحدث هذا إلا بعد عدة سنوات، حتى إن صاحبه لا يكاد يحيط به؛ فإن هذا لا يجعله بأية طريقة معدوم الفائدة، بل إن صندوق البطاقات الذي لا يمكن الإحاطة به يكون مناسبًا بشكل أفضل للعمل المبدع مقارنة بصندوق البطاقات المنظم بالكامل وعلى أحسن وجه. وعلى كل حال، فإن ذوي الخبرة من مستخدمي صندوق البطاقات ينصحون بألا يتم تبويب المواد في أقسام جامدة ثابتة، وإنما يترك صندوق البطاقات كي ينمو ويتطور حتى يصبح شبكة من الأفكار والملاحظات.

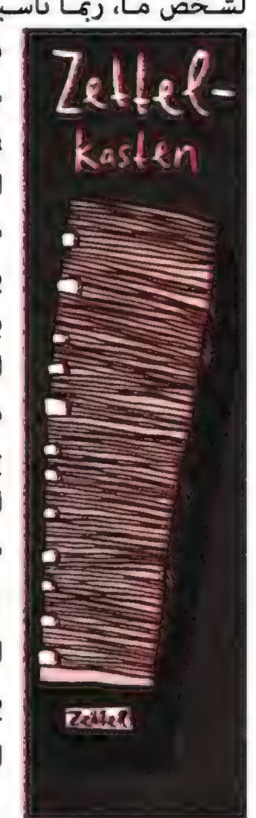
وهنا تعليمات للاستعمال ترجع إلى عالم الاجتماع نيكلاس لومان Lu-hmann (1927-1998):

1. قص ورق "الفلوسكاب" من المنتصف، وهكذا تحصل على بطاقاتك.
2. اكتب على هذه البطاقات ما يخطر ببالك الآن، ما يبدو لك مهمًا أو الأشياء المهمة التي سمعتها أو قرأتها.
3. اجعل كتابتك على جانب واحد فقط للبطاقة - نعم سيتضخم صندوق البطاقات سريعًا، ولكن في مقابل هذا يمكن للمرء أن يتصفح صندوق البطاقات دون أن يضطر لإخراج أي منها.
4. رتب البطاقات التي تندرج تحت موضوع واحد واجمعها في قسم واحد.
5. ميز هذا القسم بحرف يذكر بالموضوع (مثلاً: حرف (ميم) لموضوع المحاكاة). وينبغي على المرء أن يكتب هذا الحرف أيضًا على كل البطاقات التي تضم لهذا القسم.
6. أعطِ كل بطاقة في القسم رقمًا مسلسلاً (مثلاً: ميم9). هكذا يكون من السهل مبدئيًا الوقوع على أية بطاقة إذا لم يكن المرء قد حركها من المكان الذي وجدت به مرة.
7. اكتب على كل بطاقة أرقام كل البطاقات التي لها بها صلة. وهكذا توجد كل بطاقة حقًا في مكان محدد، ولكنها تشير من هذا المكان إلى كل الاتجاهات؛ فهي تشير إلى بطاقة ثانية تشير بدورها إلى بطاقة ثالثة، وهكذا تنمو حول كل بطاقة مفردة شبكة علاقات يستطيع المرء، إذا كان يعمل بصندوق البطاقات، أن يتتبعها.
8. يفضل لإدارة البطاقات التي يسجل عليها المرء مختصراته أو مقتبساته من الكتب أن يكون صندوقها الخاص مرتبًا تبعًا للمؤلفين.

إذا ما قام المرء بانتظام بتغذية صندوق البطاقات؛ فإنه ينتج مع الوقت منظومة من الأفكار لم يخطط لها مطلقًا، ولكنه يستطيع

استخلاصها. وإذا ما فرز المرء صندوق البطاقات فإنه يكتشف الإشارات التي سجلها المرء مع مرور الوقت، كل بطاقة تقود للأخرى. وهكذا ينتج بشكل يكاد يكون آليًا مجموعة من الارتباطات القدرية التي تقود المرء إلى أفكار جديدة، وتقود كذلك إلى تكوين سلاسل مهمة من الأفكار. يرى نيكلاس لومان الذي بدأ صندوق بطاقاته إبان دراسته أن صندوق البطاقات كان أذكى منه أحيانًا، بل إنه يكاد يكون كائنًا حيًا يمكن للمرء أن يتحاور معه. وبفضل صندوق بطاقاته تبدو كتبه - بسبب جودتها - كأنها قد كتبت نفسها.

إذا كان منهج لومان لعمل صندوق البطاقات صعبًا بالنسبة لشخص ما، ربما ناسبه منهج بيكون، وهو منهج لا يرجع للفيلسوف فرانسيس بيكون Bacon (1561-1626)، وإنما إلى سميّه الرسام البريطاني فرانسيس بيكون Ba-con (1909-1992) وهو أحد أهم فناني القرن العشرين. فرانسيس بيكون هذا كان يملك صندوق بطاقات ليس له أدراج أو أرفف، وإنما يتكون من مناطق وطبقات، بل كان وجود بعض كتل البناء أمرًا ممكنًا. أكثر من هذا كان الدخول لصندوق بطاقاته ممكنًا، بل إن باكون نفسه كان يعيش داخله. فصندوق بطاقاته كان يمتد على أرضية وأثاث وحوائط ستوديو الرسم اللندني الخاص به، ويمكن شرح منهج بناء صندوق بطاقات تبعًا لنموذج باكون هكذا:



1. اجمع الصحف القديمة قص المقالات أو الصور كل على حدة، واقذف بها على الأرضية.
2. انزع من الكتب والكاتالوجات الصفحات المهمة كل على حدة، واقذف بها على الأرضية.

3. خذ صور فوتغرافية للأصدقاء أو لك شخصيًا، أيضًا صور الأشعة، أمسكها بالأصابع الملوثة بالدهون، واقذف بها على الأرضية.
4. خذ الأسطوانات الموسيقية القديمة، واقذف بها على الأرضية.
5. خذ الرسوم القديمة (أو المخطوطات) الخاصة بك ومزقها أو اترك الآخرون يمزقونها، واقذف بها على الأرضية.
6. خذ قطع الملابس القديمة والأحذية القديمة، واقذف بها على الأرضية.
7. رش كل شيء في كل مكان بلون زيتي أو بمشروب البيرة حتى تلتصق الأوراق والبطاقات معًا وتصبح كتلاً.

وهكذا ينتج إذا ما استخدم المرء هذا المنهج لعدة سنوات كومة كبيرة لا يستهان بها. ومثل الخمر المعتقة لا بد لصندوق البطاقات من أن يختمر وينضج، بل يجب أن يرج بين حين وآخر، وأن يُداس أحيانًا ويُركل بالأقدام. أما السؤال الذي يخطر للبعض هو كيف يتعامل المرء مع هذا الذي يبدو كجبل متحرك من البطاقات. كيف يمكن مرة أخرى العثور على البطاقات أو الصور المختبئة هناك؟ بالطبع فإن البحث المقصود غير مجد، ورغم ذلك قد يجد المرء شيئًا لدى التجول أو التعثر في زحمة البطاقات والأوراق والصور، هذا طالما أن المرء يعبث بطريقة آلية بالترتيب ويبدع آخر جديدًا. فالمرء يراقب التكوينات التي على الأرض يستوحيها، يتناول بعض قطعها ليعيد النظر فيها أو يلقي بها في مكان آخر.

أما كون بيكون قد عمل بهذه الطريقة فعلاً فهو أمر مثبت؛ فهو نفسه الذي يقول: "أشعر بالراحة وسط هذه الفوضى، وذلك لأن الفوضى تثيرني وتدفعني لعمل الصور". فليس نادرًا أن أعماله كانت مستلهمة مباشرة من خلال النظر لصور ممزقة ومكسرة وملصقة تتقدم مصادفة من أسفل الكومة التي في مرسمه إلى سطحها وتلفت نظره.

وقد أوصى ورثة بيكون بعد وفاته بمرسمه وبتلال صوره وأكوام صناديق بطاقاته إلى أحد المتاحف المشهورة، وهو جاليرى Hugh Lane. ولأن بيكون يعد ضمن أهم وأغلى رسامي القرن العشرين؛ فقد بعث الجاليري بسرعة فريقًا من الأثريين المحترفين كي ينتشلوا هذه الفوضى، فتم حفظ كل قطعة أو خرقة قماش وتصويرها فوتغرافيًا ورقميًا. وفي النهاية جمع كل شيء ونقل إلى المتحف، وهناك تم تشييده مرة أخرى مصداقًا للأصل. وهكذا يمكن للمرء أن يرى المرسم من جديد: في دبلن، مسقط رأس الرسام.

لعبة: أي قارئ أكون؟

القراءة نموذج للتجميع، ولكن كل يقرأ على طريقته! البعض يقرأ كتبه صفحة صفحة، والآخر يحب المطالعة مرة هنا وأخرى هناك. البعض يشتري كتبًا والآخر يستعيرها. وفيما يلي عرض لبعض أنواع القراء وملحق يحكي عن أحد لصوص الكتب ندين له بالكثير.

رصّاص الكتب

الكتب تبعًا لرأيك موجودة في الغالب كي ترص، وذلك حتى لا تبدو الأرفف خالية، ولأجل ذلك فإن لديك فقط كتبًا مجلدة تبدو جميلة حسنة التنسيق في دواليبها ومرتبة طبقًا للحجم.

مقوس الكتب

لا بد للمرء من الإمساك بالكتب، أن يأخذها في يديه، ويختبر صلابتها؛ فبعضها ذو بنية قوية، شباب متين الأسر. وبعضها يبدو هزيلاً نحيفًا، وهذه يمكنك ثنيها لفترة طويلة حتى تطقطق وتنفرط، بينما توجد كتب أخرى تبدو على كل حال ميتة وقديمة جدًا حتى إنها لتتحول بمجرد اللمس إلى غبار. كون المرء يستطيع أن يقرأ الكتب فهذا ما تعرفه منذ فترة، ولكن الأفضل أن تُعيد النظر في كل صفحة

على حدة. شدها إبان التقليب دون تردد واخمش منتصفها بأظافرك قليلاً.

مستغل الكتب

لا بد للكتب أن تعطي شيئًا، وإلا فإن الأمر لا يستحق العناء؛ فعلى الأقل ينبغي استخراج بضع معلومات، ولذا فمن الأفضل لك أن تقرأ الكتب البحثية، أما الروايات فتقرأ، في بعض الأحيان، في الإجازات فقط. دون قلم في اليد يصبح من المستعصي عليك أن تبدأ حتى القراءة، وإبان ذلك ينتقل النص من صفحة إلى أخرى إلى دفتر ملاحظاتك دون أن يمر بدماغك لأن هذا أسرع.

عاشق الكتب

أنت تحب الكتب خاصة القديمة منها. وأنت لا تقرأ، ولكنك تتصفح فقط، تلمس الورق وتشم، وفي بعض الكتب تكتشف رائحة العصور الماضية، وهذا ما ترشفه وتتنفسه وتتلذذ به. وأنت خبير بأنواع الخطوط وتزيين الكتب وأنواع الورق ودور النشر. تزايد في المزادات على القطع النادرة أو الطبعات الأولى أو المطبوعات القديمة، وربما تدعها تصطحبك. مجموعتك ضخمة وهي تضم بعض التحف. أما القراءة فنادرًا ما تجد لها وقتًا.

مدمن الكتب

دون كتاب بالقرب تصبح مضطربًا، وإذا ما سافرت في إجازة فإنك تتسلح بما يقرب من ثلاثة كيلوجرامات من الكتب، أكثر مما تستطيع أن تقرأه في أي وقت، وفي البيت لديك مكتبة ضخمة أنت خبير بكل كتاب فيها بالضبط مثل خبرة حيوان بحدود منطقته، تستطيع أن تجد بسرعة أية فقرة في أي كتاب. أما اللقاءات الإنسانية فتبدو بالنسبة لك مثل شيء عابر بين قراءتين. بعض الكتب يجب عليك أن

تسرقها، وذلك لأنك لا تستطيع شراءها. وعند الضرورة يمكنك أن تَقتل بسبب الكتب، ولكنك لم تصل بعد إلى هذه الدرجة.

مَصفِق الكتب

الكتب تزعجك، خاصة إذا ما وجد فيها خطأ ما، وهذا ما يحدث غالبًا. ما إن تأخذ كتابًا في يديك حتى تنفخ من الغيظ وتتصاعد ثورتك من صفحة إلى أخرى، حتى تقوم في النهاية بإغلاق الكتاب بعنف مثلما يصفق أحدهم الباب بعنف وهو يغادر الحجرة عقب إحدى المشاحنات. وغالبًا ما تعلن رأيك إبان ذلك كأن تقول على سبيل المثال: "بيلا باللا!" أو: "تسه!" أو: "هذا تخريف!". لقد وصلت في طريقة إغلاقك للكتب إلى درجة من المهارة عالية حتى أنك تستطيع أن تفعل ذلك بإصبعين فقط وتجعل الكتاب يقفز لأعلى، ينغلق تلقائيًا ثم يبقى هناك ملقى على الأرض وهو مهزوم.

ملحق: سرقة الكتب والغرب

محبو الكتب هم جامعو كتب مجانين؛ فهم يفعلون كل شيء حتى يحصلوا على الكتب النادرة. وهذا ينطبق أيضًا على أبيلكون Apel-likon (ت. 87 ق.م.) الذي سأحكي قصته الآن. لقد حكم عليه بسبب سرقة الكتب، ورغم ذلك احتل مكانًا فخريًا في كتب التاريخ لإنقاذه مؤلفات أرسطوطاليس قبل الاندثار. ربما لم يكن للحضارة الأوربية المتأثرة بالعلم أن تقوم دون هذا الإنقاذ لعمل أرسطوطاليس.

كان أرسطوطاليس بالنسبة لمعاصريه مجرد فيلسوف بين كثيرين، وكان الفلاسفة يبدون على كل حال كمجموعة غريبة؛ فلم يُروا من قِبَل الكثيرين بوصفهم أبطالاً للفكر، وإنما أقرب إلى مجموعة من المجانين. وقد بدت نظريات أرسطوطاليس غير مجدية لأغلب أهل أثينا. يُضاف إلى ذلك أن أرسطوطاليس كان قد غادر أثينا في سنواته الأخيرة، وذلك لأنه كان مهددًا بتهمة التجديف. ولذا فليس من

الغريب أن فُقدت أعماله عمليًا بعد ما يقرب من أربعين سنة من وفاته. وكان قد ورثها في عام (287 ق.م.) شخص اسمه نيليوس، وكان آخر من عرف أرسطوطاليس شخصيًا. ولأنه شخصيًا لم يكن مثقفًا فقد باع جزءًا من الكتب لمكتبة الإسكندرية في مصر، ولكنها احترقت فيما بعد حينما استولى قيصر على المدينة. جزء آخر يضم بصفة خاصة ملاحظات محاضرات أرسطوطاليس أخذه نيليوس معه كتذكار حينما عاد من أثينا إلى مسقط رأسه سكيبسس (اليوم في الأناضول بتركيا).

في وقت ما توفي نيليوس وورث أولاده الكتب. ولأن الفلسفة لم تكن من بين اهتماماتهم فقد خزنوا لفائف البردي في أحد الأقبية واهتموا كالعادة في بقية أوقاتهم بأمور الفلاحة، ثم مات أولاد نيليوس وأولادهم وأحفادهم أيضًا. وأصيبت اللفائف التي في القبو بالرطوبة والبلل وبدأت في التعفن، وفي هذه اللحظة يدخل أبيلكون إلى مسرح الأحداث.

كان أبيلكون ينتمي إلى الطبقة العليا في أثينا، وكان غنيًا، وقد شغل بين ما شغل وظيفة رئيس مصلحة صك العملة. وكان حبه مقصورًا على جمع لفائف الكتب القديمة، وحتى يحصل عليها لم يكن يوجد سعر يعد عاليًا بالنسبة له. أما ما لا يباع فكان يحاول سرقته، على سبيل المثال أصول قرارات الشعب القديمة التي سرقت من أرشيف الدولة في أثينا، وهي جريمة ما إن اكتشفت حتى تسببت في الحكم عليه ونفيه لوقت طويل. ولكن لم يكن لسوء طالعه هذا أن ينقذه من إدمانه الكتب. بطريقة ما وصل إلى سمعه أنه توجد على الجانب الآخر للبحر، في آسيا الصغرى (اليوم تركيا) بعض لفائف الكتب القديمة. وتحكي المصادر أنه سافر في عام (100 ق.م.) إلى مدينة سكيبسس ووجد المخطوطات في القبو الذي وضعت فيه من قبل ورثة نيليوس. وكانت المخطوطات قد تضررت بشدة نتيجة للرطوبة والحشرات القارضة، ولكنها كانت ما زالت ممكنة القراءة بالكامل. وقد اشتراها أبيلكون وأحضرها إلى أثينا، وهناك دفع لمن ينسخها،

ولكنه لم يتمكن من الفرح بكنزه، وذلك لأن أثينا حوصرت وأخذت بعد عدة سنوات (87 ق.م.) من قبل القائد الروماني سلا Sulla (138-78 ق.م.). وينبغي أن يكون أبيلكون قد قتل إبان المذبحة التي وقعت آنذاك.

أما سلا الذي نهب المدينة فقد استحسن مكتبة أبيلكون وأخذها معه كغنيمة إلى روما, وهناك وصلت المخطوطات إلى يد خبيرة؛ حيث تم تأمينها وترتيبها ونسخها ونشرها من قبل عبد يوناني مثقف يدعى أندرونيكوس Andronikos (تقريبًا في الفترة ما بين 50-70 ق.م.) وبذا تم تأمين الرواية التالية للنصوص.

كانت هذه النصوص عبارة عن مجموعة ضخمة تزيد عن مئة كتاب (106 كتاب)، كان بعضها، تبعًا لطريقة العصور العتيقة في العد، يتكون من عشرين صفحة مطبوعة فقط. كانت النصوص مكتوبة على لفائف البردي التي كان طولها في المتوسط من ستة إلى ثمانية أمتار وعرضها ثلاثين سنتيمترًا. وهذه النصوص تمثل قرابة عشرين في المئة من الأعمال التي يقدر أن أرسطوطاليس قد كتبها. وكان من بين الكتب التي أنقذت كتابه "الطوبيقا" (أي الجدل) الذي يمثل مدخلاً للتفلسف، وقد تحدثت عنه في مطلع هذا الكتاب. أما بقية الكتب التي يبدو أن أرسطوطاليس قد كتبها فلا نعرف عنها شيئًا إلا من خلال قوائم كتب العصور القديمة؛ فهذه الكتب مفقودة بالنسبة لنا.

المراجع

حـول التجميـع بوصفـه هـذا توجـد القليـل مـن المراجـع، ولكـن يمكنك المقارنـة مـع القوائـم والفهـارس التـي لا نهايـة لهـا، والتـي سُـجِّل فيهـا مـا يمكـن للمـرء أن يجمعـه. إحـدى الدراسـات القليلـة حـول هـذا الموضـوع كتبهـا نوربـرت هينسـكا Hinske، وهـي موجـودة في كتـاب "التجربـة الحياتيـة والفلسـفة" (شـتوتجارت/ بـاد كانشـتات 1986). يوجـد نـص جميـل لنيـكلاس لومـان عـن منهـج صنـدوق البطاقـات، وقـد طبـع مـرة أخـرى في الكتـاب الـذي حـرره أندريـه كيسرلينـج Kieserling "نيـكلاس لومـان الجامعـة كمجـال" (بيلفيلـد 1992). وقـد حفظـت صناديـق بطاقـات لومـان في مركـز الأبحـاث البينيـة (ZIF) في جامعـة بيلفيلـد وهـي الآن موضـع نـزاع قانـوني بـين الجامعـة وأبنـاء لومـان. يمكـن للمـرء رؤيـة سـتوديو الرسـم الخـاص بفرانسـيس بيكـون عـبر الإنترنـت تحـت عنـوان (www.hughlane.ie)، وهنـاك يجـد المرء كذلـك معلومـات دقيقـة حـول انتشـال هـذا الطـراز الفريـد. حتـى عندمـا أصبـح بيكـون منـذ فـترة رسـامًا ناجحًـا تُبـاع أعمالـه بمبالـغ طائلـة في سـوق الأعـمال الفنيـة؛ فإنـه لم يفـارق مجالـه المألـوف، ويشـبه في هـذا لومـان الـذي بقـى، رغـم الدعـوات الكثـيرة، مخلصًـا لجامعـة بيلفيلـد ولمنزلـه الخـاص في مدينـة أورلنجهـاوزن، ربمـا لأنـه لم يكـن يأمـن نقـل صناديـق بطاقاتـه لا في الطائـرة ولا في السـفن أو القطـارات. توجـد معلومـات حـول تاريـخ صنـدوق البطاقـات في كتـاب ماركـوس كرايفسـكي Krajewski "تدبـير البطاقـات: مولـد الفهـارس مـن روح المكتبـة" (برلـين 2002).

Aristoteles



10. منطق

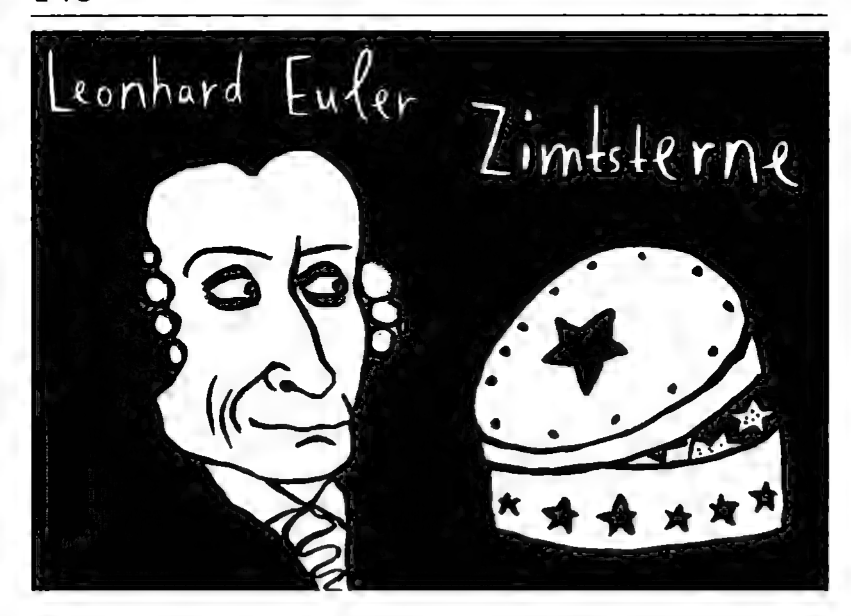
"هـذا منطقـي!" جملـة يسـمعها المـرء دائمًـا إذا مـا أراد أحدهـم أن يقنـع آخـر بـشيء يبـدو تبعًـا لرأيـه واضحًـا. حيـث يدخـل المنطـق إلى اللعـب، فـإن الآخـر ليسـت لديـه إمكانيـات أخـرى للهـرب. لا بـد لـه أن يوافـق. إلى هنـا يبـدو الأمـر جميـل جـدًا، هـذا الـذي يبـاع في الأحاديـث اليوميـة بوصفـه "منطقًـا" ليـس مـن النـادر أن يكـون مـن الناحيـة الموضوعيـة خطـأً، بـل وأكـثر مـن هـذا غـير منطقـي. للتدليـل عـلى هـذا يحتـاج المـرء بالطبـع لبعـض المعرفـة.

يرجـع منطقنـا لليونانيـين القدامـى؛ فالكلمـة مشـتقة مـن الكلمـة اليونانيـة "لوجـوس"، والتـي تعنـي تقريبًـا مقولـة عقلانيـة. لفـترة طويلـة كان الاعتقـاد أن أرسـطوطاليس هـو مؤسـس المنطـق، ولكننـا نعـرف اليـوم بشـكل أفضـل أن مفكريـن آخريـن مـن العصـور العتيقـة، عـلى سـبيل المثـال الرواقيـون Stoiker، ألفـوا أعـمالاً خاصـة في المنطـق. ولكـن هـذا لا يقلـل بأيـة طريقـة مـن جهـود أرسـطوطاليس؛ فقـد طـور في كتابـه "الأنالوطيقـا الأولى" Erste Analytik أي "القيـاس الأوليّ" نظامًـا للاسـتنتاجات المنطقيـة ظـل ولمـدة ألفـي عـام بمثابـة الأسـاس الـذي لم يبـزه أحـد للبرهنـة العلميـة، ولا يـكاد يوجـد جهـد فكـري آخـر تمتـع بمثـل هـذا التقديـر لهـذه الفـترة الطويلـة.

في القرن العشرين فقط حدثت تطورات جديدة في مجال المنطق؛ حيث طورت نظم جديدة حتى وصلنا إلى ما يسمى بالمنطقيات غير الكلاسيكية التي لم تعد تعترف ببعض القوانين المنطقية التي كانت موضع تقدير منذ القدم. وبالإضافة إلى ذلك بدأ نوع من تصاعد سيطرة العلوم الرياضية على المنطق. وتمثل النظم الجديدة، شديدة التعقيد، أسسًا لاستخدامات تقنية متنوعة، بصفة خاصة في مجال صناعة البرمجيات.

وتعد النظم الجديدة بالنسبة للمناقشات الفلسفية قليلة الأهمية، على خلاف الوضع بالنسبة للتخصصات. تكاد تكون بعض عناصر المنطق الكلاسيكي كافية للمرء بشكل دائم. وأنا سألتزم فيما يلي بمنطق أرسطوطاليس، لأن الأفضل أن يقدم منذ البداية بشكل منظم؛ فهكذا فقط يحصل المرء على نظرة شاملة، ومن ثم يمكن للأسئلة أن توضح تركيبه الصوري.

عالم الرياضيات ليونارد أويله (1707-1783) طور في القرن الثامن عشر منهجًا مفيدًا لشرح البنيات المنطقية بواسطة الرسوم. فقد شرح في كتابه "خطابات إلى أميرة ألمانية" (انظر مراجع الفصل الرابع) مبادئ منطق أرسطوطاليس بطريقة لا تضارع في وضوحها؛ حيث رسم دوائر لتصوير الاستنتاجات المنطقية. فما يبرهن عليه المنطقيون ببذل جهد كبير يحول هنا إلى صورة؛ حيث يصبح مباشرة معقولاً وواضحًا. وهذا يعد بمثابة تسهيل جوهري، وهو ما سآخذ به فيما بعد. فما هو الموضوع؟ المنطق الأرسطي يهتم بالسؤال عن الكيفية التي يستطيع بها المرء أن يصل من خلال المقولات المعطاة إلى مقولة جديدة، ويكون هذا إذا ما كانت المقولة الجديدة متضمنة "بالتأكيد" في المقولات المعطاة.



تحت كلمة مقولة يفهم المرء جملة يعطى فيها ما يسمى بالمبتدأ شيئًا ما أو يمنع عنه. عادةً، فإن المبتدأ والخبر مصطلحات تنسحب بخلاف الأسماء الخاصة ليس فقط على أشياء مفردة، وإنما تجمع أشياء عدة تحت اسم شامل. ربما لا يكون من الخطأ أن أشير إلى أن بعض المقولات لا تندرج تحت هذا النموذج، خاصة المقولات التي تتصل أو تنسحب على الأحداث. هكذا تلعب - على سبيل المثال - كلمة "إنها" في مقولة مثل "إنها تمطر ثلجًا" فقط دورًا ما يبدو وكأنه المبتدأ أو الفاعل. فالمنطق الأرسطي يضع ضمن مبادئه نوعًا من التيسير أو التسهيل، ورغم هذا فإن الأمر ليس نوعًا من التسهيل الاعتباطي الهوائي، وإنما هو متضمن في قواعد اللغات الأوروبية.

فالمقولة إذن تؤكد شيئًا أو تنفيه. ففي المقولة التالية: "كل بسكويت القرفة كعك" لدينا على سبيل المثال مفهومان: "بسكويت القرفة" و"كعك". كلا المفهومين يرتبطان من خلال المقولة في علاقة ما، هي على وجه الدقة: أن مفهوم "بسكويت القرفة" هو ما يسمى مبتدأ تم توضيحه وتحديده من خلال الخبر "كعك".

أما مقولة: "لا يوجد بسكويت القرفة يحفظ للأبد" فهي مقولة سالبة أو نافية. وهنا أيضًا تم توضيح المبتدأ وتقريبه بسلب أو نفي الخبر عنه. كلتا المقولتين كلية، فهما تقولان شيئًا عن "كل" بسكويت قرفة. وإلى جانب المقولات الكلية توجد مقولات جزئية. وهنا أيضًا يوجد مرة أخرى إيجاب وسلب: على سبيل المثال المقولتان التاليتان: "بعض الناس تحب الكعك" أو "بعضهم لا يحب الحلوى". هنا لا توجد مقولة كلية تشمل الكل ولكن بعض الناس فقط. في اللغة اليومية تعني كلمة بعض على الأقل اثنين، وفي المنطق يجري تضييقها حتى تعني "واحد على الأقل".

ومن هنا يفرق المرء في المنطق بين أربعة أنواع من المقولات هي:

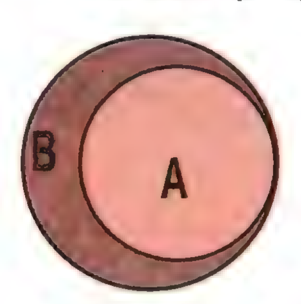
1. كل (A) يكون (B) مقولة كلية موجبة.
2. كل (A) ليس (B) مقولة كلية سالبة.
3. بعض (A) يكون (B) مقولة جزئية موجبة.
4. بعض (A) ليس (B) مقولة جزئية سالبة.

كل هذه المقولات تشمل مصطلحين هما (A) و(B) يسميان حديّ المقولة. المصطلح الأول - كما سبقت الإشارة - هو الموضوع/المبتدأ، أي الذي يثبت له شيء أو ينفى عنه. والمصطلح الثاني هو المحمول/الخبر أي الذي يتم إثباته أو نفيه.

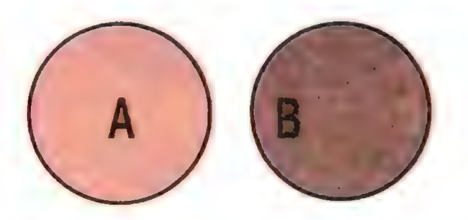
وفي جملة "الكعك حلو" فإن "كعك" هي المبتدأ و"حلو" هي الخبر. ويمكن للمرء أن يشرح المقولات الأربع بواسطة دوائر بسيطة، وذلك حتى يجعل معناها واضحًا. ولأن مصطلح مثل كعك يشمل عددًا من الأشياء المفردة يمكن للمرء أن يتصوره مثل حيز يمكن أن تجمع داخلها كل أنواع الكعك المفردة. ويمكن للمرء رسم دائرة، ويقول إن في داخلها يوجد كل أنواع الكعك، كما لو أنها علبة كعك عملاقة (يتحدث بعض المناطقة في مثل هذه الحالة عن "عالم الكعك").



بالنسبة لمصطلح "حلو" يمكن للمرء أن يتقدم بطريقة مشابهة - كل ما هو حلو يوجد داخل دائرة ثانية سواء أكان كعكًا أم سكر مربعات أم "بونبوني- الكرنفال". إذا ما قال المرء "كل الكعك حلو" فيمكنه أن يتصور أن أول دائرة توجد داخل الدائرة الثانية؛ ففي علبة كل ما هو حلو (B) توجد علبة الكعك (A).

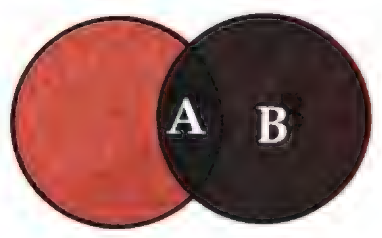


دائرة (A) تشمل هنا المبتدأ، بينما دائرة (B) تشمل الخبر. بالنسبة للمقولة الكلية السالبة (كل (A) ليس (B)، على سبيل المثال "لا يوجد كعك خال من السعرات الحرارية") فيمكن رسمها كما يلي:

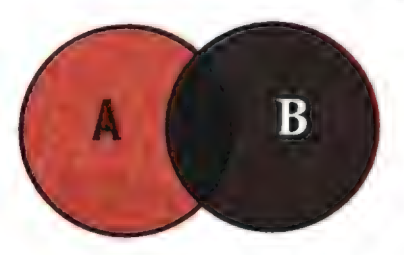


وكما يمكن أن يقال فإن علبة الكعك هنا منفصلة عن علبة الأشياء ذات السعرات الحرارية؛ فلا يوجد عنصر من أحد المجالات في مجال آخر والعكس صحيح، وهذا ما ترينا إياه الدوائر المنفصلة.

بالنسبة للمقولة الجزئية الموجبة (بعض (A) يكون (B)، على سبيل المثال "بعض الكعك الجديد يحتوي على البندق") فسينتج عنها ما يلي:



بالنسبة للمقولة الجزئية السالبة (بعض (A) ليس (B)، على سبيل المثال "بعض الكعك الجديد لا يحتوي على الشيكولاته") يجب على المرء أن يرسمها هكذا:

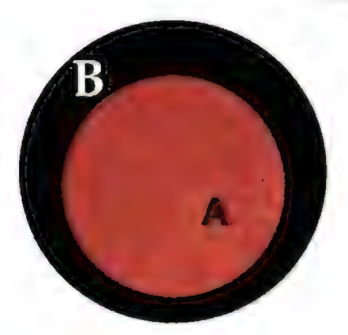


وهنا نظرة شاملة توضح كيف يمكن للعلب المختلفة أن تتصل ببعضها البعض:

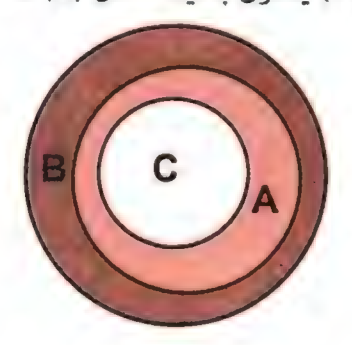
(1) مقولة كلية موجبة: كل (A) يكون (B)	(2) مقولة كلية سالبة: كل (A) ليس (B)
(3) مقولة جزئية موجبة: بعض (A) يكون (B)	(4) مقولة جزئية سالبة: بعض (A) ليس (B)

بالنسبة للمقولات الجزئية فإن موقع الحروف ليس هوائيًا؛ فوضع الحرف يدلل على المكان الذي "يضمن" وجود عنصر ما. هكذا يمكن للمرء أن يوضح كل المقولات عن طريق الشكل. الميزة الكبرى لمنهج الدوائر هو أن الإنسان يمكنه التفريق بواسطة الدوائر بين النتائج المنطقية الصحيحة من غير الصحيحة.

لنأخذ على سبيل المثال مقولة "كل (A) يكون (B)" التي يمكن للمرء أن يصورها هكذا:



ولكن ماذا يحدث إذا ما ظهر إلى جانب ذلك مصطلح ثالث هو (C)؟ قد يحدث أن (C) يُحتوى بكليته داخل (A) هكذا:

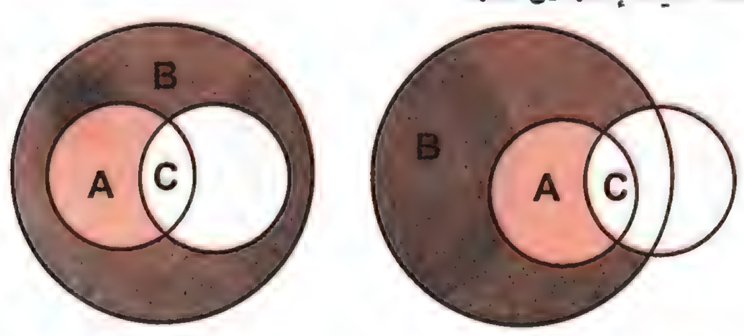


ومن هنا ينتج الشكل التالي للقياس المنطقي Syllogismus (نتيجة منطقية صورية)، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية syllogistai، بمعنى الجمع):

كل (A) تكون (B).
كل (C) تكون (A).
إذن فإن كل (C) تكون (B).

فآخر جملة هي النتيجة النهائية. الحرف (A) الذي يظهر في المعطيات أو مقدمات القياس يسمى بمصطلح الربط، وذلك لأنه يربط كلتا الجملتين معًا، ومن ثم فهو لا يظهر في النتيجة النهائية.

وإذا وجد جزء من (C) في (A) فإن هذا الجزء يوجد داخل (B)، وهنا لدينا إحتمالان هما.



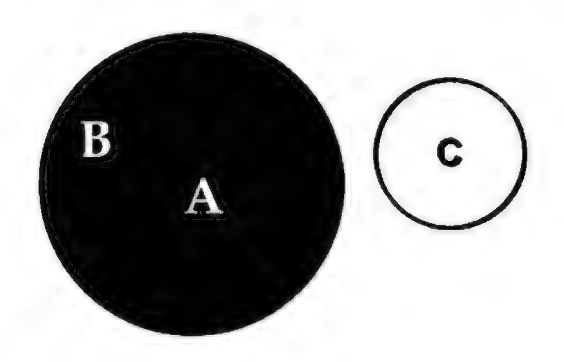
وعن هذا تنتج نتيجة ثانية صحيحة هي:

كل (A) تكون (B).

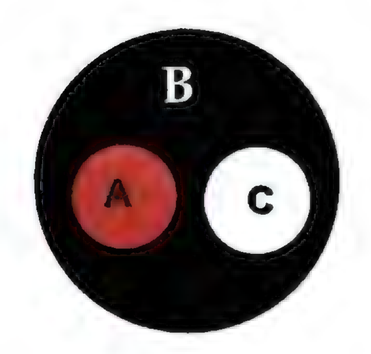
بعض (C) تكون (A).

إذن فإن بعض (C) تكون (B).

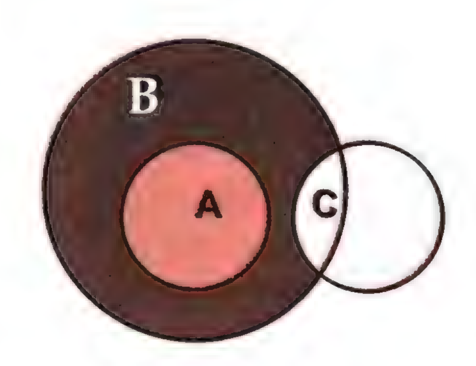
لدينا هنا قياس منطقي للمرة الثانية، ولكن كيف يكون الحال إذا ما وجدت (C) خارج (A) بالكامل، أي إذا ما كانت الجملة الثانية تقول: لا توجد (C) تكون (A)؟ هنا توجد ثلاث إمكانيات هي:



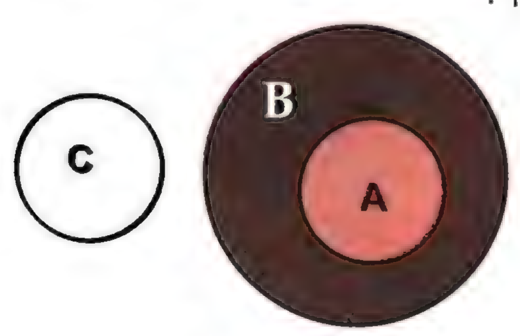
أو:



أو هكذا:



فكل هذا ممكن، ولكن ماذا ينتج عن هذا في النهاية؟ ينتج عن هذا أنه - فيما يتعلق بـ (B) "لا يمكن على الإطلاق" استنتاج أية نتيجة، وذلك لأنه لا توجد نتيجة "ضرورية"، ولا يوجد ما يمكن أن يقال "بكل تأكيد". فحيث لا ينتج شيء بطريقة مقنعة لا يمكن للمرء أن يستنتج شيئًا، وهذا في الواقع هو الوضع الطبيعي. وإذا ما قام المرء باطراد صارم بعمل توافيق وتباديل من أنواع المقولات الأربع فلا ينتج أقل من 256 إمكانية تشبه الغالبية العظمى منها حالة التوافيق والتباديل الأخيرة؛ مما يعنى أنه لا يمكن للمرء أن يستنتج منها شيء حاسمًا. وسوف أركز فيما يلي فقط على التوافيق والتباديل التي ينتج عنها فعلاً شيئًا ما. إذن فلنواصل التأملات! إذا كان لا توجد (C) تكون (B)، وإذا ما كان كل (A) تكون (B) فيمكن للمرء أن يستنتج شيئًا كما ١٠ ٠

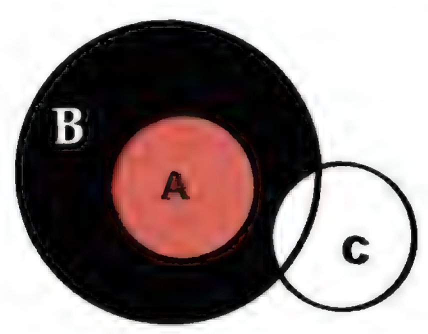


كل (A) تكون (B).

لا توجد (C) تكون (B).

إذن لا توجد (C) تكون (A).

إذا كان مصطلـح (C) جزئيًـا خـارج مصطلـح (B) فـإن هـذا الجـزء يكـون أيضًـا خـارج مصطلـح (A)، وذلـك لأن (A) موجـود بكاملـه داخـل (B):



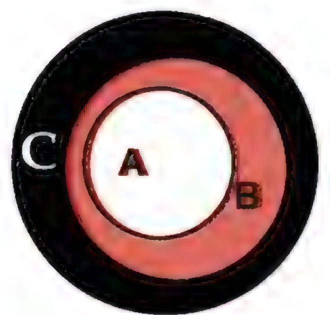
وعن هذا ينتج ما يلي:

كل (A) تكون (B).

بعض (C) ليس (B).

إذن بعض (C) ليس (A).

أخـيرًا إذا كانـت (C) تحـوي في داخلهـا بالكامـل (B) فـإن بعـض (C) تكـون أيضًـا (A):



كل (A) تكون (B).

كل (B) تكون (C).

إذن بعض (C) يكون (A).

لا توجد أشكال صحيحة أخرى، هذا إذا كان المرء ينطلق من مقدمة قياسية كلية موجبة، ويمكن للمرء أن يتأمل بالطريقة نفسها كيف يكون الأمر إذا بدأ بمقدمة كلية سالبة أو بمقدمة جزئية موجبة أو أخيراً بمقدمة جزئية سالبة، وحتى أختصر عليكم الطريق سوف أكتب هنا النتائج فقط:

1. كل (A) تكون (B)
كل (C) يكون (A)
إذن كل (C) يكون (B)

2. كل (A) تكون (B)
بعض (C) يكون (A)
إذن بعض (C) يكون (B)

3. كل (A) تكون (B)
لا توجد (C) تكون (B)
إذن لا توجد (C) تكون (A)

4. كل (A) تكون (B)
لا توجد (B) تكون (C)
إذن لا توجد (C) تكون (A)

5. كل (A) تكون (B)
بعض (C) ليس (B)
إذن بعض (C) ليس (A)

6. كل (A) تكون (B)
كل (B) تكون (C)
إذن بعض (C) تكون (A)

7. لا توجد (A) تكون (B)
كل (C) تكون (A)
إذن لا توجد (C) تكون (B)

8. لا توجد (A) تكون (B)
كل (C) تكون (B)
إذن لا توجد (C) تكون (A)

9. لا توجد (A) تكون (B)
بعض (C) تكون (A)
إذن بعض (C) لا تكون (B)

10. لا توجد (A) تكون (B)
بعض (A) تكون (C)
بعض (C) ليست (B)

11. لا توجد (A) تكون (B)
بعض (C) تكون (B)
إذن بعض (C) لا تكون (A)

12. لا توجد (A) تكون (B)
بعض (B) تكون (C)
إذن بعض (C) لا تكون (A)

13. بعض (A) تكون (B)
كل (A) يكون (C)
إذن بعض (C) يكون (B)

14. بعض (A) تكون (B)
كل (B) يكون (C)
إذن بعض (C) يكون (A)

15. بعض (A) لا تكون (B)
كل (A) يكون (C)
إذن بعض (C) لا يكون (B)

16. بعض (A) لا تكون (B)
كل (C) تكون (B)
إذن بعض (A) لا تكون (C)

17. كل (A) تكون (B)
بعض (A) يكون (C)
إذن بعض (C) يكون (B)

18. لا توجد (A) تكون (B)
كل (A) تكون (C)
إذن بعض (C) لا يكون (B)

19. لا توجد (A) تكون (B)
كل (B) يكون (C)
إذن بعض (C) لا يكون (A)

20. كل (A) تكون (B)
كل (A) يكون (C)
إذن بعض (C) يكون (B)

وإلى جانب ذلك ينبغي ملاحظة أن الشكل السادس عشر هو الشكل الخامس عشر نفسه؛ فكل منها يتحول للآخر إذا ما استبدل (C) بـ(A) أو (A) بـ(C) وبدأ بالمقولة الثانية. وهكذا يبقى تسعة عشر شكلاً متنوعًا. ويمكن للمرء أن يراجع ذلك لدى الحاجة، ولكن ماذا يحدث إذا ما سئل المرء من قبل أحد المهتمين عن ماهية القياس المنطقي لأرسطوطاليس؟ هنا يمكن للمرء أن يجيب: "إن القياس المنطقي لأرسطوطاليس يهتم بأربعة أنواع من المقولات هي المقولة الكلية الموجبة، والمقولة الكلية السالبة، والمقولة الجزئية الموجبة، والمقولة الجزئية السالبة. وفيما بين هذه المقولات توجد 256 من التراكيب المتنوعة الممكنة. ولا بد أن يبحث فيما بينها عن تلك التي تحوي نتائج منطقية، وهي تلك التي تكون صحيحة "دائمًا"، ولا يمكن معها عمل مثال معارض. أما متى يكون هذا فيمكن للمرء رؤيته إذا ما قام برسم النتائج في دوائر!".

إذا كانت هذه الإجابة بالنسبة للسائل معقدة؛ فإنه يمكن للمرء أن يعطي بعض القواعد التي يمكن بمساعدتها أن يحكم بسرعة متى يمكن للمرء أن يستنبط النتائج ومتى لا يمكنه ذلك:

1. لا يمكن للمرء أن يصل لنتيجة من خلال مقدمتين سالبتين. وماذا يمكن للمرء أن يعرفه إذا ما قلنا إن الغاليين ليسوا روميين، وإن السلتيين لم يكونوا كذلك أيضًا؟ أكان الغاليون سلتيين إذن أم ماذا؟ فهذا ما لا يمكن تقريره من خلال هذه المعلومات.

2. لا يمكن للمرء أن يصل إلى نتيجة من خلال مقدمتين جزئيتين. فإذا ما قيل إن بعض الكلاب ضالة وإن بعضها موبوءة بالبراغيث؛ فهل يمكن لي أن أستنتج من هاتين المعلومتين نتيجة يطمئن إليها؟ بالطبع "يمكن" أن تكون الكلاب الضالة موبوءة بالبراغيث، ولكن النتيجة ليست حاسمة.

والآن ما زالت توجد ثلاث قواعد ليست واضحة بطريقة مباشرة، ولكنها ما زالت سارية:

3. إذا كانت إحدى مقدمات القياس سالبة فيجب أن تكون نتيجة القياس سالبة أيضًا.
4. إذا كانت إحدى مقدمات القياس جزئية فيجب أن تكون نتيجة القياس جزئية أيضًا.
5. إذا كانت كلتا المقدمتين موجبتين فإن النتيجة تكون موجبة أيضًا، ولكن أحذر: حتى وإن كانت كلتا المقدمتين كليتين فهذا لا يعني أن النتيجة كلية أيضًا.

يوجد سؤال آخر مهم يتصل بأسماء الأعلام. حتى الآن قمنا بتكوين نتائجنا من مسميات تنسحب منذ البداية على أشياء عدة، على سبيل المثال "الكعك" و"بسكويت القرفة" إلى آخره. بكلمات أخرى: كان كل من المبتدأ والخبر مجرد مصطلحين في مقولاتنا.

ماذا يحدث إذن إذا ما اهتممنا في مقولاتنا بالأشياء المفردة؟ كيف يكون الأمر إذا قلنا:

هذه الكعكة التي أعطيتها لك بسكويتة قرفة.

في البداية يبدو كما لو أن الأمر يتعلق بمقولة جزئية. أخيرًا يقتصر الأمر على كعكة محددة. إذا ما تحدث الأمر عن شيء واحد فقط فإنه يتحدث عن أقل من عدة أشياء - ألا يجب أن نفهم المقولة إذن بوصفها جزئية "جدًا"؟ حتى وإن بدت هذه الفكرة مقنعة منذ اللحظة الأولى فإنها بالتأكيد خاطئة، وذلك لأن هذه الكعكة التي أعطيتها لك تبدو قليلة، إلا أنها ترمز "لكل" الكعك الذي يدور حوله الحديث الآن.

حقيقة لأن مقولة مفردة تنسحب فقط على شيء مفرد تعامل مثل مقولة كلية. هذه القاعدة تمكن من تطبيق كل القياسات المنطقية للمقولات الكلية على المقولات المفردة، وهذا ما يرفع من الفائدة العملية للمنطق.

منطق المقولات

يهتم القياس المنطقي الأرسطي فقط بالمقولات التي تحتوي بالضبط على مصطلحين فقط، ولكن غالبًا ما يتعامل المرء مع مقولات معقدة، وهنا إذا ما أراد المرء أن يصل للنتائج فإنه يحتاج لقواعد أخرى.

من بين المقولات التركيبية تستخدم المقولات الشرطية خاصة بكثرة. وهذه يمكننا بحثها كمثال لحالات أو مواقف منطقية خبرية أخرى. تحتوي الجمل الشرطية على نوعين من المقولات إذا صحت إحداها صحت الأخرى كذلك. ولنلاحظ الجملة التالية كمثال:

إذا كان كل ما يقوله المستشار حقيقة؛ فإن الازدهار ليس ببعيد.

مثل هذه الجملة المترابطة برابط شرطي (إذا - فإن) أكبر من أن تعالج بأدوات القياس المنطقي الأرسطي. هنا يحتاج الأمر لقواعد جديدة. كيف يمكن للمرء أن يصل للنتائج داخل هذه الجملة؟ تتمثل إحدى الإمكانيات الصحيحة في أن يقنعنا أحد بأن كل ما يقوله المستشار حقيقة. هنا فقط يجب على المرء أن يستنتج بالضرورة أن الازدهار ليس ببعيد. توجد إمكانية أخرى يمكن إثباتها تتمثل في أن الازدهار ليس بقريب، ومن ثم يتبع هذا أن المستشار، في كل ما يعد به بشكل يومي، لا يقول الحقيقة. وهذا ما يمكن توضيحه كما يلي:

الشكل الأول:

إذا كانت (A) هي (B) فإن (C) هي (D) أيضًا.
الآن فإن (A) هي (B) فعلاً.
إذن فإن (C) هي (D) أيضًا.

الشكل الثاني:

إذا كانت (A) هي (B) فإن (C) هي (D).
والآن فإنه ليس صحيحًا أن (C) هي (D).
إذن فإن (A) ليست هي (B) أيضًا.

وخلاف هذا لا توجد إمكانية أخرى لاستنباط نتيجة أخرى صحيحة. أما النتيجة الخاطئة بصفة خاصة فتتمثل في الشكلين التاليين واسعي الانتشار:

النتيجة الخاطئة الأولى:

إذا كانت (A) هي (B) فإن (C) هي (D).

الآن فإن (C) هي (D).

إذن فإن (A) هي (B) أيضًا.

النتيجة الخاطئة الثانية:

إذا كانت (A) هي (B) فإن (C) هي (D).

والآن ليس صحيحًا أن (A) هي (B).

إذن فليس من الصحيح أيضًا أن (C) هي (D).

وحتى نظل في نطاق المثل السابق فإنه من الخطأ الاستنتاج من كون المستشار لا يقول الحقيقة دائمًا أن الازدهار غير قادم، وكذلك فإنه من الخطأ أيضًا الاستنتاج من حقيقة أن الازدهار قادم حقًا أن المستشار يقول الحقيقة دائمًا. لا تزال توجد أيضًا إمكانيات كثيرة لربط المقولات، وإمكانيات أكثر من هذا أيضًا للتوصل من خلال هذه التربيطات لاستنتاجات خاطئة.

استنتاجات خاطئة

تتميز خصوصية نتيجة منطقية ما في أنه إذا كانت المقدمات القياسية حقيقية فإنها تقود أيضًا لاستنباط حقيقي. فالحقيقة - كما يمكن أن يقال - لن تذهب سدى، وهذا مهم بالنسبة لكل من يقيمون الحقيقة، ويشبه هذا ما يريده مدير أعمال إبان معاملاته المالية: أن يبقى رأسماله على الأقل كما هو.

ورغم ذلك فإن المنطق ليس هو الطريق المناسب لاكتشاف حقائق جديدة، وذلك لأنه حتى إن استنبط "مقولات جديدة" من القديمة؛ فإن مضمون هذه "المقولات الجديدة" لا يتجاوز محتوى المقدمات القياسية المعطاة. أما الدرس الذي تريد الدراسات المنطقية أن توصله فيتمثل عمقه في أنه يرينا العلاقات بين المقولات. ولهذا السبب يتعاطى المرء التحليل المنطقي خاصة في العلوم الصورية أو النظرية مثل الرياضيات أو الهندسة. في النقاشات والمجادلات العلمية فإنه من المهم جدًا على عكس ما سبق القيام "بالكشف عن النتائج الخاطئة".

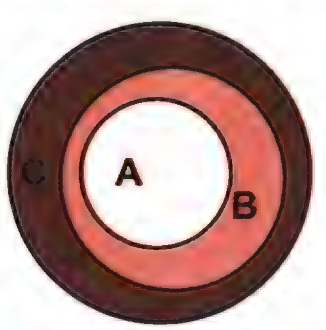
لنتأمل على سبيل المثال الفكرة التالية:

كل الإرهابيين متطرفون.

كل المتطرفين راديكاليون.

إذن فإن كل الراديكاليين إرهابيون.

كيف يمكن الحكم على هذه النتيجة؟ وهنا أيضًا قد يفيد تصوير الموضوع:



يمكـن للمـرء في ضـوء المثـال أن يعـرف بيـسر أن النتيجـة الصحيحـة هـي (النتيجـة رقـم 20):

كل الإرهابيين متطرفون.

كل المتطرفين راديكاليون.

إذن فإن بعض الراديكاليين إرهابيون.

كـون النتيجـة أعـلاه خاطئـة فهـذا مـا يمكـن للمـرء أن يتعـرف عليـه مـن خـلال أسـلوب آخـر، وهـو أن ينجـز مثـالاً معارضًـا مـن خـلال المقـولات الأخـرى. وفي حالتنـا هـذه يكـون النمـوذج النقيـض عـلى سـبيل المثـال كـما يـلي:

كل رجال الكريسماس يحبون الأطفال.

كل من يحبون الأطفال أناس لطفاء.

إذن فإن كل الناس اللطفاء رجال كريسماس.

تـرد الاسـتنتاجات الخاطئـة في الكثـير مـن المناقشـات، وكثـيراً مـا يكـون بينهـا تشـابهات، كأن تـؤدي إلى مقولـة عامـة؛ حيـث لا يسـمح إلا بمقولـة جزئيـة. في الواقـع فإنـه يوجـد تحـت التسـعة عـشر قيـاس منطقـي واحـد فقـط يسـمح بـأن يسـتنتج عـلى أسـاس مـن جملـه مقولـة كليـة موجبـة، وهـو الاسـتنتاج رقـم واحـد. وهـذا بالطبـع مـكان ضيـق، ورغـم ذلـك يحـاول كثـيرون أيضًـا بطريقـة أخـرى أن يتعسـفوا في اسـتنتاج مقولـة عامـة. ومثـال الإرهابيـين هـو فقـط مثـال مفـرد مـن كثـير، وهنـا مثـال آخـر:

كل المخادعين يجب أن يكونوا خلف القضبان.

بعض السياسيين مخادعون.

إذن فكل السياسيين يجب أن يكونوا خلف القضبان.

استنتاجات سريعة

نادرًا ما يصادف المرء في المناقشات اليومية استنتاجات من النوع الذي عرض قبل قليل، وبدلاً منها يلتقي - بشكل شبه دائم - بالاستنتاجات غير الكاملة، التي يترك فيها بهدوء إحدى المقدمات المنطقية. فالكثير من الناس يستنتجون بأن يشيروا إلى حقيقة مقبولة ويقومون بناء على ذلك باستنباط النتيجة. ورغم ذلك فإن هذا يشير منطقيًا إلى أن المرء لديه مقدمات عامة ما في ذهنه، وذلك أنه عن الحقيقة العارية لا يستنبط منها شيئًا جديدًا. المقدمات العامة يمكن للسامع أن يعيدها أو يتخيلها بل وينقدها إذا كان هذا ضروريًا، وهنا مثال من الحياة اليومية:

السيدة ماير: لا تتشاجر معه؛ لأن لديه معرفة.

السيد ماير: هل ينبغي علي أن أتشاجر فقط مع من ليس لديهم معرفة؟

فالنتيجة تكشف المقدمة المنطقية المتخفية خلف النصيحة، وهي نتيجة تدمر البرهان. يمكن للمرء أن يفعل مثل هذا كثيرًا إذا كان للمرء عمل أو صلة بالاستنتاجات السريعة؛ ففي صراع الكلمات تخفى أحيانًا المقدمة الإشكالية.

الكثير من الاستنتاجات السريعة جيدة وغير مخادعة، وإنما توفر على السامع أو القارئ الملل الذي ينتج إذا ما عمل المرء بصعوبة خلال فوضى الأمور المقررة. وقد استخدم أرسطوطاليس لأجل ذلك أيضًا الكثير من الاستنتاجات السريعة التي يسميها "أنتيميما". على سبيل المثال في حواره حول الملكية الذي لا يحذو حذو القياسات المنطقية المعقدة، وإنما يستغنى عن كل ما يعده أمرًا طبيعيًا. وهكذا يقف في كتابه "السياسة" بهذا البرهان خلف القول بأفضلية وضرورة التملك: "إذا ما تملك العدد الأكبر من الناس شيئًا معًا؛ فإنه لا يحصل إلا على أقل عناية. فالمرء يهتم أولاً بملكيته الخاصة، أما الاهتمام بالملكية العامة فعلى العكس من هذا قليل أو فقط بدرجة تتوافق مع الاستخدام الشخصي لهذه الملكية العامة". فاستنتاج أن الملكية الخاصة أفضل من تعميم الملكية ينتج عن أخذ المرء بالمقدمة المنطقية التي ترى أنه من المرغوب فيه أن تظل الأشياء موضع عناية واهتمام. فلأن هذه المقدمة المنطقية تبدو طبيعية فإنه من المشروع تركها أو حذفها.

ملحق صغير للمنطق عما يبدو كمنطق، وهو تسمية أطلقتها على الاستنتاجات التي لها وجه ما، ولكنها ليست صارمة مقارنة بالاستنتاجات السابقة، وهي تدور حول الاحتمالات التي يوجد بينها استنتاجات تبدو مقبولة، ويبدو أحد أهم النماذج بهذا الشكل:

(X) أكثر احتمالاً من (Y).

لكن (X) غير متحققة.

إذن فإن (Y) غير موجودة أيضًا.

إنه لا يستطيع ولو لمرة أن يسوى بيتزا مجمدة في الفرن!

فكيف يمكنه أن يصنع كعكة عيد الميلاد؟

فالفكرة التي تقف خلف هذا المثال تقول: إن من لا ينجز السهل سيفشل في إنجاز الصعب. وبالطبع فإن هذا ليس نتيجة أكيدة مطلقة، وهذا ما يجعل الأمر يفترق عن الاستنتاجات السابقة. وإذا ما تحرك المرء في داخل السياق نفسه فإن للنتيجة جوانب مفيدة.

والآن إلى استنتاج آخر يبدو منطقيًا، ويعد إلى حد ما عكسًا للسابق.

(X) غير محتملة مقارنة بـ(Y).

لكن (X) متحققة.

إذن فإن (Y) موجودة أيضًا.

مثال:

لقد درس الرياضيات!

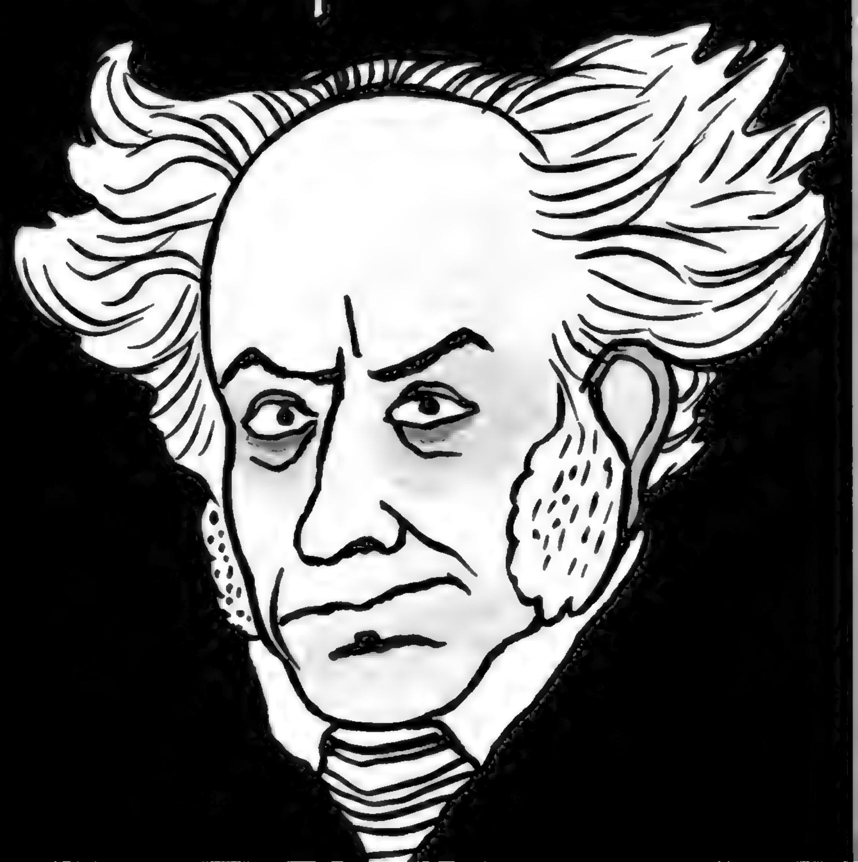
إذن يمكنه أن يدير خزينة جمعيتنا أيضًا.

هذا النموذج الاستنتاجي صحيح في الغالب، ولكنه يقود في بعض الأحيان إلى نتيجة خاطئة، فهو لا يسرى بصرامة، ويمكن استخدام الاستنتاجات شبه المنطقية فقط مع الوعي بأن إمكانياتها محدودة، وإلا فإنها ستصبح أرضًا خصبة للأحكام المسبقة.

المراجع

يجد المرء أفضل عرض للمنطق الأرسطي لدى ليونارد أويله (1707-1783) فى كتابه "خطابات إلى أميرة ألمانية". ويجد المرء الخطابات المنطقية أيضًا في الصفحة الإلكترونية (www.aristoteles-heute.de). وقد كتب أويله هذه الخطابات للأميرة فريدريكا شارلوته لودوفيجا لويزا (1745-1808). ويبدو أن منهجه في إيضاح العلاقات المنطقية بواسطة الدوائر قد استخدم من قبل أرسطوطاليس. وقد استخدمت دوائر أويله لمرات عدة، وجعل منها نظامًا على سبيل المثال من قِبل المنطقي لويس كارول Carrol في كتابه "لعبة المنطق" (شتوتجارت 1998). كذلك من المفيد جدًا الإطلاع على الملاحظات العملية في كتاب روبرت لاي Lay "التفكير المنطقي لرجال الأعمال" (دوسلدورف 2001). ويمكن التعرف على تاريخ المنطق من المقال المرجعي "المنطق" في المجلد السادس من "المعجم التاريخي للخطابة" (توبنجن 2001). وحول الموضوع نفسه راجع الكتاب الذي يضم النصوص الكلاسيكية لجوزيف م. بوخنسكي "المنطق الصوري" (ميونخ 1956). وقد جمعت الاستنتاجات المنطقية الخاطئة وتمت مناقشتها على صفحة الويب (الإنجليزية): (http://gncurtis.home.texas.net).

Arthur Schopenhauer



11. التدمير المنظم

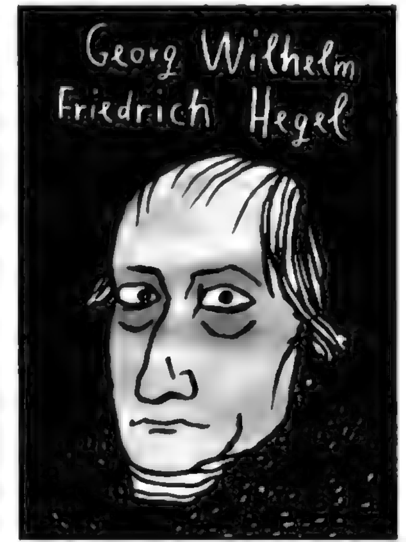
في الفلسـفة، مثلهـا في ذلـك مثـل مجـالات أخـرى، كثـيراً مـا تشـن الهجـمات الشـخصية والمضايقـات المدمـرة. وقـد سـقط الكثـير مـن الفلاسـفة في أثينـا كضحيـة فطـوردوا أو نفـوا أو تـم إعدامهـم بسـبب الاتهـام بالتجديـف مـن قبـل زمـلاء مـن أصحـاب الآراء المعاديـة.

يبـدو هـذا كلـه وكأنـه غـير موضوعـي، ولكـن مـن قـال إن الأمـر في الفلسـفة يكـون دائمًـا طبيعيًـا وموضوعيًـا. مثـل هـذا التصـور للخطـاب الفلسـفي هـو تصـور مثـالي؛ فالتطبيقـات المدمـرة أمـر محبـوب بـين المفكريـن أيضًـا. وإبـان ذلـك يحـدث التحـول مـن الموضوعـي إلى الشـخصي دون جهـد، ومـن ثـم نصبـح في حـضرة لعبـة التدمـير التـي يمكـن للمـرء دون جهـد أن يكتـب عنهـا كتابًـا كامـلاً. ولكـن يكفينـا هنـا فصـل واحـد، وهـو فصـل لا يهـدف إلى إثـارة نزعـة التقليـد، وإنمـا إلى أن يـرى المـرء مـاذا يمكـن أن يحـدث. فالألعـاب التدميريـة، حتـى إن مورسـت بواسـطة الـكلام، يمكـن أن تـؤدي إلى نهايـات تراجيديـة مؤسـفة.

ونحـن نديـن ببعـض نغـمات الحقـد الفلسـفي الشـديد للفيلسـوف أرتـور شـوبنهاور، ويمكـن للمـرء أن يفهـم فلسـفته المتشـائمة بوصفهـا لعنة للموجـود الإنسـاني ككل. لقـد كان نتاجـه الفلسـفي مدفوعًـا بكراهيـة لا تهـدأ؛ فمـرة تتقـدم بحـدة مفاجئـة، وأخـرى تتقـد في الخلفيـة، ولكنهـا تبقـى محسوسـة دائمًـا. كان شـوبنهاور يهاجـم كل مـن المسـيحية والإسـلام واليهوديـة. وإذا لم يوافقـه موقـف فلسـفي معـين يتصاعـد حنـق في

حديثه ببطء حتى يصل لقمته. على سبيل المثال مناقشته للفلسفة الأخلاقية لإيمانويل كانط (1724-1804) الذي عد أمره المطلق، كما قال، عبارة عن "وسادة مريحة للحمير". ثم يتعرض لرأى كانط الذي يقول إن الإنسان يدين بالاحترام الأخلاقي فقط للإنسان وليس للحيوان. وهنا يزمجر شوبنهاور، صديق الحيوان، غاضبًا ويقول: "لأن... الأخلاق المسيحية لا تحترم الحيوانات فإنها - مباشرة - محللة الدماء في الأخلاق الفلسفية أيضًا، على سبيل المثال: تقطيع الأجساد وهي حية، المطاردة بالكلاب، مصارعة الثيران، مراهنات السباق، الجلد حتى الموت أمام عربة الكارو التي لا تتحرك لأنها محملة بالأحجار، وما يشبه ذلك مما يقرزز - أف!".

إلى هنا ينتهي حديث شوبنهاور عن كانط، كذلك كان لا يتحدث بشكل طيب عن فلاسفة آخرين. فكان على سبيل المثال يصف غريمه ومنافسه هيجل (1770-1831) بأنه "شارلتان" (أي دجال أو نصاب)، ويشرح ذلك بأن الفلسفة الهيجلية عبارة عن "مسرح للمهرجين". وكتب عن عمل هيجل الأساسي جملته الفريدة والنادرة: "كلما فتحت صفحات كتاب "فينومينولوجيا الروح" بدا الأمر لي وكأنني أفتح نافذة على بيت للمجانين".



وفي برلين حاول شوبنهاور أن ينافس هيجل بأن جعل حلقته الدراسية "دروس حول كنه العالم وماهية الروح الإنساني" عن قصد في الساعة التي يقدم فيها هيجل محاضرته الرئيسية. ولكن انتهت المحاولة بالفشل؛ فقد جاء إلى حلقة شوبنهاور خمسة طلاب فقط، بينما جلس لدى هيجل أكثر من مئتي مستمع. ربما كان من غير المفيد هنا القول بأن

اتهامـات شـوبنهاور لم تكـن تعنـي أو تهـم هيجـل الـذي كان في قمـة شـهرته.

ولكـن في الحالـة التاليـة كان الأمـر مختلفًـا تمامًـا. مـن النظـرة الأولى تبـدو القصـة التـي سـأسردها الآن أكـثر علميـة؛ حيـث لا توجـد فيهـا أيـة كلمـة نابيـة أو عاليـة النبر. كل شيء يبـدو، كأنـه يـدور حـول أمـور علميـة موضوعيـة. أمـا الشـخصيات الرئيسـية فهـي: ماريـون سـوريت Soreth وإليزابيـت شـتروكر Ströker، وهـما زميلتـان لوقـت طويـل في معهـد كولونيـا للفلسـفة. ولكنهـما لم تكونـا عـلى الدرجـة نفسـها؛ فالأسـتاذة الدكتـورة شـتروكر هـي إحـدى الباحثـات المعروفـات دوليًـا، وهـي تعمـل أيضًـا كرئيسـة لأرشـيف هـوسرل، ولهـا قائمـة طويلـة مـن المؤلفـات. أمـا الأسـتاذة الدكتـورة سـوريت فكانـت عـلى العكـس غـير معروفـة لأهـل التخصـص، ولم تنـشر منـذ أطروحتهـا للدكتـوراه (64 صفحـة) غـير كتـاب واحـد (55 صفحـة) والقليـل من المقـالات. الظـن الغالـب أن النجـاح الدولي لزميلتهـا كان مـما صعـب عليهـا هضمـه، وبخـلاف هـذا فـإن مـا فعلتـه لا يـكاد يكـون مفهومًـا. وقـد بـدأت القصـة في مسـاء الثـاني مـن أكتوبـر عـام 1990. بعـد العـودة مـن مؤتمـر في هامبـورج وجـدت إليزابيـت شـتروكر عـلى مكتـب خدمتهـا كتـاب لزميلتهـا. كان الكتـاب مقارنـة بمـا نشرتـه ماريـون سـوريت حتـى الآن يعـد ضخـمًا جـدًا: أكـثر مـن أربعمئـة صفحـة! فمـن أيـن جـاءت فجأة كل هـذه القـدرة الكتابيـة؟ كان العمل يبـدو دقيقًا وعلميًـا، ومملـوءًا بالهوامـش والمقتطفـات. ولكـن تحـت الغـلاف اللامـع المقـوي كان الغليـان. وكان نـص العنـوان: "بحـث نقـدي حـول أطروحـة إليزابيـت شـتروكر للدكتـوراه حـول العـدد والمحيـط، بالإضافـة إلى ملحـق حـول أطروحتهـا للأسـتاذية". وسرعـان مـا تبين أن مـا جـاء يخطـر في ثيـاب أكاديميـة كان بمثابـة طقـوس تدميرية. فماريـون سـوريت تدعـي أن أطروحة شـتروكر للدكتـوراه انتحـال؛ فهـي منزوعـة عـن كتـب أخـرى دون الإشـارة لمواضـع الاقتباسـات، وقـد سـاقت الأدلـة مـن خـلال مقارنـة نصيـة دقيقـة، وذلـك بـأن وضعـت نـص أطروحـة شـتروكر إلى اليسـار ووضعـت إلى اليمـين الفقـرات المناسـبة مـن أعـمال الفلاسـفة المشـهورين وغـير المشـهورين الذيـن نقلـت عنهـم السـيدة شـتروكر في صمـت. هـل إليزابيـت شـتروكر

المشـهورة دوليًـا مخادعـة؟ وقـد صـدر الكتـاب عـن دار النـشر الخاصـة لماريـون سـوريت التـي تحمـل اسـم (P&P Verlag) مـما يعنـي تقريبًـا (Publish) و(Perish) أي دار النـشر والتدمـير. فجـأة انتبـه الـرأي العـام. في العديـد مـن المقـالات، عـلى سـبيل المثـال في جريـدة "دي تسـيت" أو في "صحيفـة مدينـة كولونيـا"، تـم اقتبـاس الكتـاب بمتعـة، وبـدت ادعـاءات ماريـون سـوريت كـشيء مصيـب، وأن الاتهـام بالانتحـال قـد دلـل عليـه. وقـد أعطـت الكليـة الفلسـفية في جامعـة كولونيـا مسـاندتها لسـوريت، وأعلنـت أن أطروحـة شـتروكر للدكتـوراه لا تتناسـب والمعايـير المعتـادة، فضيحـة؟ وقـد تـم الاتصـال بجامعـة بـون التـي أنجـزت فيهـا إليزابيـت شـتروكر أطروحـة الدكتـوراه حتـى يتوصـل لـرأى مـا في الموضـوع. وكونـت بسرعـة لجنـة امتحـان أقـرت بعـد شـهور طويلـة إفـادة إليزابيـت شـتروكر بأنهـا قدمـت لممتحنيهـا آنـذاك صيغـة لأطروحـة الدكتـوراه اختفـت بعـد ذلـك، وأن هـذه الصيغـة كانـت تحتـوي عـلى الكثـير مـن الهوامـش. ورأت اللجنـة ضرورة الاعتـذار لشـتروكر؛ لأن الاقتبـاس لم يكـن يجـري آنـذاك بدقـة كـما هـو الآن. وكان منطـوق الحكـم: السـيدة شـتروكر لم تغـش ويسـمح لهـا بالاحتفـاظ بدرجتهـا للدكتـوراه. وكان هـذا نـصرًا بالنسـبة للسـيدة شـتروكر. وبعـد ذلـك بقليـل أسرع الأصدقـاء والمعـارف القدامـى لمسـاعدة المتهمـة، وفي "خطـاب مفتـوح" لمجلـة "معلومـات فلسـفية" وجَّـه أكـثر مـن مئـة أسـتاذ وأسـتاذة اتهامهـم "لأحاديـه التقاريـر" التـى تنـشر فيـما يخـص شـتروكر، وأضافـوا أن السـيدة شـتروكر تسـتحق الاحـترام بنـاء عـلى كتاباتهـا الكثـيرة. والآن أصبحـت ماريـون سـوريت في موقـف لا تحسـد عليـه؛ حيـث أصبحـت هدفًـا لهجـوم مقـالات جديـدة، واتهمـت بأنهـا تنطـوي عـلى "حقـد أعمـى"، ووصفـت بأنهـا أثبتـت أنهـا "ليسـت بالعالمـة". ثـم بـدأت إليزابيـت شـتروكر هجومهـا المضـاد ورفعـت قضيـة عـلى ماريـون سـوريت تطالـب فيهـا بدفـع تعويـض مـالي. ولم تسـبب شـكوتها فقـط بالـضرر الـذي لحـق بسـمعتها، وإنمـا أيضًـا بالإشـارة إلى الصدمـة العنيفـة التـي عانـت منهـا بعـد أن علمـت باتهامـات السـيدة سـوريت؛ حيـث عانـت لمـدة شـهور طويلـة مـن عـدم القـدرة عـلى العمـل، وبقيـت طريحـة في المستشـفى تعـانى مشـاكل صحيـة شـديدة الوطـأة. ولكـن القضيـة لم تنتـه

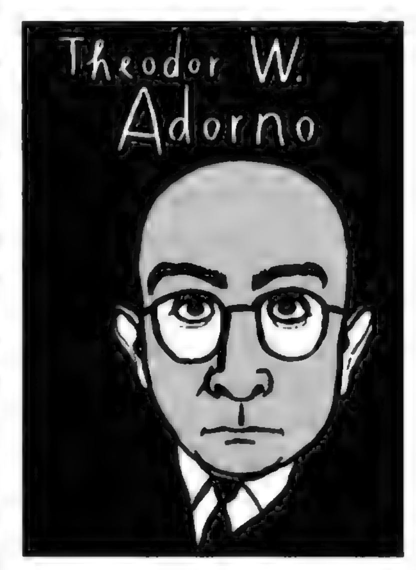
للنتائج المرجوة؛ حيث لم يصدر أي حكم، ولم يحكم لها بأي تعويض مالي، وإنما إلى اتفاق التزمت ماريون سوريت بموجبه بإلغاء أحد عشر سطرًا من خاتمة كتابها؛ لأنها تحوى اتهامات شخصية. ورغم ذلك كله استمرت المعركة فيما بعد أيضًا؛ فكتبت مقالات جديدة، وبعث القراء بخطاباتهم، وقدمت شكاوى لبدء قضايا جديدة. وفي وقت ما نزع الرأي العام يده من الموضوع ولم يعد يهتم بالأمر.

ولكن ماذا عن الموضوع نفسه؟ هل كان العمل انتحال أو لا؟ بالنسبة للألعاب التدميرية فإن المعتاد هو أخذ من يهاجم بجدية من قبل الأحزاب المختلفة. أما من وقف إلى جانب السيدة شتروكر ورأى أنها "لم" تؤلف عملاً انتحاليًا فإنه يميل إلى أن يتهم ماريون سوريت بأن لديها أسبابًا وضيعة، على سبيل المثال كره أو حسد مرضي لمنافستها الناجحة. هكذا نظر للأمر، بعد قرار لجنة جامعة بون، الكثير من الفلاسفة بمن فيهم السيدة شتروكر نفسها وبعض الصحفيين. ولكن الذين أصروا رغم قرار لجنة جامعة بون، وهؤلاء لم يكونوا قلة، على الرأي الذي يقول بأن السيدة شتروكر قامت في أطروحتها فعلاً بالنقل، فقد رأوا أيضًا شخصية ماريون سوريت وأسبابها في ضوء آخر مختلف. على سبيل المثال يرى الفيلسوف الشهير هانس فاجنر أن السبب وراء ما قامت به ماريون سوريت هو الحنق والاستنكار المبرر حول اكتشاف فاضح، وأن مهاجمة فيلسوفة معترف بها ولها أصدقاء حول العالم أمر يتطلب شجاعة.

وفي النهاية لم تؤد القصة لوجود فائزة. فأما ماريون سوريت فتشعر، كما اعترفت في وثائقها حول الحدث، أنها عوملت بشكل غير منصف. أما إليزابيت شتروكر التي يجب أن تشعر من الناحية الشكلية بأنها منتصرة فلم تفرح بالأمر؛ فسمعتها لم يكن من الممكن إعادة بنائها مرة أخرى. في عام 2000 ظهر كتابها "باسم أخلاقيات العلم – سنوات تدمير أستاذة جامعية في ألمانيا 1999-1990". كان الغلاف أسود في أبيض مثل إعلان وفاة. لقد كان هذا آخر أعمال إليزابيت شتروكر حيث توفيت بعد نشره بعدة أشهر.

والآن إلى مثلنا الأخير الذي ينبغي أن يرينا أن التدمير المنظم ليس واضحًا دائمًا، وإنما يمكن أن يأتي مثل "دعابة مرحة". فهو يتقنع بالضحك، ومن ثم فإن هجومًا شديدًا قد يصبح أقرب لأن يسامح بل وأن تتم رؤيته - إذا ما تم إخراجه كمزحة - كشيء جيد. ومثالي لذلك هو ما يسمى بحادث الاعتداء بالأثداء على الفيلسوف تيودور أدورنو. ويمثل هذا الاعتداء قمة سلسلة طويلة من الاعتداءات التي مورست في عامي 68 و69 من قبل صفوف الحركة الطلابية ضد الفلاسفة.

وقد وقع الحادث المعروف في يوم 22 أبريل سنة 1969: كان أدورنو يريد أن يبدأ محاضرته في قاعة رقم ستة في جامعة فرانكفورت حول "مدخل إلى الفكر الجدلي"، ولكن حدث في القاعة ضجة وتصفير. إنها "المضايقات" الشهيرة التي أعدت ونفذت من قبل مجموعات التنفيذ في اتحاد الطلاب الاشتراكيين الألمان (SDS). هنا قال أدورنو: "أمامكم خمس دقائق لتقرروا إذا ما كانت محاضرتي ستلقى أم لا". هنا اقتربت منه ثلاث طالبات ارتدين جواكت جلدية، وأخذن يرقصن حول الأستاذ الذي يقف على المنصة ويحاولن تقبيله. وأخيرًا نزعن جواكتهن وأرينه أثداءهن عن قرب؛ فضجت القاعة بالضحكات العالية! وهنا هجم الفيلسوف المفزوع على حقيبة ملفاته ووضعها أمام وجهه وخرج من القاعة مسرعًا. كثيرًا ما يحكى هذا! كنادرة طريفة حتى إن روبرت جيرنهارد قد كتب حول الحادث شعرًا فكاهيًا يقوم بالفعل فيه فتاتان بدلاً من ثلاث، وقد وصف المشهد هكذا:



رومس! هنا بدأتا في التجرد،

وأربعة أثداء مفزعة الكبر،

متحررة من كل ما ستر،

رائقة العري معروضة مكشوفة...

داعية، زاهية، مترجرجة، مُرغِمة

تطلب رجلاً كاملاً مغريًا،

ناهدة، نامية، مهددة، مهاجمة،

تشكك في كل ما هو روحي، ومتصدية

في مواجهة أستاذ أخرس مضطرب،

يبحث مفزوعًا عن مهرب.

من يسعه ألا يتمنى أن يكون هناك في تلك القاعة التي تحمل رقم ستة؟ فالأمر كله بدا وكأنه طريف مفرح، ولكن إذا ما واصل المرء القراءة فإنه يبدأ في التفكر والتأمل:

كان اعتداء الأثداء

قد أجهز على ما بقي من البروفيسور

ففي العام نفسه مات الفيلسوف...

هكذا، هنا فقط يتذكر المرء أن أدورنو مات في العام نفسه، بالضبط في السادس من شهر أغسطس سنة 1969. هل ينبغي أن يكون لهذا علاقة بالاعتداء؟ في القصيدة صيغ هذا بالشكل الفكاهي التالي:

سيبرأ كل شيء مع الزمن

ولكن تيدي (= تيودور أدورنو) وحده كان سيئ الحظ.

ولكن من يعرف؟ ربما لم يكن المشهد مسليًا لأدورنو كما كان بالنسبة لجماعة الضحك في القاعة رقم ستة؟ في حوار لدير شبيجل نشر بعد قليل من الحدث يشعر المرء خلاله بالانزعاج الذي أصاب

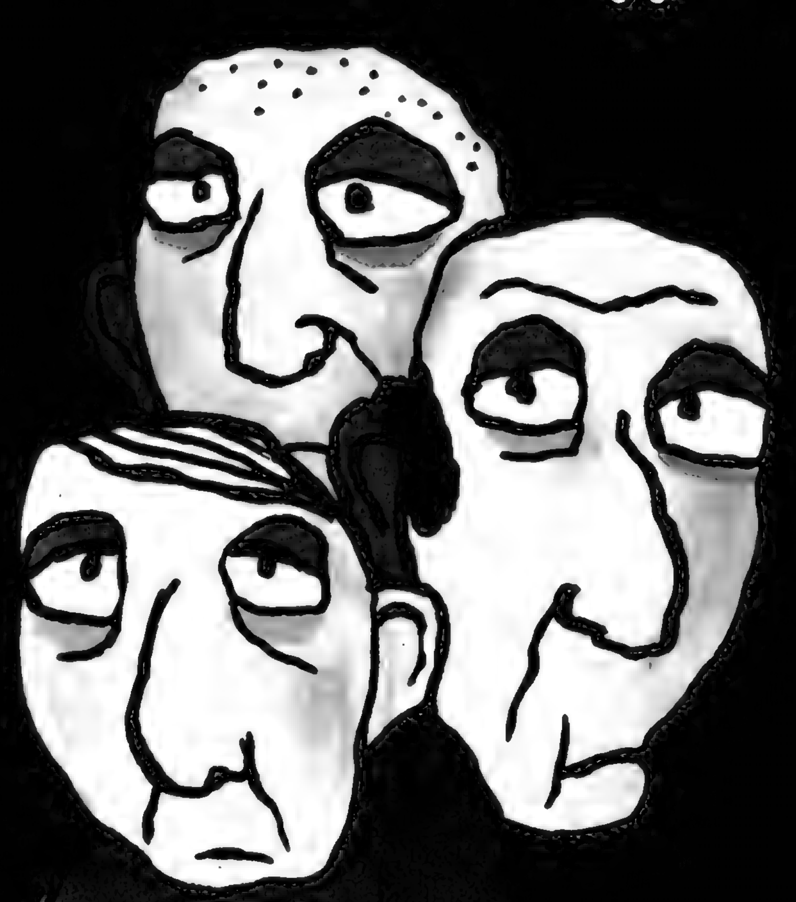
الفيلسوف. ربما كان من المفيد معرفة ما رآه الآخرون في هذا اليوم في القاعة رقم ستة. المخرج جويدو كنووب كان شاهدًا على الحدث. وقد حكى في حديث حول زمن دراسته في فرانكفورت قال: "لقد ضحك كل من في القاعة. كنت أجلس في الجزء الأمامي، ولقد أسفت للأستاذ. ثلاثة أزواج من الأثداء المترجرجة في علو عينيه، وهذا الرجل الملتصق جدًا في عالم التفكير النظري يحاول الدفاع عن نفسه بحقيبة ملفاته. لقد رأيت اضطرابه الشديد، وفي وقت ما ترك الحقيبة تسقط ثم انهمرت الدموع من عينيه، وهنا قاده مساعدوه للخارج. لقد كان مشهدًا مؤثرًا جدًا".

لقد بكى إذن؟ ليس مصادفة أن دموع الضحية لم تظهر في الشعر؛ فالضحك لا يناسب الأسف لشخص ما. ومن يمكنه أن يرفع إصبع الاعتراض إذا كان الآخرون يتمتعون بهذا؟ من يحاول أن يقف ضد الأشياء المضحكة يجعل وتيرة المزاح تتصاعد. الضحك يتكفل وبسرعة بإيجاد شركاء للمهاجم؛ فمن الجميل الضحك معًا، يستوي في هذا على أي شيء. ولأجل ذلك فإن أحد التكتيكات المفضلة هو التخلص من الناس في حماية الضحك.

المراجع

توجد إحدى المقالات الاستعراضية حول "اللعنة واللعن واللاعنون" في "دائرة معارف الخرافات" (برلين/نيويورك 1984). كذلك فإن إحدى المقالات الكاشفة يتمثل في الفصل الشهير عن "العراك" في كتاب جيورج زيمل Simmel "علم الاجتماع" (فرانكفورت/ماين 1992 (1908)). كذلك أريد أن أشير إلى فصل "كراهية" في كتاب هانز ليبس Lipps الجدير بالقراءة ذي العنوان المتقادم "الطبيعة الإنسانية" (فرانكفورت/ماين 1977 (1941)). عن كلمات شوبنهاور الحاقدة يخبرنا فرانكو فولبي Volpi بشكل محيط وإجمالي في كتابه "أرتور شوبنهاور: فن توجيه السباب" (ميونخ 2002). الأمريكي بالاختيار راينهولد أمان Aman (من فورستنزيل/ ببفاريا السفلى) الذي يحرر مجلة Maledicta، وهي المجلة الوحيدة على مستوى العالم المتخصصة في "الاعتداءات اللفظية" (ISSN US 0363-3659) ويشرف على صفحة الإنترنت (www.mal-edicta.org) التي تنشر فيها أيضًا مقالات بالألمانية. بسبب حبه للتلاعن كان عليه أن يعاني بعض الشيء؛ لذا قضى خمسة عشرة شهر في سجون عديدة مختلفة، وجلس في الإصلاحيات، وذلك لأنه أرسل لمطلقته كارتي بريد غير مهذبين، وكذلك لأنه نشر كتيبًا ضد "التملق القانوني في ويسكونسن". وفي هذا ما يتشابه مع بعض وقائع حياة أرتور شوبنهاور الذي رفعت عليه القضايا بسبب شتائمه اللفظية واشتباكه بالأيدي. حول مجادلة شتروكر- سوريت، راجع الطبعة الثانية من كتاب ماريون سوريت "وثائق حول نقد أطروحة إليزابيت شتروكر للدكتوراه" (كولونيا 1996).

Struldbruggs



12. تجارب فكرية

في العصور القديمة كانت الخرافة محل تقدير، ولكن مثل هذه القصص أصبحت الآن "موضة قديمة". وبدلاً منها يستخدم المرء اليوم ما يسمى بالتجارب الفكرية.

ومثل هذه التجارب لا تبدأ بالقول "كان يا ما كان..."، وإنما بالقول "لنأخذ مرة.." أو "لنتصور..". وهي تأخذ بذلك سمات العالم التجريبي في العلوم الطبيعية. وهذا ما يجعلها معاصرة جدًا. وفي الحياة اليومية كذلك كثيرًا ما يتصور المرء أشياء غير موجودة، ولكنها يمكن أن تكون، على سبيل المثال ماذا يفعل المرء إذا فاز في اليانصيب. فمثل هذه التصورات ليست من قبيل التجارب الفكرية. فالتجربة الفكرية تتحقق فقط إذا ما استخدمت القصة المتخيلة "كبرهان في مناقشة ما" لتعليل رأي ما.

"تصور أنها حرب، ولا يذهب أحد إليها". هنا لدينا جملة كلاسيكية، وهذه الجملة التي سنعود إليها فيما بعد تشبه أن تكون شعارًا لحركة السلام. وكثيرًا ما يقال إنها ترجع لبرتولد بريشت Bre-cht (1898-1956). ويمكن للمرء أن يرى هذا المثال كتجربة فكرية. ماذا ينتج عن إعلان حرب إذا ما جرى تجاهله من قبل الجنود والقادة وأخيرًا من قبل العدو؟ ألا تشير هذه التجربة الفكرية إلى طريقة سهلة لتجنب حرب ما؟ هذا ما يراه على كل حال أعداء الحرب منذ الستينيات.

الخلود

إذا ما تعلق الأمر بالأسئلة الفلسفية فإن التجارب الفكرية تصبح أحيانًا عظيمة. لنأخذ على سبيل المثال سؤال، كيف تصبح الحياة إذا لم يكن على المرء أن يموت، إذا ما تمكن المرء من أن يعش للأبد لأمكنه أن يبدأ في كل مشاريعه بثقة أكبر في المستقبل، وذلك لأنه لن يعيش فقط سنوات كثيرة وإنما أمامه الأبد كله، كذلك لن يكون للحسد أساس، وذلك لأن المرء يمكنه أن يقول إن ما يملكه الآخر يمكنني أيضًا امتلاكه، إن لم يكن الآن فبعد عشرة آلاف سنة. وكذلك سينتهي الاكتئاب وخيبة الظن؛ فلا أسباب لدى المرء لتحزنه إذا ما كان سيحيا حياة أبدية سيحصل فيها في وقت ما على ما تمناه. ولكن يوجد أناس آخرون يرون في الحياة الأبدية أمرًا مفزعًا، والموت أمر مرحب به. وإلى هؤلاء ينتمي الروائي الإنجليزي جوناثان سويفت Swift (1667-1745) الذي قدّم في روايته "رحلات جليفر" تجربة فكرية حول هذا الموضوع.

ماذا يحدث فعلاً إذا لم يمت المرء؟ هكذا تساءل سويفت وحكى قصة السترولد- بروجس. وقد عرف جليفر بأمر هذه الأقلية خلال إحدى رحلاته، وهم - كما شرح له أحدهم - مخلدون لا يموتون، وهم يولدون من الفانين ووسطهم ولكن يتعرف عليهم بأن لديهم بقعة حمراء فوق حاجب العين اليسري ويتغير لونها مع الوقت، وهذه العلامة غير كاذبة؛ فمن لديه هذه البقعة فهو مخلد لا يموت.

وهنا قال جليفر لمرافقيه الذين حكوا له القصة إنه لأمر رائع، ولا بد أنه يجعل القوم سعداء؛ حيث يمتلك كل طفل "فرصة" للخلود! وأكثرهم سعادة هم ولا ريب هؤلاء السترولد-بروجس الذين يستطيعون الحياة دون الخوف المتعب من الموت.

وبسرعة تصور جليفر كيف تكون حياته مرحة إذا ما عرف أنه خالد لا يموت؛ فبوصفه مخلدًا يمكنه أن يبدأ ممارسة هوايات جديدة! حالاً سيبدأ العكوف على علم الفلك والتنجيم؛ فلأنه متأكد من أنه على كل حال سيعيش ما يكفي ليتمكن خلال ذلك من اختبار إذا ما

كانت تنبؤاته ستقع. وإذا ما كانت دورة أحد النيازك تستغرق بضعة آلاف من السنين فإن هذا لا يزعجه، وذلك لأنه يمكنه أن ينتظر وبثقة ظهوره التالي.

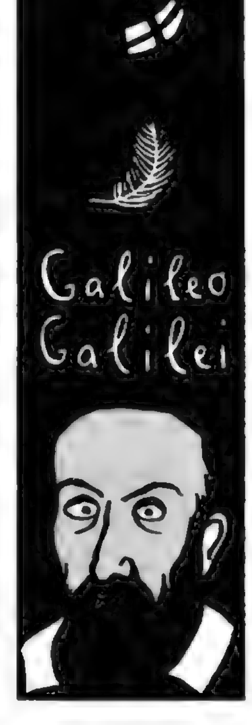
عقب هذا ضحك رفاق جليفر وهزوا رؤوسهم، ثم شرح له أن موضوع عدم الموت هذا مختلف عما تصوره؛ فعقب الثلاثين من عمرهم يصبح السترولد-بروجس مكتئبين، ويطورون بالتدريج كل سمات العجائز. ويُضاف إلى هذا أيضًا أن هذه السمات تزداد لديهم عمقًا، لأن لديهم فكرة غير مريحة لعدم الموت. ومع الوقت يصبحون باردي المشاعر وغير قادرين على الصداقة، وهم يحسدون كل من يموت، وذلك لأنهم يجدون في النهاية نقطة استراحة. ومع الوقت تضعف قدرتهم على التذكر حتى لا يعودون يتذكرون إلا ما تعلموه في صباهم.

وما إن يصلوا إلى الثمانين حتى يعلنوا لأسباب قانونية كموتى، ويقوم أطفالهم وأحفادهم بتقاسم الميراث فيما بينهم. وفي التسعين يفقدون شعرهم وأسنانهم، وبعد المائتين لا يعودون قادرين على التواصل اللغوي مع غيرهم، وذلك لأن لغتهم تصبح وببطء خارج نطاق الاستخدام. ويعيشون كغرباء وهم في أوطانهم.

أذهلت القصة جليفر وأصابته بالدهشة؛ فهو لم يتصور الخلود بهذه الصورة الأقرب للانهيار البطيء واللانهائي! وشيء آخر محزن يتمثل في أنه - أي الخلود - ليس للجميع، ولكنه يصيب قلة فقط! وبعد هذا لم يعد جليفر يتمنى أن يخلد. وكان هذا تسرعًا بعض الشيء كما سيتبين لنا. وقد كان في وسعه أن يقول: "طيب. إن السترولد-بروجس يصبحون مخلدين في الوقت غير المناسب. أما أنا فعلى العكس أتصور الخلود بوصفه شبابًا دائمًا وربيعًا دائمًا، وأتمنى أن أصبح مخلدًا وأنا في العشرين". وبهذه الجملة نكون أمام تطبيق تنويع التجارب الفكرية، ولكننا نعرض بداية لمثال آخر من مجال الفيزياء.

لحظة سقوط الأحجار

تساعد التجارب الفكرية حتى لدى الاهتمام بالأشياء المحسوسة. وهناك مثال شهير يرجع لجاليليو جاليلي Galilei (1564-1642)، وهو مثال لا يدور حول الموت والخلود، وإنما حول سؤال أقرب للعملية عما إذا كان من طبيعة الأشياء أنها تسقط بالسرعة نفسها.



في العادة نميل إلى وجهة النظر التي ترى أن الجسم الثقيل يسقط أسرع من الخفيف. ألا تحتاج ريشة صغيرة، مقارنة بكرة حديدية، لوقت أطول حتى تصل للأرض؟ لقد استقر الأمر - لقرون طويلة - على التصديق بفكرة تعليمية تعود إلى أرسطوطاليس تقول إنه كلما كان الجسم أثقل كان سقوطه أسرع. ولكن الفيزيائي وفيلسوف الطبيعة جاليلي لم يكن يعتقد في هذا. ولأجل إثبات خطأ ذلك لم يستخدم المقاييس فقط، وإنما فكَّر أيضًا في تجربة فكرية:

ليتخيل المرء كما كتب سقوط حجرين أولاهما خفيف والآخر ثقيل. تبعًا لنظرية أرسطوطاليس لا بد للحجر الخفيف أن يهبط ببطء، وأن يهبط الثقيل بشكل أسرع. أما إذا رُبِط الحجران معًا فإن الخفيف يجعل سقوط الثقيل أبطأ؛ أي أن النظام ككل يصبح أبطأ. ولكن، وهنا تأتي الإشكالية، فكلا الحجرين يكونان معًا حجرًا أكبر وأثقل لا بد له تبعًا للشروط أن يتحرك بشكل أسرع من كليهما بمفرده! فهذا يرينا أن نظرية أرسطوطاليس تقود إذا ما قام المرء في تفكيره بربطها بمثال إلى نوع من التعارض. ومن ثم يبدو أن هناك خطأ ما. هذه التجربة الفكرية ما زالت تتناقل حتى اليوم بين الفيزيائيين، وتعد مثلاً كلاسيكيًا. ولا ينتبه إبان ذلك - وهذا معتاد - إلى أن المرء يمكنه من

خلال أمثلة مناسبة، المظلة على سبيل المثال، أن يقوي من موقف نظرية أرسطوطاليس.

حجاب اللامعرفة

في التأملات حول الفلسفة التطبيقية التي تهتم بالسؤال عن كيف ينبغي أن نفعل، تعد التجارب الفكرية أمرًا محبوبًا بشكل خاص. هنا لا يفعل الفلاسفة غير الانغماس في تصوير الحالات الذكية الممكنة. وهنا يقرأ المرء حول الناجين الجائعين من إحدى السفن الغارقة، والذين يتساءلون وهم في أحد المراكب إذا ما كان يمكنهم أن يقتلوا أحدهم ويفترسوه، أو عن أحد رجال الإنقاذ إبان احتراق أحد مختبرات الأجنة، والذي عليه أن يقرر أن ينقذ أنابيب الأجنة أو الطفل الباكي الذي يرقد مصادفة في أحد أسرّة المختبر.

ولكننا نفضل هنا أن نلتزم بالنماذج السهلة. وبداية هذه تجربة فكرية تتعلق "بالأمر المطلق" الذي مر بنا في هذا الكتاب ونصه كم أذكر: "افعل الفعل بطريقة تكون فيها مسلمات إرادتك صالحة طوال الوقت لأن تصبح مبدءًا لتشريع عام". ومن هذا الأمر يستنتج كانط تحريمًا كليًا للكذب، وهو التحريم الذي دافع عنه في أحد كتبه.

وضد هذا التحريم المطلق للكذب تقوم تجربة فكرية منطقية كثيرًا ما توجد في الأدب، وقد نوقشت من قبل كانط بشكل ضعيف. لنتصور رجلاً ما أخفى في عصر الرايخ الثالث إحدى المواطنات اليهوديات، وفي يوم ما يقف رجلان من المخابرات النازية "الجستابو" أمام البيت ويسألانه إذا ما كان قد أخفى يهودًا فماذا يفعل؟ هل ينبغي عليه أن يكذب وينقذ بهذا من يخبئه (ونفسه)؟ أو هل ينبغي أن يقول الحقيقة كما في الأمر المطلق الذي ينصحه بأن يقول الحقيقة دائمًا؟

غالبية من يهتمون بهذه التجربة الفكرية يقررون في النهاية أنهم في "هذا" الموقف سيقومون وبيداهة أخلاقية بالكذب. وبالنسبة للكثيرين فإن الإنسان الذي يقول الحقيقة من "الأساس" بمثابة الشاذ

أخلاقيًا. وهنا يجب على المرء أن يفكر إذا ما كان يوجد على الإطلاق أي أسس أخلاقية تسري "دائمًا". وعلى كل حال، فإن المثال يرينا أن تجربة فكرية ما، حتى وإن أمكن شرحها في خمس أو ست جمل، لديها القدرة على هز الأساس الذي تقوم عليه إحدى النظريات المعترف بها.

أحيانًا تكون التجارب الفكرية في الفلسفة التطبيقية واضحة التعقيد. وفي هذا السياق إليكم التجربة الفكرية التالية، والتي كانت مشهورة في السبعينيات والثمانينيات، وهي التجربة التي تحمل العنوان الجميل "حجاب اللامعرفة" الذي يمكن أن يذكرنا بأسطورة شرقية. فما الموضوع؟ الفيلسوف الأمريكي جون رولز يحاول التوصل للمبادئ الممكنة التي يجب أن يبنى عليها مجتمعًا عادلاً.

للإجابة عن هذا السؤال يتصور رولز مجموعة من الناس تتجادل حول حالة المجتمع العادل. وليس بالموضوع حتى الآن أي تميز, ورغم ذلك فإن رولز يقدم سببًا غريبًا ويقول إن هذا النقاش لا بد من أن يتم فقط من قبل مجموعة من العميان. لا يسمح لهم بمعرفة شيء حول ما يملكون أو يرثون أو حول تعليمهم أو مواهبهم. فهؤلاء الذين اختيروا عن قصد لعماهم ينبغي أن يقرروا فيما يخص الدستور الذي يردون الاتفاق عليه. بالطبع ينبغي التثبت من خلال هذه التدابير الغريبة من أن الناس ستتفق في الواقع حول نظام اجتماعي عادل وليس على أحد الأنظمة التي تخدم اهتماماتهم فقط.

وتبعًا لرولز فإن هذا التجمع المتصور سيتفقون على هذه القواعد الأساسية التالية:

1. لكل إنسان أن يمتلك الحق نفسه في استخدام النظام الكبير للمبادئ التحررية نفسها على ألا يتضارب هذا مع الحقوق المكفولة للآخرين في النظام نفسه.
2. وأن تعالج التباينات الاجتماعية والاقتصادية هكذا:

أ) أن ينظر بطريقة عقلانية أن تكون كل هذه التباينات في صالح كل إنسان،

ب) أن تكون هذه التباينات مرتبطة بالمواقف الاجتماعية وبالوظائف المفتوحة أمام الجميع.

وهذه الأسس تستحق دون شك التفكير فيها. ورغم ذلك قامت مشاجرة نقدية حول هذه التأملات الرولزية. هل تجربة فكرية ما هي الطريق الصحيح على الإطلاق للحوار والنقاش حول "الدستور الحقوقي" لأحد المجتمعات؟ ألا ينبغي أن تناقش القواعد الأخلاقية، ويتفق عليها على أساس ثقافة متطورة بين أشخاص محددين؟ وإلا كيف ينبغي إذن أن تكون هذه القواعد الأخلاقية فرضًا على الجميع؟ وقد صُكّت مثل هذه الاعتراضات على وجه أخص من قبل مجموعة ما يسمى "الجماعيين" Communitaristen (من community أي جماعة). وهي معركة ما زالت إلى الآن حامية الوطيس.

استمرار التفكير والتنويع

تمتلك التجارب الفكرية داخل النصوص العلمية قدرة غريبة على الإغراء؛ فهي تحكي حيث كل يدور حول الاستنباط والمقارنة والتخمين أو الملائمة؛ لذا فإنه من المهم أن يتعلم المرء كيف ينظر نظرة نقدية للتجارب الفكرية.

لنتأمل مرة أخرى مثالنا الأول: "تصور أنها حرب، ولا يذهب أحد إليها". وقد سبق أن أوضحت الطريقة التي يستخدم بها هذا الشعار من قبل حركة السلام؛ فرفض الخدمة الحربية ذو الصبغة الكونية سينهي الحرب ويؤدى للسلم. فكيف يمكن نقد هذا التصور المنطقي؟

بداية يمكن للمرء أن يُنوِّع التجربة الفكرية كي يرى إلى أي حد يمكن أن يؤدى هذا وظيفته؟ وقد قام أعداء حركة السلام بعمل شيء من هذا القبيل؛ فقد أشاروا إلى أن الفكرة ستهتز كلها وتضطرب إذا ما انتقل المرء من الحالة الوهمية، أي أن أحدًا لن يذهب، إلى الحالة الواقعية، أي أن "بعض القلة" ممن يحبون الحرب سيذهبون فعلاً.

ومثل هذه القلة تكفي في عصور أسلحة الدمار الشامل للتخطيط للضرر بالآخرين. فهذا العدد القليل يمكنه أن يقود لحالة حرب، وهذا هو الحاصل فعلاً إذا ما فكر المرء في الأعمال الإرهابية. فتغيير بسيط للتجربة الفكرية يؤدي مباشرة إلى المشاكل ويفصح عن مناطق الضعف.

وأخيراً يمكن التدليل على أن بريشت الذي تنسب إليه هذه الجملة في العادة لم يكن يرى على الإطلاق سببًا لتجنب الكفاح. لقد كان بعكس هذا مؤيدًا كبيراً للنضال والحرب، وليست لديه فكرة طيبة عن رفض الخدمة العسكرية. ومن المفيد هنا التعرف على معنى الجملة الشهيرة في سياقها الأصلي. فالجملة موجودة في طبعة غير قانونية لأعمال بريشت تم إنجازها في الستينيات من قبل ناشر مجهول وضع جملة "تصور أنها حرب، ولا يذهب أحد إليها" كعنوان لأحد قصائد بريشت. أما النص في الصياغة الأصلية فنصه:

تصور أنها حرب، ولا يذهب أحد إليها،

إذن تأتي الحرب إليك.
فمن يبقى في البيت حين يبدأ النضال
ويترك الآخرين يناضلون لأجله
لا بد له أن يكون حذرًا
فمن لم يشارك في النضال
سوف يتقاسم الهزيمة.
ولن يتجنب الحرب مرة
من يريد تجنبها،
وسيناضل لأجل العدو
من لم يناضل لأجل حاجته.

فالمرء يرى أن ما تم التشنيع عليه هنا هو البقاء في البيت وليس الذهاب للحرب! هكذا تنتهي اللعبة الفكرية الجميلة لدى بريشت، ولكن ليس بصيغ مملوءة بالسلم، وإنما بتهديد متجهم.

وهنا مثال آخر سأعود به مرة أخرى إلى موضوع الحياة الأبدية، ولكن هذه المرة ليس إلى صيغة الانحلال البطيء اللانهائي، وإنما لفكرة العودة الأبدية للشبيه. فالمرء يموت فعلاً، ولكنه يعود مرة أخرى بعد وقت محدد. فالمرء يولد في وقت ما مرة أخرى، ينمو ويعمل ويعيش ثم يموت للمرة الثانية، ثم يولد مرة أخرى، وهكذا إلى آخره. وهي فكرة تبدو غريبة، ولكنها منتشرة في بعض الديانات الشرقية، وقد روج لها في الغرب من قبل فريدريش نيتشه Nietzsche (1844-1900). ونحن ندين له أيضًا بفكرة أن العودة الأبدية للشبيه ليست فقط غريبة، وإنما يمكن التدليل عليها. وهنا نقدم الفكرة الحاسمة التي تعود إلى ربيع عام 1888:

"إذا ما فكر في العالم بوصفه حجمًا كبيرًا من الطاقة وعددًا محددًا من مراكز الطاقة - وإذا ما بقيت كل التصورات الأخرى غير محددة، ومن ثم غير قابلة للاستخدام - هكذا ينتج عن هذا أن العالم لا بد من أن يعيش عددًا يمكن حسابه من الاحتمالات في لعبة للنرد الكبرى التي يمارسها الوجود. وفي أحد الأوقات اللانهائية سيتحقق لمرة كل احتمال ممكن، بل سيتحقق لمرات لانهائية. ولأنه بين كل "تحقيق" لاحتمال ما و"عودته التالية" لا بد من أن تحدث كل الاحتمالات الممكنة، ولأن كل احتمال من هذه الاحتمالات يتطلب سلسلة الاحتمالات نفسها في الترتيب نفسه؛ فهكذا يمكن التدليل على وجود دورة من سلاسل متطابقة بشكل مطلق".

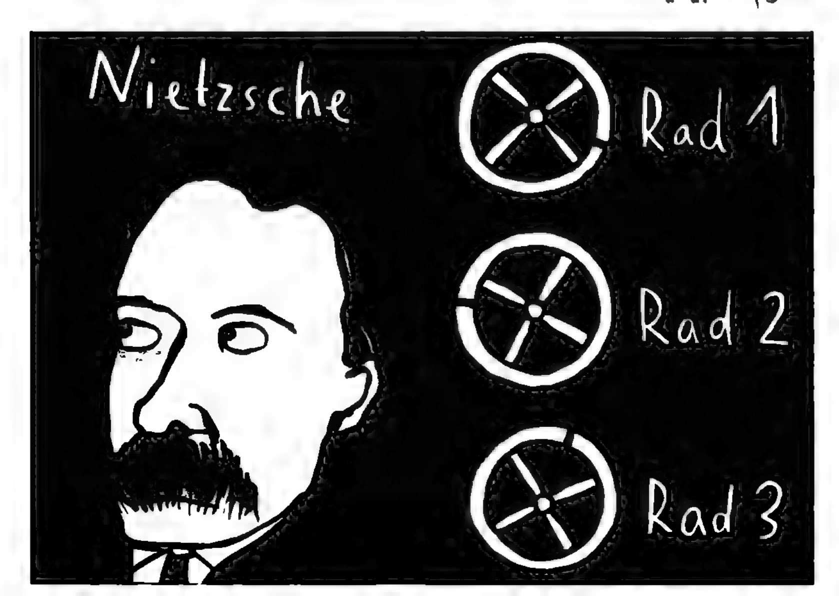
ويصف نيتشه فكرته هذه بأنها "الفكرة الأهم"، ويعتقد أن هذه الفكرة ذات أهمية أخلاقية أيضًا. يجب على المرء أن يتساءل أمام كل ما يفعله: "هل تريد هذا مرة أخرى ولمرات أخرى غير معدودة؟". بالطبع سيكون واضحًا أنه لا توجد أشياء كثيرة سيمكنها اجتياز هذا الاختبار.

إلى هنا ينتهي قول نيتشه. فكيف يمكن للمرء أن يفحص تجربته أو لعبته الفكرية بنظرة نقدية؟ بداية بالتشكيك في فروضه. هل الوقت لانهائي؟ هل يوجد وضع كوني محدد يسمح بالتثبت منه بالضبط؟

هل العالم فعلاً نهائي كما افترض نيتشه؟ أغلب هذه الافتراضات هي موضع شك، ويمكن للمرء أن يرفضها قائلاً: برهانك جيد ولكن الفروض أو الشروط غير أكيدة.

ويمكن للمرء أن يعالج من تلك التجربة الفكرية بطريقة مغايرة بأن لا يرفض المرء النموذج مباشرة، بل يدخل في سياقه ليرى ويختبر إذا ما كان يستطيع حقيقة القيام بما وعد به، وهنا من المفيد تناول حالة محددة.

بالطبع حالة تدخل هذا النظرية النتشوية في المصاعب، وقد ابتكر الفيلسوف جيورج زيمل (1858-1918 Simmel) إحدى هذه الحالات، وهو نموذج سهل، ولكنه يحتاج إلى بعض الرياضيات المدرسية لفهمه. وهو لا يدور حول الأحداث التاريخية الكبرى التي ينبغي أن تتكرر، وإنما يقوم زيمل فيه باختيار عملية ميكانيكية. وتتمثل نقطة الانطلاق في ثلاث عجلات دوارة فقط. ألا يتحدث المرء عن عجلة أو دورة العودة الأبدية؟ ومن هنا فالنموذج مناسب جدًا. وكذلك فإنه من المناسب استخدام نموذج ميكانيكي؛ لأن نيتشه نفسه يصل إلى رأيه عبر براهين العلوم الطبيعية.



لنتصور إذن ثلاث عجلات متساوية في الكبر تدور حول المحور نفسه. والآن يرسم المرء في خط واحد على كل من العجلات الثلاث نقطة، ثم يقوم المرء بدفع العجلات بطريقة تكون فيها العجلة الثانية أسرع مرتين من الأولى. أما العجلة الثالثة، التي واجبها هز لعبة نيتشه الفكرية وإصابتها بالاضطراب، فينبغي أن تعطي سرعة مقدارها (p) (p/1 = الرقم pi = ثلاثة ثم فاصلة وبعدها كسر لا نهاية له). والآن ينبغي أن تدور هذه العجلات دون توقف، وهو ما يمكن حدوثه إذا ما تصورنا عدم وجود تآكل. والسؤال الآن هو: متى تصير النقاط على الخط نفسه مرة أخرى؟ أو بطريق أخرى: متى تتيسر العودة الأبدية للشبيه؟

لأن العجلة الثانية أسرع بمرتين من الأولى فإن النقاط الثلاث ستصبح بعد دورتين على الخط نفسه ثم مرة أخرى بعد أربع دورات،... وهكذا. وإذن فالعودة الأبدية للشبيه أصبحت مؤكدة، ولنيتشه يحتفل بانتصاره! لكن العجلة الثالثة تحدث بعض الصعوبات. لنتذكر مرة أخرى كيف كانت سرعة دورانها؟ نعم هذا صحيح: إذا ما دارت العجلة الأولى حول محورها مرة ينبغي للثالثة أن تدور بسرعة مقدارها (p/1). حسنًا، وإذا ما دارت العجلة الأولى حول محورها مرتين للثالثة أن تدور بسرعة مقدارها (p/2). لقد كان الجدير بكل شيء أن يصبح سهلاً دون مشاكل إذا ما كانت العلامة (p) تساوي ثلاثة بالضبط، إذن لأمكن أن تصبح النقطتين (الأولى والثالثة) على الخط نفسه بعد ثلاث دورات للعجلة الأولى. ولكن العلامة (p) لسوء الحظ تساوي رقمًا لا نهائيًا؛ فهي تجر بعد الفاصلة طابورًا لا نهائيًا من الأعداد التي لم يتمكن أحد حتى الآن من حسابها.

"هذه" اللانهائية للعدد (p)، حتى وإن بدت غير خطيرة، أطول نفسًا من لانهائية نيتشه. وذلك لأن أي من هذه الكسور ((p/1)، (p/2))، (p/3) لن يصبح مرة أخرى عددًا كاملاً حتى وإن دارت العجلات للأبد. فالكسور يجب أن تصبح أعدادًا كاملة، وهنا فقط

يمكـن للنقـاط الثـلاث التـي عليهـا العجـلات الثـلاث عـلى الخـط نفسـه مـرة أخـرى.

مـاذا ينتج عـن هـذا؟ إنـه يوجـد عـلى الأقـل وضـع كـوني يمكـن للمـرء أن يقـول عنـه باطمئنـان ريـاضي إنـه "لا" يعـود مـرة أخـرى. فالعجـلات لا تلتقـي عـلى الخـط نفسـه مـرة أخـرى، وبذلـك يفقـد دليـل نيتشـه قدرتـه الإقناعيـة، وذلـك لأنـه إذا لم يكـن مـن المؤكـد أن العجـلات تفعـل مـا يريـده نيتشـه؛ فكيـف إذن نضمـن تكـرار الأحـداث التاريخيـة المعقـدة بصـورة لانهائيـة؟

أين تبقى القدرة الإبداعية؟

يرتبـط الفكـر - كـما يـرى كثـيرون - بالومضـات الفكريـة أو بالأفـكار أو بمـا يشـبه هـذا، أو باختصـار: يرتبـط بالإبـداع. فالألعـاب الفكريـة كـما يبـدو لا يمكـن أن توجـد إطلاقًـا دون قـدرة إبداعيـة.

وينبغـي للمـرء أن يتذكـر أن كلمـة (innovare) في الواقـع - هـذا إذا مـا تدبـر المـرء المعنـى اللاتينـي للكلمـة - تعنـي أيضًـا: "أن يعكـف المـرء عـلى شيء مـا مـن جديـد". إذن فليـس الأمـر جديـدًا جـدة تهبـط مـن السـماء، وإنمـا الاهتـمام المتجـدد تكـرره بـشيء مـا! وبالطريقـة نفسـها تعمـل تقنيـات البرهنـة في هـذا الكتـاب، والتـي تفـترض جميعهـا أن هنـاك شـيئًا مـن البدايـة يسـتطيع المـرء أن يعيـد اسـتخدامه.

أمـا وجهـة النظـر التـي تقـف خلـف هـذا كلـه فهـي أن البراهـين الجديـدة تنتـج في الغالـب عـن أخـرى قديمـة، بالضبـط مثـل الصـور الجديـدة التـي تسـتلهم مـن القديمـة، أو الأغنيـات الجديـدة التـي تنتـج عـن أخـرى قديمـة يعرفهـا المـرء. فالمـرء يأخـذ شـيئًا موجـودًا ويعيـد تشـكيله! ولا ينبغـي لهـذه العمليـة أن تكـون نقـلاً غبيًـا، وإنمـا يمكـن أن تعـد عمليـة اسـتلهام وتغيـير دائـم تبعًـا لمبـدأ: لا يوجـد شيء لا يمكـن تحسـينه. وبالطريقـة نفسـها تنتـج التجـارب الفكريـة الجديـدة في العـادة مـن القديمـة. وأحيانًـا تكـون النـوادر أو الشـذرات الروائيـة منطلقًـا لهـذا الأمـر.

ومثـالي عـلى هــذه الأطروحــة يتمثــل في تجربــة فكريــة عبقريــة ومفاجئـة، وهـو يعـود لإمبرتـو إيكـو، ويـدور حـول سـؤال إذا مـا كان مـن الممكـن وصـف العـالم "بدقـة كاملـة"، وهـو سـؤال ليـس بالفـارغ، وذلـك لأن الفيزيائيـين يزعمـون بشـكل دائـم أن هـذا بالضبـط هـو ما سـيتوصلون إليـه قريبًـا، وأنهـم يقتفـون الآن أثـر مـا يسـمى صيغـة معادلـة للعـالم يمكـن انطلاقًـا منهـا شرح كل شيء حتـى جزئياتـه، ولكـن هـل يمكـن أن توجـد صيغـة يمكـن أن تصـف "كل شيء" في الكـون فعـلاً.

وحتـى نبـدأ بالنتيجـة النهائيـة منـذ البدايـة نقـول إن هــذا غـير ممكـن، وإن هـذه التجربـة الفكريـة لإيكـو تظهـر هـذا. وقـد حـدد منـذ البدايـة واجبـه بالكشـف عـن الإمكانيـة النظريـة لعمـل خريطـة لإحـدى البـلاد (أو "الممالـك" كـما يقـول) بالحجـم نفسـه (أي بنسـبة 1:1). وينبغـي لهـذه الخريطـة أن تكـون بهـذا المقيـاس حتـى تكـون منضبطـة لأقـصى الحـدود. وإبـان ذلـك تـسري فرضيـة أن المملكـة ترمـز للكـون، أي أنهـا لانهائيـة الحجـم. وينتـج عـن ذلـك أن الخريطـة لا بـد مـن أن تنشـأ في المملكـة نفسـها، وبالإضافـة إلى ذلـك يجـب فيـما يجـب أن تكـون شـديدة الدقـة، ولكنهـا يجـب أن تبقـى خريطـة أي يمكـن فتحهـا وثنيهـا. وإيكـو يفـرق هنـا بـين ثلاثـة أشـكال لمثـل هـذه الخريطـة؛ فهـي: 1. الخريطـة غـير الشـفافة التـي تغطـي الإقليـم كلـه، 2. الخريطـة التـي يمكـن تعليقهـا، 3. والخريطـة الشـفافة التـي يمكـن وضعهـا أو لفهـا.

بدايـة أثبـت إيكـو أنـه لا بـد مـن وجـود صحـراء مركزيـة لأجـل نـشر الخريطـة ولمهـا. وفي النهايـة ناقـش المشـاكل الإيكولوجيـة التـي تنتـج عـن مثـل هـذه الخريطـة العملاقـة، والريـاح الجديـدة التـي سـتحدثها هـذه الخريطـة يسـتوي في ذلـك مـن أيـة مـادة صنعـت. كل هـذه الاعتراضـات مهمـة، ولكنهـا لا تمنـع وجـود مثـل هـذه الخريطـة. ولكـن توجـد مشـكلة حقيقيـة تتمثـل فيـما يـلي: مـا إن ينتهـي العمـل عـلى الخريطـة وغطـي بهـا الإقليـم كلـه فإنهـا تغـير الأصـل الـذي صنعـت طبقًـا لـه. "فالمملكـة" التـي تصورهـا الخريطـة تصبـح مـن خـلال ذلـك موسـومة بأنهـا إقليـم مغطـى بالكامـل بخريطـة، وهـذه الحالـة الجديـدة لا تصورهـا الخريطـة

إياها. الإمكانية الوحيدة لحل هذه المشكلة تتمثل في عمل خريطة جديدة تصور لنا المنطقة مع الخريطة الملقاة عليها أو المعلقة فوقها، ولكن هذا سيصبح أمرًا لا نهاية له.

وهكذا يصل إيكو أخيراً إلى النتيجة التالية:

1. أن خريطة بالحجم نفسه (أي بنسبة 1:1) لا تصور لنا الإقليم بالدقة المطلوبة دائمًا.
2. أن المملكة ستصبح في اللحظة نفسها التي تعمل فيها الخريطة غير ممكنة التصوير.

إلى هنا ينتهي الحديث عن هذه التجربة الفكرية التي تجعل المتفائل متشائمًا من إمكانية التوصل مرة في وقت ما لمعرفة كلية وتامة في الوقت نفسه، كذلك لن توجد صيغة معادلة للعالم، وذلك لأنها لا بد من أن تحتوي على نفسها.

والآن لنعُد للسؤال الذي انطلقنا منه، كيف يصل المرء إلى مثل هذه اللعبة الفكرية؟ هل من خلال الفانتازيا والموهبة؟ أم من خلال الإبداع؟ لا هذا ولا ذاك، وإنما من خلال "استلهام" المرء بطريقة ما. ويمكن أن يقال أيضًا: بأن يقوم المرء بالسرقة.

لقد استعار إيكو فكرته، مثل كثيرين غيره، من قصة للكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس Borges (1899-1986)، الذي كرمه إيكو في رائعته "اسم الوردة" بوصفه حارس الكتب الأعمى جورجي دي بورخوس). وهذه القصة لبورخيس اقتبست في بداية التجربة الفكرية لإيكو، وهي توجد في كتاب بورخيس "التاريخ الكوني للخزي" ونصها:

"وفي هذه المملكة وصل فن صناعة الخرائط درجة من الكمال جعلت خريطة أحد المقاطعات تحتاج لمدينة كاملة لفتحها، وخريطة المملكة تحتاج لمقاطعة. ومع الوقت لم تعد هذه الخرائط الكبيرة مرضية؛ فقام مركز صنع الخرائط بعمل خريطة للمملكة بنفس حجم المملكة بالضبط حتى إنها تغطي كل أجزاء المملكة. وقد رأت الأجيال

التاليـة، التـي لم تعـد تهتـم بدراسـة الخرائـط بالجديـة نفسـها، أن هـذه الخريطـة العملاقـة غـير مفيـدة؛ لـذا فقـد أهملوهـا دون احـترام عرضـة لأفعـال الشـمس والشـتاء لتفعـل بهـا مـا تشـاء. وفي صحـاري الغـرب مـا زالـت توجـد بقايـا للخريطـة يسـكنها الشـحاذون والحيوانـات، وفي كل البـلاد لم تعـد توجـد أيـة بقايـا للعلـوم الجغرافيـة".

فهنـا - دون ريـب - توجـد "الفكـرة الأساسـية" لتجربـة إيكـو، ولكنـه لم ينقـل الفكـرة هكـذا بسـهولة وفجاجـة، وإنمـا قـال لنفسـه: "هنـا مـا زال يوجـد الكثـير الـذي لم يُقـل" وواصـل التفكـير في القصـة واسـتخدمها بهـذه الطريقـة بشـكل جديـد، لكـن الأكيـد أنـه بـدون هـذه الفكـرة لبورخيـس لم يكـن لقصـة إيكـو الرائعـة أن توجـد. هـل يجـب إذن أن يقـال إن بورخيـس هـو الأصـل وأن إيكـو لم يكـن كذلـك؟

في الحقيقـة لقـد ثبـت أن بورخيـس فعـل بالضبـط مثـل إيكـو، وذلـك لأنـه ليـس "مؤلـف" فكـرة خريطـة الحجـم نفسـه (أي بنسـبة 1:1)؛ حيـث توجـد صيغـة أقـدم لأسـطورة الخريطـة، وهـي التـي اسـتخدمها بورخيـس بالتأكيـد كنمـوذج. وهـذه الصيغـة تنتسـب لعـالم المنطـق والـروائي لويـس كارول Carroll (1832-1898) وتوجـد في مؤلفـه "سـلفيا وبرونـو يقـرران". وفيـه نكتشـف هـذا الحـوار بـين البطلـة سـلفيا وعـالم ألمـاني يُدعـى "مايـن هـر":

مايـن هـر: مـا هـي أكـبر الخرائـط في رأيـك التـي قـد تكـون لا تـزال نافعـة؟

سلفيا: تقريبًا التي بحجم ست بوصات للميل.

مايـن هـر: فقـط سـت بوصـات! لقـد أنجزنـا قبـل مـدة وبسرعـة خريطـة بحجـم سـت يـاردات للميـل، ثـم جـاءت الفكـرة الأكـبر عـلى الإطـلاق! لقـد صنعنـا خريطـة بمقيـاس ميـل إلى ميـل!

سلفيا: وهل استخدمتها كثيراً؟

مايـن هـر: لم يتـم فتحهـا ولـو لمـرة: الفلاحـون يعترضـون عليهـا، ويقولـون إنهـا سـوف تغطـى البـلاد كلهـا وتحجـز ضـوء الشـمس. لأجـل

ذلك نستخدم الآن البلد نفسه كخريطة خاصة، وأنا أؤكد لك أنها تعمل تقريبًا بالكفاءة نفسها.

والآن سيقول عشاق الابتكار: إذن فإن كارول كان المبدع، وأن الاثنين الآخرين قد نقلا عنه. ولكن من المحتمل أن كارول أيضًا قد عثر على الفكرة في مكان ما. ولكن من ناحية أخرى لا يمكن الادعاء بأن بورخيس وإيكو كانا غير مبدعين؛ فكل منهما قد أضاف شيئًا. فالقصة قد هاجرت من إنجلترا (حيث عاش كارول) إلى الأرجنتين (حيث كتب بورخيس) ومن هناك إلى إيطاليا، إلى إمبرتو إيكو. فالقصة أصبحت خلال رحلاتها حول العالم أطول وأدق بل وجرى تحسينها أيضًا. لقد عمل عليها ثلاثة مؤلفين، واحتاجوا لذلك إلى قرابة القرن.

الغالبية العظمى من الومضات الفكرية ليست بومضات ولا بأصلية، وإنما هي على الأصح تنقيحات مقنعة لأفكار موجودة. وهنا أيضًا تلعب سوءات الفهم دورًا في هذا، كما يمكن للمرء أن يرى في شعار معاداة الحرب. أما وصف فكرة ما بأنها أصلية فهو يعني في الغالب أن النماذج السابقة لها قد طواها النسيان. فما إن تظهر فكرة لدى مؤلف شهير فإنها تعد غالبًا - بعد وقت قصير - من بين ابتكاراته. وهذا قد يكون الحال مع مثال الأحجار المتساقطة التي استخدمها جاليليو، والتي تعد أصلية فقط لأن المؤلفين المتأخرين نسوا أن هذا المثل مشهور منذ العصور الوسطي، وهو يوجد - على سبيل المثال - لدى الفيلسوف وباحث الطبيعة ألبرت فون زاكسن من القرن الرابع عشر.

المراجع

توجد نظرة عامة جيدة على حقل التجارب الفكرية في كتاب فولفجانج بوشلنجر Buschlinger "أفكار طائشة؟ التجارب الفكرية في مجال العلوم الطبيعية، أخلاقيات ومبادئ العقل" (فورتسبورج 1993). ولأجل الحصول على مادة أغزر أنظر كتاب روي سورنسن Sorensen "تجارب فكرية" (نيويورك 1992). أما المعلومات حول شعار "تصور أنها حرب، ولا يذهب أحد إليها" فقد نقلتها عن "عمود حقائق" في جريدة دي تسيت على صفحة: (www.zeit.de/stimmts).

Wittgenstein



13. انتظار

تحتاج بلورة إحدى الأفكار لوقت. حتى التفكير المقصود لا يساعد لدى حل المشاكل؛ فالراحة مهمة أيضًا. فحينما لا يفكر المرء في المشكلة تتجهز الحلول من نفسها في هدوء. فعدم العمل عمل؛ لأن المرء يستمع لدخيلته وينتظر ما سيأتي. لقد ثبت للمرء - بشكل دائم - أن عدم الفعل ذو قيمة كبيرة حتى لدى الناس الذين يكون عملهم أقرب للعمل بالقطعة أو بالمقاولة. فالعمل الأهم للفيلسوف لودفيج فيتجنشتين Wittgenstein - على سبيل المثال - مبهر جدًا بسبب التنوع والتكثيف، وهو يحوي أعمالاً حول فلسفة اللغة وفلسفة المنطق، وكذلك أعمالاً حول نظرية الألوان، بل إن فيتجنشتين كان فاعلاً كمعماري أيضًا. فالمرء يتصوره عقلاً لا يكل بل يعمل من الصباح إلى المساء يقرأ ويكتب ويخطط، ولكن إذا ما فتح المرء كتابه "اليوميات السرية" فإنه يرى صورة أخرى. يوم بعد يوم يجد المرء النص نفسه: "لم أعمل" أو أيضًا: "تقريبًا لم أعمل" أو: "لم أعمل. فكرت كثيراً". بعد عدة أشهر مع بداية ربيع 1916 تغير كل شيء تمامًا، وأخذ فيتجنشتين يكتب: "أنا أعمل" أو: "لقد عملت" أو حتى: "لقد عملت كثيراً جدًا". وفي صيف 1918 ختم فيتجنشتين كتابه "أبحاث منطقية فلسفية"، والذي كان بمثابة ثمرة لعمله وعدم عمله الطويلين.

ليسوا قلة هؤلاء الفلاسفة الذين أنجزوا أعمالهم من خلال الانتظار، ومن خلال الجلوس، بل ربما من خلال التثاؤب. وقد وصف

الفيلسوف فريدريش نيتشه كيف جاءته الالتماعة الفكرية الحاسمة التي أوحت إليه بكتابه عن "زرادشت". وقد حدث هذا في جبال الألب السويسرية، في مكان استجمام يُدعى سيلز ماريا:

هنا جلست منتظرًا، منتظرًا

- ولكن لا لشيء،

بمعزل عن الخير والشر، أستمتع أحيانًا

بالنور وأحيانًا بالظلال

الكل لعبة وفقط

بحجم البحر وطول الضحى،

بطول الزمن ودون هدف.

هنا، فجأة، صديقتي!

أصبح الواحد اثنين -

ومر بنا زرادشت متهاديًا.

المفكر المنتظر لا يعرف حقيقة ما يريد. جلوسه الطويل على البحر ثبت أنه معقول فقط فيما بعد، حيث بدا بمثابة الإعداد للفكرة الكبيرة. وفي هذا الأمر يختلف الانتظار الفلسفي عن الانتظار في الحياة اليومية. فالانتظار في الحياة اليومية موجه منذ البداية لهدف محدد - كأن تصبح إشارة المرور خضراء أو أن يصبح الطقس أفضل أو أن ينفض الازدحام على الطرق السريعة. أما المفكر شارد الذهن فعلى العكس لأنه ينتظر ولكن ليس شيئًا محددًا. فقط بهذه الطريقة يمكن حقيقة أن ينشئ جديدًا، وذلك لأن الجديد لا يقع في مجال رؤية القديم. فالجديد لا يستنبط على أساس المعروف، وإنما يظهر كبرق في لحظة البرق الخاطف.

يستخدم المتشككون القدامى الانتظار بطريقة خاصة جدًا كي يصلوا إلى هدفهم الفلسفي. كان هؤلاء المتشككون أناسًا يرون من وجهة نظرهم أن اعتقاد الناس في شيء ما بشدة هو ما يجعلهم تعساء أو

حتى مرضى. ولذا يجب على المرء أن يجعل المسافة نفسها بينه وبين كل النظريات، وأن يحذر أن يترك نفسه تقتنع مرة بشيء ما؛ فهكذا فقط يمكن للمرء أن يجد السلام النفسي ويبقى سليمًا معافيًا.

لأجل الحالة التي قد يتورط المرء فيها في مناقشة ما طور المتشككون سلسلة من الأساليب التي يتمكن بها المرء من أن يُفسد أية محاولة لإقناعه. فإذا لم يتمكن المرء في الوقت المناسب من إيجاد برهان مضاد فإنه ينصح من قبل المتشككين بأن يترك الموضوع كله. وأما من يحضر برهانًا ذا روعة خاصة فينبغي على المرء أن يقول له: "تعليلك الذي تحاول أن تقنعني به كان غير معروف للمفكرين القدامى؛ لذا فقد يوجد برهان معاكس واضح، ولكنه ربما لا يحضرنا اليوم وإنما غدًا أو ربما بعد غد؛ لذا يجب علينا ألا نوافق الآن على برهانك الذي يبدو الآن مصيبًا. لتدعنا ننتظر قليلاً؛ ففي القضايا الفلسفية لا توجد عجلة..".

المراجع

حـول الانتظـار أنظـر البحـث الجميـل للوتـر بيكوليـك Pikulik "الانتظـار والترقـب. نظـام حيـاة إبـان عصـور التحـولات والنهايـات، عـلى ضـوء أمثلـة مـن تاريـخ الفكـر والأدب والفنـون" (جوتنجـن 1997). أمـا مـاذا يمكـن أن يحـدث إذا مـا انتظـر المـرء طويـلاً فهـذا مـا ترينـا إيـاه نـكات "فكـر ثـلاث مـرات" المنتـشرة في الكثـير مـن الدوائـر الثقافيـة. في هـذه النكتـة لا ينبـه التلميـذ أسـتاذه حينـما تبـدأ لحيتـه في الاحـتراق، وعندمـا يجـري سـؤاله يقـول أنـه تعلـم أن يفكـر ثـلاث مـرات قبـل أن يقـول شـيئًا. أنظـر مقـال "فكـر ثـلاث مـرات" في الجـزء الثالـث مـن "دائـرة معـارف الخرافـات" (برلـين/ نيويـورك 1981).



Frank Zappa



14 إقــلاب

أخـبرني بفكرتـك الخاصـة أصنـع منهـا فكـرة ثانيـة لم تكـن لتخطـر لـك ببـال. إذا مـا عرفـت مـرة أحـد الآراء فإنـه مـن السـهل أن تصنـع منـه رأيًـا ثانيًـا. فالأمـر يشـبه هنـا مـا يحـدث في الكـولاج السـوريالي الـذي تحـول فيـه مـواد قديمـة متروكـة لعمـل إبداعـي مدهـش. ولكـن الـشيء الأكثر أهميـة أن المـرء في آخـر الأمـر يصنـع مـن المـواد التـي وجدهـا شـيئًا جديـدًا، وذلـك عـن طريـق إعـادة ترتيبهـا وتقييمهـا أو قلبهـا رأسًـا عـلى عقـب.

وهنـا مثـال لعشـاق مغنـي الـروك فرانـك زابـا Zappa (1993-1949). ولنبـدأ بالقصـة أولاً: كان زابـا مدعـوًا لبرنامـج تلفزيـوني لشـخص يُدعـى جو بايـن كان معروفًـا بخبـث طريقتـه في إدارة الحـوارات. ولم يكـن مـن غـير المألـوف أن يقـدم أحـد الضيـوف ثـم يبـدأ في مهاجمـة موهبتـه أو منظـره أو قناعاتـه. وقـد اختلـف في أمـر بايـن؛ فبعـض النـاس يزعمـون أن طريقتـه الجارحـة تعـود في جـزء منهـا إلى واقعـة بـتر سـاقه التـي نغصـت عليـه حياتـه، ولكـن البعـض الآخـر يرفـض هـذا، ويـرون أنـه – بكل بسـاطة – ذو طبـع شريـر. وقـد دُعـي زابـا للبرنامـج في بدايـة السـتينيات حـين لم يكـن طـول الشـعر أمـرًا مألوفًـا لـدى الرجـال. وبعـد أن تـم تقديمـه سرعـان مـا وصـل الأمـر لتبـادل اللكـمات التاليـة:

جو باين: لدي الانطباع بأن طول شعرك يجعل منك فتاة.

فرانك زابا: وأنا لدي الانطباع بأن ساقك الخشبية تجعل منك طاولة.

كانت إجابة زابا رائعة، كان يمكنه بالطبع أن يقول: " كيف تسمح لنفسك بأن تحكم على الناس بمظهرهم؟"، ولكن مثل هذه الإجابة كانت ستعطي الانطباع بالملل والعجز! ولكنه بدلاً من ذلك أخذ نموذج باين واستخدمه ضده. ولجملة زابا التركيب نفسه لجملة مقدم البرنامج، ولكن فقط تم استبدال كلمتين مما أدى إلى قلب المعنى، وهذا بالضبط هو ما جعل الإجابة رائعة، وكانت ستكون - دون هجوم باين الخبيث - أقل ظرفًا ومرحًا؛ فهي قد اكتسبت قدرتها على إحداث المرح فقط من خلال سؤال البداية التمهيدي. وهذا أمر معتاد في عمليات الإقلاب. فهي تحتاج إلى لوح للقفز وهذا ما يكشفه أيضًا المثال الثاني الأقرب لأن يكون دعابة بريئة أو لطيفة تعود إلى أويجن روت Roth (1895-1976):

Rose mit Dornen

لاحظ إنسان في حنق شديد

أن لا ورد دون أشواك

ولكن لا بد من أن يكون حنقه أشد

أن تكثر الأشواك جدًا دون ورد.

هنا لا توجد أية إجابة خبيثة، ولكن أويجن روت يفعل أكثر من هذا؛ فهو يصنع من فكرة شعبية أخرى جديدة، وذلك بأن يجعل المقولة الثانية "أن تكثر الأشواك جدًا دون ورود" متطابقة من الناحية الشكلية بشكل يكاد يكون كاملاً مع المقولة الأولى. فالعناصر المعطاة توضع عن طريق إجراء تغيرات طفيفة في سياق نظام جديد مما

يؤدي إلى نشوء معنى جديد مدهش. وهنا أيضًا تعتمد قدرة جملة "أن تكثر الأشواك جدًا دون ورود" على المقدمات وتتبدد دون هذه الخلفية. هذه البنية المزدوجة هي سمة مميزة لعمليات الإقلاب؛ فهي تربط القديم بالجديد، والمعروف بالمجهول، وهي تؤثر لأجل ذلك بشكل مبدع وخلاق.



توجد لعمليات الإقلاب الكثير من الوصفات؛ فالمرء يمكنه التخلي في المقدمة عن بعض العناصر، كما يمكنه أن يضيف بعض العناصر المفردة، وأن يعيد تفسير وتقييم وتغيير العناصر بطريقة مغايرة، (والصيغة الأكثر تداولاً في هذا السياق هي صيغة التصليب: (أ) بدلاً من (ب): و(ب) بدلاً من (أ)). وسوف أشرح بعض هذه الإمكانيات بالأمثلة التالية. ولكن لنتوقف أولاً لدى إعادة الترتيب! وهو أمر يفصح عن نفسه بصفة خاصة في الأقوال المأثورة؛ ففيها يمكن للمرء أن يستبدل العناصر بقليل من الجهد. وهنا بعض المختارات من الحكم المعروفة:

- تعلم أن تتألم دون أن تشكو.
- دون اجتهاد لا يوجد جزاء.
- الفقر مع الصحة خير من الغنى مع المرض.

فمن خلال تبديلات بسيطة يمكن للمرء أن يستخرج من ذلك أقوالاً جديدة:

- تعلم أن تشكو دون أن تتألم
- دون جزاء لا يوجد اجتهاد (أو: دون اجتهاد لا يوجد خراء)
- الغنى مع الصحة خير من الفقر مع المرض.

بالطبع فإن الأمثلة الجديدة (وإلى حد ما) ذات أثر فكاهي فقط على من يعرف الترتيب الأصلي للكلمات.

الاستعمال الشخصي

أما الشكل المفضل لعملية الإقلاب فهو الذي يعمل على علاقة الأنا والأنت لأجل قلبها. ويمكن للمرء أن يستخدم هذا التطبيق بصفة خاصة وبشكل يكاد يكون شاملاً إذا ما تعلق الأمر باختبار دعاوى الآخرين وأوامرهم التي يوجهونها إلينا. وهكذا يمكن للمرء أن يحول نفسه من مأمور إلى آمر، ولنأخذ كمثال هذا الحوار بين أحد التلاميذ وأمه:

السيدة ماير: آه، والآن عليك أن تشرب حليبك - كم هو لذيذ وشهي!!!

ماير الابن: كل يوم حليب!

السيدة ماير: ولكنه صحي جدًا!

ماير الابن: ولكني لا أحب الحليب!

السيدة ماير: وفيه فيتامينات كثيرة جدًا!

ماير الابن: ولماذا إذن لا تشربين أنت حليبًا ما دام فيه كل هذه الفيتامينات؟!

فهذه إجابة مقنعة، وإلا فما هو الأكثر منطقية من الرغبة في التأكد مما إذا كان من يلقي علينا النصائح يلتزم شخصيًا بالنصائح نفسها أم لا؟ فالابن لا يقوم هنا بإعادة ترتيب الكلمات، وإنما بتبادل الأدوار؛ حيث تتحول مرسلة الرسالة إلى مستقبلة لها. أما الرسالة نفسها فلم تتغير. فمثل من قبيل "لتنظف بداية أمام بابك" هو المثل السائر الذي يحقق منهج الالتزام الشخصي، وهو ما ينصح به دائمًا إذا ما بدأ الآخرون في إلقاء النصائح غير المرغوب فيها.

سيناريوهات

عمليـة الإقـلاب تجعـل العـالم يظهـر بشـكل جديـد. لقـد أصبحـت النقلـة الكوبرنيكيـة ومنـذ زمـن طويـل صيغـة متداولـة. فمطـران مدينـة فراونبـورج نيكـولاوس كوبرنيكـوس Kopernikus (1473-1543) قـام بعمليـة استبدال لـلأدوار بـين الأرض والشـمس؛ فلـم تعـد الشمس تـدور حـول الأرض، وإنمـا العكـس أي الأرض حـول الشـمس. وقـد اسـتخدم كوبرنيكـوس العنـاصر نفسـها التـي حـددت صـورة العـالم القديمـة: الشـمس، والأرض، والكواكـب. ولكنـه كتـب سـيناريو جديـدًا (بالمعنـى الحقيقـي للكلمـة) لهـذه الشـخصيات الرئيسـية عـلى المسرح الكـوني.

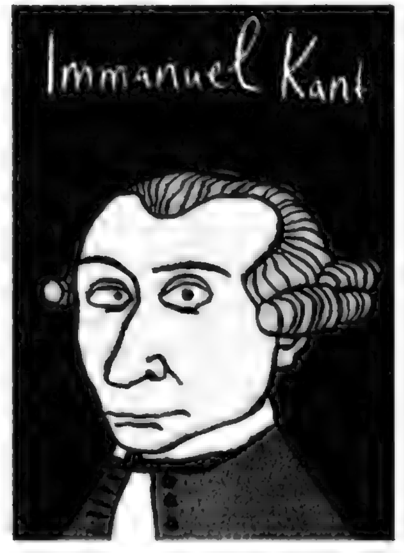
وهـذا يشبه أيضًـا مـا يفعلـه كتـاب السـيناريو الآخريـن. وحتـى نقـوم بقفـزة كبـيرة نقـول إن ألفريـد هيتشـكوك Hitschcock (1899-1980) - عـلى سـبيل المثـال - اعـترف في حواراتـه مـع فرنسـوا تريفـو Truffaut (1932-1984) بأنـه اسـتخدم الطريقـة نفسـها أيضًـا. ولكـن الأمـر لا يـدور هنـا حـول الشـمس والقمـر والكواكـب، وإنمـا حـول مشـاهد عمليـة قتـل. قـال هيتشـكوك:

"وصـل رجـل إلى مـكان قـد يقتـل فيـه. فكيـف يتـم عمـل ذلـك عـادة؟ في ليلـة مظلمـة عنـد تقاطـع طـرق ضيـق في إحـدى المـدن. تقـف الضحيـة في ضـوء أحـد مصابيـح الكهربـاء، حجـارة الرصيـف مـا زالـت مبتلـة مـن الأمطـار الأخـيرة. لقطـة مكـبرة لقطـة سـوداء تسـير بمـوازاة أحـد الأسـوار. نظـرة عـلى شـباك يظهـر خلفـه وجـه غـير واضـح المعـالم لرجـل ينظـر للخـارج. وببـطء تقـترب سـيارة ليموزيـن سـوداء، وهكـذا إلى آخـره. لقـد سـألت نفسي عـن الصـورة العكسـية تمامًـا لمثـل هـذا المشـهد. منطقـة مهجـورة تمامًـا، في وضـح النهـار، دون موسـيقى وبـلا قطـة سـوداء أو وجـه غامـض خلـف إحـدى النوافـذ". وكانـت نتيجـة ذلـك المشـهد المشـهور في فيلـم هيتشـكوك المثـير "الثالـث غـير المـرئي" الـذي هوجـم فيـه كاري جرانـت مـن قبـل إحـدى الطائـرات في أحـد المناطـق المفتوحـة.

كيف يمكن للمرء أن يدحض أينشتاين نفسه؟

حتى في الأشكال الصغيرة للمناقشات والمجادلات والمراسلات يتقابل المرء دائمًا مع عمليات الإقلاب، وإبان ذلك فإن التساؤل عن الالتزام الشخصي محبوب بصفة خاصة. وهنا ثلاثة نماذج كلاسيكية لذلك:

1. كان كتاب "نقد العقل الخالص" لإيمانويل كانط (1724-1804) بمثابة إنهاء لغرور وغطرسة الفلسفة؛ فقبل كانط لم يتورع المفكرون عن إطلاق الأحكام حول العالم أو حول الإله. وقد انتقد كانط مثل هذه الأفكار بوصفها استعلائية، وسخر منها وحرمها بصرامة. فدون الاستناد إلى التجربة يشرع البعض في التفكير، ومن ثم ينبغي وضع نهاية لذلك كله.



كان فريدريش ياكوبي Jacobi (1743-1819)، صديق جوته الذي تحول من نصير متحمس لكانط إلى معارض متحمس له، أول من اكتشف أن كانط يتصرف بشكل مشابه بالضبط للمعارضين الذين يهاجمهم في عمله الشهير، وأنه يطلق أحكامًا حول أمور نظرية لا يمكن التحقق منها تجريبيًا؛ فهو يذهب - على سبيل المثال - إلى أنه لا يمكن التعرف على "الأشياء في ذاتها". ولكنه يعتقد من ناحية أخرى أنها تؤثر على مخيلتنا، وذلك لأنها "تتسبب" حسب كانط في الأحاسيس التي نملكها؛ فكيف تمكن من إثبات هذا؟ فمن الصعب ملاحظة كيف يؤثر هذا الشيء على أحاسيسنا؛ فالأمر يدور هنا حول تأمل نظري محض؛ فكانط نفسه يقترف ما يأخذه على الآخرين. ويختم ياكوبي بقوله: "لا بد من أن أقر بأن هذه الحقيقة عطلتني كثيرًا لدى دراستي للفلسفة الكانطية...،

وقد أصبت طوال الوقت بلوثة، فأنا لا أستطيع أن أدخل إلى منظومته دون هذا الافتراض بأن [الأشياء غير المعروفة بذاتها تؤثر على المخيلة] كما لا يمكنني البقاء داخلها بحضوره لأنها ترفضه". يعد هذا الاعتراض ضمن الاعتراضات الكلاسيكية على كانط، وهو اعتراض ما زال يستخدم لليوم.

2. من المكونات المحورية للفلسفة التحليلية التي ساهم رودولف كارناب Carnap (1891-1970) في تأسيسها مبدأه الذي اعتنق لسنوات طويلة، والذي يسمى معيار المعنى التجريبي. وهذا المبدأ يرى أن إحدى المقولات لا تملك معنى إلا إذا استندت إلى تجارب ("معايشات") أو كانت ذات طبيعية منطقية خالصة. فالمقولات التي تستند إلى التجارب يمكن اختبارها، كذلك يمكن الوقوف على الصحة الداخلية للإجراء المنطقي الخالص عن طريق الفحص الرياضي. هكذا يملك المرء في كلتا الحالتين إمكانية التحكم في مضمون المقولات. وبالطريقة نفسها يمكن التحقق من صدق فرضيات العلوم الطبيعية. أما فيما يخص المقولات الفلسفية فغالبًا ما يختلف الأمر وإلا فكيف يريد المرء أن يتأكد من صحة تأملات نظرية حدسية حول العالم والإله والروح؟ وبناء على هذا ضربت الفلسفة التحليلية بوق الهجوم على الميتافيزيقا؛ لأنه لا نفع لها ولا طائل تحتها. لا شك أن مثل هذا النزع الراديكالي لقيمة إحدى التقاليد الفكرية الكبرى يحدث أثره، ورغم ذلك فإن السؤال يبقى مطروحًا حول الأهمية التي يملكها معيار كارناب المعنوي؛ فهو كما يبدو ليس تجريبيًا ولا منطقيًا خالصًا، ومن ثم لن تبقى إلا إمكانية واحدة هي أنه معيار ميتافيزيقي أيضًا، وبالتالي فلا نفع له ولا طائل تحته.

3. عندما توفي ميشيل بيسو Besso كتب صديقه ألبرت أينشتاين (1879-1955): "بالنسبة لنا نحن الفيزيائيين المقتنعين بالفيزياء فإن التفريق بين الماضي والحاضر والمستقبل هو وهم فقط وإن كان وهمًا عنيدًا جدًا". خلف هذه المقولة تقف نظرية أينشتاين

للنسبية العامة التي جددت تعريف الحاضر، مثل صخرة صلداء؛ ولكن على المرء ألا يفزع من هذا. وقد أوضح الفينومينولوجي هيرمان شميتز أنه يمكن كذلك استخدام منهجية الالتزام الذاتي بنجاح ضد أينشتاين نفسه. فأينشتاين كعالم يجب عليه، تبعًا لشميتز، أن يكون مستعدًا للتعلم. ولكن إرادة التعلم تحتاج من المرء أن يكون مستعدًا لإدراك إمكانية أنه يمكن أن يتعلم في المستقبل شيئًا لا يعلمه اليوم. وهذا ممكن فقط إذا ما أخذ المرء التفريق بين الحاضر أي الآن والمستقبل الذي سيأتي بعد ذلك بشكل جدي، وألا يستبعد هذا التفريق بوصفه وهمًا. وطالما أن أينشتاين يتحدث بوصفه فيزيائيًا يجب عليه أن يتمسك بهذا التفريق وألا يتجاهله ويدفعه جانبًا.

وهكذا يتبين أن شكل الممارسة الشخصية أو الالتزام الذاتي قد استخدم كثيرًا في الفلسفة، بل يوجد من بين الفلاسفة من يؤكد أن هذا المنهج هو أهم المناهج الفلسفية. وهذه مبالغة ولكنها تملك في الواقع، مثلها في ذلك مثل الأشكال الأخرى للإقلاب، تلك الميزة المغرية بأنها تعتمد فقط على المواد التي يقدمها المحاور الآخر. وكلما تميزت كلمات المتحدث بالاندفاع الحماسي كلما أحدثت عملية الإقلاب صوتًا مدويًا.

تحويل الوظيفة

تظهر البراهين دائمًا في سياق محدد تتصل به وترجع إليه، وبناء على هذا يوجد شكل آخر للإقلاب: يتمثل في إعادة تفسير وتوجيه البرهان. وهنا أيضًا يستعمل المرء المواد التي يقدمها الآخر لنا، ولكن بوضعها في سياق آخر جديد. وتنتج الطرافة هنا من مقارنة الصيغة الأصلية للفكرة بصيغتها الجديدة.

وهنا اقتبس مثالي من النقاشات حول ما يسمى بالبرهان الباسكالي. بهذا البرهان حاول الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال Pascal (1623-1662)، الذي انصبَّ اهتمامه على رياضيات لعبة الحظ التي

نتج عنها فيما بعد حساب الاحتمالات، أن يقنع مواطنيه بصواب أسلوب الحياة المسيحية؛ حيث طالب بأن ينظم الإنسان حياته "كما لو أنه" متأكد من وجود الإله. فإذا ثبت في النهاية أن الإله، بعكس ما توقعنا، غير موجود فإن خسارة الإنسان معدومة، وذلك لأن الحياة تبعًا لباسكال لا معنى لها إذا لم يكن هناك إله؛ فإذا كان هناك فإن المكسب يكون كبيرًا بلا نهاية! أي الحياة الأبدية. ومقابل هذا المكسب اللانهائي فإن التضحيات التي يجب على المرء أن يقدمها خلال طريقة حياة مسيحية لا تزن شيئًا، أو كما قال باسكال: "إذا ربحتم، ربحتم كل شيء وإذا ما خسرتم فلن تخسروا شيئًا، إذن فلتراهنوا دون تردد على أنه موجود".



على الأقل استطاع باسكال أن يقنع شخصًا واحدًا بهذا الرهان؛ فقد عاش شخصيًا تبعًا للوصايا المسيحية؛ حيث تخلى في كهولته عن كل الأعمال العلمية، وانسحب للعيش في أحد الأديرة. وقد أثر رهانه في الكثير من معاصريه. فهذا الرهان بدا وكأنه بديل معاصر للأدلة الشكلية على وجود الإله؛ فهو رياضي وذكي ومقنع. وحتى يومنا هذا يستخدم هذا الرهان في العمل التبشيري للكنائس، وقد أوضح عالم الرياضيات جون فون نويمان (1957-1903) الذي تحول إلى العقيدة المسيحية أن الرهان الباسكالي لعب دورًا مهمًا في قراره بالتحول للمسيحية. ورغم ذلك فإن فون نويمان بوصفه رياضيًا قد أقام علاقة جيدة بين المتع الأرضية والحياة الأبدية؛ حيث تركهم يعمدونه فقط وهو على فراش الموت. أما إذا كان هذا الأمر يتوافق مع المعنى الباسكالي فإنه أمر ما زال مطروحًا.

وعلى كل حال، فإن معاصري باسكال قد وجدوا إجابة مضادة لبرهانه الذكي. فقد وضعوا البرهان في سياق جديد ليختبروا إذا ما كان هناك أحد ما زال يستطيع أن يبشر بعقيدته. وقد قال التنويري دينيس ديدرو Diderot (1713-1784) إن هذا الرهان مناسب أيضًا للتبشير بالإسلام، وكتب: "يمكن لأحد الأئمة (أئمة المساجد) أيضًا الاستدلال بالطريقة نفسها". وهنا فعلاً توجد مشكلة البرهنة الباسكالية. فبالطريقة نفسها يمكن أيضًا لأحد المسلمين أن يقوم فعلاً بالتبشير بالإسلام، أو يمكن لأحد رهبان ديانة الأستك أن يبرهن للتضحية بالبشر. وكل من يريد أن يقنع الآخرين بأحد الأديان يمكنه أيضًا أن يستخدم الرهان الباسكالي. وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا الرهان لا يمكن أن يصلح في الدعوة لأحد أساليب الحياة الدينية "المحددة" كما أراد باسكال في الأصل. فمن خلال التغيير المفاجئ للسياق يفقد الرهان بعضًا من قوته الأصلية.

وكدرس عام يمكن أن نستنتج من هذا المثال أنه على الإنسان أن يتساءل أمام كل برهان يجمعه: لأي شيء أيضًا يمكنني أن أستعمل هذا البرهان؟ فاستعمال الشيء في غير موضعه هو مطلب هذا العصر. ويمكننا هنا أن نجد في أمنا الطبيعة مثلاً على ذلك؛ فالفضل في قدرتها الإبداعية لا يرجع لخلقها لأشياء جديدة، وإنما أكثر من هذا لإعادة الخلق المستمرة لما هو موجود. وهذا ما يمكن للمرء أن يصفه بأنه إعادة تركيب للموضوعات الحية: فتحول بنشاط مفصل فك إلى عظمة أذن وتوظف كيس أمعاء ليكون رئة. فالعمود الفقري يستخدم لدى الأسماك لتحريك ذيولها ولدى الإنسان لحمل رأسه بطريقة سليمة.

تركيب الماء (H_2O) والفكر الإقلابي

وختامًا نلقي نظرة سريعة على العلوم الطبيعية، وذلك لأنها أيضًا تشارك الإقلابات في قضايا الابتكار. وهكذا يرجع الفضل في اكتشاف الصيغة الكيميائية للماء لاستنتاج إقلابي. ففي عام 1800 سمع الكيميائي البريطاني همفري ديفي Davy (1778-1829) عن آلة الأعمدة الغريبة التي بناها زميله اليساندرو فولتا Volta (1745-1827)،

التي تتكون من صفائح مصنوعة من معادن مختلفة، ويوجد فيما بينها ورق مقوّى مبلل بماء مالح. كانت الآلة بحجم حجرة. وحتى وقت هذا الاختراع لفولتا لم يكن قد تيسر بعد إنتاج تيار كهربائي مستمر. ومباشرة خمن ديفي أن التيار الكهربائي ينتج عن التفاعلات الكيميائية؛ إذن فالكيمياء تنتج التيار الكهربائي! ومن ثم فإن العكس لا بد من أن يكون ممكنًا أيضًا: أي أن ينتج المرء من التيار الكهربائي كيمياء. وبالفعل ثبت أن هذه الفكرة كانت خصبة للغاية. لقد تيسر لديفي أن يحلل الماء بمساعدة التيار الكهربائي إلى جزئياته، وتمكن من التدليل على أن الهيدروجين والأوكسجين يندمجان ببعضهما البعض، وبصفة دائمة عند حجم ثابت. وبهذا تم اكتشاف أساس أهم صيغة كيميائية (H_2O). وبالإضافة إلى ذلك تمكن ديفي بمنهجيته هذه من عزل عنصري البوتاسيوم والصوديوم وبعض العناصر الأخرى، وساعد بذلك في وضع أسس الجدول الدوري للعناصر.

كانت محاضرات ديفي العامة حول اكتشافاته مشهورة جدًا في زمنه، وكانت الكاتبة الشابة ماري شيللي Shelley (1797-1851) مفتونة بمحاضراته تلك، حتى إنها قامت فيما بعد بنقل فقرات كاملة لديفي في رواياتها "فرانكنشتاين"، في محاضرة البروفسور والدمان (ذلك الأستاذ الحكيم العطوف للدكتور فرانكنشتاين المتحمس، والذي سيقتل فيما بعد من قبل الوحش الذي صنعه تلميذه فرانكنشتاين).

1. من يحاول للمرة الأولى يترنح ويتمايل ويشعر كما لو أنه طفل يقف على قدميه للمرة الأولى. فدون دعامة أو مسند ينثني المرء ويسقط للخلف؛ لذا يجب على المرء أن يستند في البداية إلى أحد الجدران، ويتصرف كما يلي:
2. خذ وضع القرفصة ثم ضع قمة الرأس على الأرضية واليدين خلف الرأس واسند على حد الكفين والسواعد.

3. ارفـع الآن المقعـدة، أفـرد الركبتـين، حـرك القدمـين بمـا يشـبه الخطـو باتجـاه الـرأس.
4. خـذ الآن وضعًـا رأسـيًا، وابـقَ دون حـراك لمـدة عـشرة إلى خمس عشرة ثانيـة. في التدريـب الجيـد يمكـن للأمر أن يسـتمر لثـلاث دقائق.
5. أنزل الأقدام مرة أخرى.
6. هـذا التمريـن كـما يعلمنـا أسـاتذة اليوجـا، يطلـق الطاقـات، وأيضًـا يوافـق الأطبـاء: الأعضـاء التـي لا يصلهـا في الوضـع الطبيعـي إلا القليـل مـن الدمـاء يتـم إمدادهـا في هـذا وضـع الوقـوف عـلى الرأس وبشـكل كاف بالأوكسـجين.

المراجع

مـع أن الإقـلاب أسـلوب كـثر اسـتعماله إلا أن الدراسـات التحليليـة حولـه نـادرة. وقـد طـور بيـتر فينتسـل نموذجًا مفيـدًا في أبحاثـه الدقيقـة التـي يحلـل فيـه عمليـات الإقـلاب في كتابـه " مـن بنيـة الدعابـة إلى دعابـة البنيـة، أبحـاث حـول طرافـة النكتـة والقصـص القصـيرة" (هايدلـبرج 1989). وكذلـك في الفصـل الخـاص بليشـتنبرج في كتـاب جيرهـارد نويمـان Neumann "جنـة الأفـكار، أبحـاث حـول الأقـوال السـائرة لـكل مـن ليشـتنبرج ونوفاليـس وفريدريـش شـليجل وجوتـه" (ميونـخ 1976)، وفيـه يجـد المـرء وصفًـا لتقنيـات الإقـلاب لـدى ليشـتنبرج. ومـن المهـم كذلـك التعـرف عـلى توظيـف عمليـات الإقـلاب في المناهـج الإبداعيـة الجديـدة، وفي هـذا السـياق يعطينـا هــ أويبلـه Uebele نظـرة عامـة في مقالـه "الإبـداع وتقنيـات الإبـداع" في الكتـاب الـذي حـرره ي. جاوجلـر وف. فيـبر بعنـوان "قامـوس الماهيـة الشـخصية" (شـتوتجارت 1992).

Aristophanes



15 المحاكاة الهزلية

مشهد في ملعب رملي للأطفال: "دع هذا؛ فهذا تبعي!" قال طفل غاضب لآخر يقف أمامه وهو ممسك بجروفه الصغير. ولكن الطفل الآخر مأمأ قائلاً: "نانننانا نانننانا نانننانانانه". إلى هنا ينتهي بحثنا الميداني. لكن يوجد شيء أكيد؛ حيث يوجد أناس معًا فإنهم يحاكون بعضهم البعض، سواء أكان هذا لرغبة في الهجوم أم الإعجاب أم - وبكل بساطة - بسبب الملل.

وتدل إمكانية تقليد صوت الآخر على قدرة نادرة أو على الأقل على الحذق والمهارة، أما الآخر فيفاجأ مدهوشًا ويقع عليه الأمر كما لو أن أحدهم قد سرق روحه وراح يتصرف فيها. خدعة شريرة.

المحاكاة الساخرة نوع من التقنع. فالمتقنع يضع تبعًا لسيناريو كتبه بنفسه قناع الآخر ويتقافز على الأرض مستعرضًا نقاط ضعفه لإغاظته ولإثارة مرح الجماهير. ويمكن لهذا أن يكون فكاهة لا بأس بها، ولكنه يمكن أن يكون أيضًا بمثابة سلاح قاتل، وذلك لأن المرء لا يخاف شيئًا قدر خوفه من أن يكون موضعًا لسخرية. والضحك يكون مفرحًا ولطيفًا كعلامة على إنسانية مرحة، ولكن هذا لا يعنى أن كل ضحك يكون إنسانيًا؛ فالمحاكاة الساخرة يمكن أن تكون وسائل للقذف أو نداء للقتل. وكلمة المحاكاة الساخرة Parodieren تأتي من اليونانية والمقطع الأول منها Para يعني بموازاة أو بجوار أما المقطع

الثاني ôdè فيعني أغنية، أما الفعل المشتق من هذا parôdein فيعني تقريبًا محاكاة غنائية مع بعض النشاز.

محاكاة خبيثة

تنتج المحاكاة الساخرة حين يملك البشر إمكانية مراقبة بعضهم البعض، ويكون مسرحها فناء المدرسة أو المطعم أو في المكتب. وهي تظهر في دوائر أخرى أيضًا: في عالم الأدب أو في عالم الموسيقى، بل إن المجال العلمي الذي يبدو موضوعيًا ييسر ظهورها. فقرب المجالات البحثية التي يوجد فيها العلماء مقابل بعضهم البعض، والقرب الاضطراري لزملاء التخصص والإجهاد المرتبط بذلك يجعل النظر في خصائص الآخرين أدق، وهذه يتم نقدها ليس فقط ببراهين هادئة متحضرة، وإنما أيضًا بسخرية مدمرة.

ولهذا تقاليد قديمة تعود للعصور العتيقة. أرسطوفانيس Aristo-phanes (385-445 ق.م.) كاتب هزلي عبقري معاصر لأفلاطون، وهو يحاكي في أعماله الكوميدية كبار شعراء التراجيديا بطريقة استهزائية، وهو ما كان يفعله أيضًا مع السياسيين والقادة العسكريين ومع الفلاسفة الأوائل.

في عمله الكوميدي "السحب" نجد سقراط نفسه موضع لسخريته، وهو يأتي في المسرحية بوصفه "راهب الكلمات الآبدة" الذي يراقب العالم من أعلى صارية، ويقدم إجابات مفاجئة للأسئلة الملحة. وفي مشهد الافتتاح نرى تلميذًا محتملاً لسقراط، رجلاً يدعى ستريبسيادس، يتحاور مع أحد مساعدي سقراط الذي يخبر ستريبسيادس بالموضوعات الآنية التي يهتم بها الأستاذ:

سكولر: وهنا سأل هاريفون من سفيتوس سقراط عما إذا كان طنين الناموسة يصدر من الفم أم من المؤخرة.

ستريبسيادس: ولكن كيف أجاب على سؤال الناموسة؟

سكولر: قال إن بطن الناموسة ضيق جدًا؛ لذا يمر الريح من خلال أنبوبتها الضيقة بكل قوته وباستقامة تجاه المؤخرة. ولكن ولأنه بعد الضيق يكون الاتساع تبدأ المؤخرة بسبب قوة الاندفاع في القصف.

ستريبسيادس: إذن فإن مؤخرة الناموسة هي نوعًا ما من قبيل الترومبيت؟ يا له من سعيد من هو على دراية بهذه الخصوصيات! إن من يمكنه المشي عبر أمعاء الناموسة يسهل عليه ولا ريب أن يعالج كل القضايا!

وقد زعم في بقية المسرحية أن سقراط يكذب الآلهة ويعبد بدلاً منها السحب التي تتكون من بخار رقيق والتي يمكنها أن تتشكل بكل الأشكال. وقد انتهت الكوميديا بطريقة حادة؛ حيث قامت جماعة من الغاضبين بوضع النار أمام بيت سقراط. ومنذ ذاك أصبح الفلاسفة - بشكل متكرر - هدفًا للهجمات الساخرة من كل نوع، بل إنهم يسخرون كذلك من بعضهم البعض.

"المحاكاة مما يُفطر عليه الناس" هذا ما كتبه أرسطوطاليس في كتابه عن "فن الشعر" (البويطيقا) "أنها تهب الناس السعادة". فالكثير من المحاكيات تنتج عن استمتاع محض باللعب المهاري للتقليد. وهي سعادة تنتقل للمشاهد حينما يتعرف على التقليد. أما الشخص الذي يحاكى فلا يجد في الغالب في ذلك مرحًا.

وتعمل السخرية الناقدة تبعًا لمبدأ سحر التماثل المضر، وهي تحاكي الأصل، وتحصل بهذا على من تستطيع أن تمارس عليه فعلها التدميري، ويشبه هذا ما يفعله راهب ديانة الودون بعروسة القش التي يثقبها بالإبرة كي يجرح منافسه. من حيث المبدأ فإن كل شيء قابل للمحاكاة الساخرة: الفاشل مثل الناجح. فالمقلد الساخر لا يحتاج إلا لبعض السمات المميزة كي يبرزها بشكل حاد في محاكاته. وذلك لأن أهم شيء في المحاكاة أن يتعرف الجمهور على النص المحاكي أو الإنسان المحاكي.

ولذا فإن الأغنيات أو المحاكيات الساخرة ليست فكاهية في كل الأحوال، وإنما فقط لأناس معدودين وفي وقت معين. وإذا ما شرح

المرء لآخر علام يضحك فإن رد الفعل يكون في أغلب الأحيان جملة تظهر خيبة الأمل: "أخ هكذا... وما المضحك في هذا؟" والنماذج التالية للمحاكاة الهزلية سوف تثير ضحك أو ابتسام من يعرفون الأصل فقط.

المثال الأول يرجع إلى الفيزيائي والكاتب جيورج كريستوف ليشتنبرج. والأمر يتصل من الناحية الموضوعية بما يسمى علم الفزيولوجيا، إذن حول النظرية التي تدور حول إمكانية الكشف عن الصفات الشخصية لأحد الناس عن طريق بعض سمات الوجه وبنية الجسم. وقد تناولت هذا الموضوع في فصل القرائن. وكان جوته كما شرحت معجبًا بالفزيولوجيا حتى إنه عالج منشورات يوهان كاسبر لافاتر. وهكذا فإن بعض توصيفات الصور في كتاب "شذرات فزيولوجية" للافاتر أصبحت وبشكل مفاجئ ذات رنين شعري:

(حول تمثال نصفي لهوميروس):



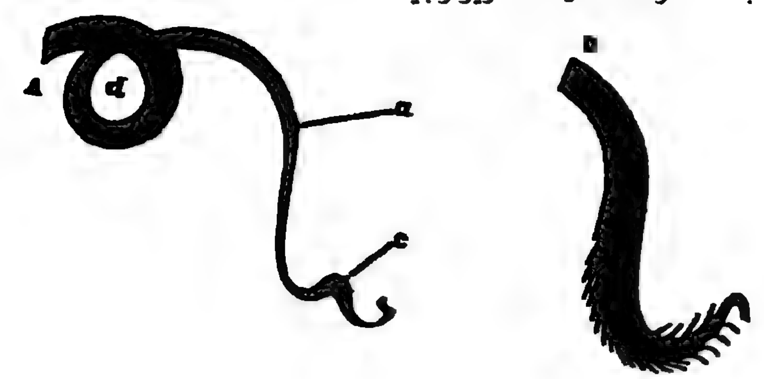
"وجه طيب، أبوي، موثوق به كله إنسانية ووفي القلب! مثل هذه الجبهة تخص رائيًا وليس باحثًا! الأنف رهيفة، وهي ليست بالحلوة ولا بالغليظة. ويظهر الجزء الموصل للشفة العليا إنسانًا مملوءًا بالخير والحكمة. وأنا أسمح لنفسي بأن أكتب مشاعري حول هذا التمثال النصفي المصنوع من الجبس والواقف أمامي. وإذا ما وقفت دون معرفة أمام هذا التمثال لقلت: الرجل لا يرى ولا يسمع ولا يسأل ولا يتطلع ولا يؤثر. ويتمثل مركز حواسه كلها في أعلى الجبهة المنحنية بيسر. وفي هذه الجبهة حفظ كل شيء كصورة: كل أعصابها مشدودة لأعلى لجعل الشخصيات الحية تعبر عن طريق الأشداق المتحدثة... إنه هوميروس! وهذه هي جمجمته التي يملك فيها الآلهة الجبارة والأبطال فضاءً يشبه ما بين السماوات الواسعة والأرض التي لا حدود لها".

ليشتنبرج. يلعب دور لافاتر

بالنسبة لتنويري مثل ليشتنبرج كان الحماس الذي ينتج عن هذا التفسير للوجوه أمرًا مشكوك فيه؛ فهو لا يعتقد أن شخصية المرء يمكن استنتاجها من خلال الوجه، ولكنها تفصح عن نفسها فقط من خلال التصرفات والمعاملة، وهو يهاجم الفزيولوجيا في مقالات عدة، وفيما بعد نشر محاكاة ساخرة يقلد فيها الأسلوب الشاعري المضطرب لنص جوته-لافاتر. وهو يختبئ في قناع أحد الفزيولوجيين، وقدم نفسه كتلميذ مخلص للفزيولوجيا، وأنه يحاكي فقط ما قدمه الأستاذ بشكل لا يقارن، ولكن يتمثل لب هذا التنكر أو التقنع في أنه يطبق هذا المنهج ليس على الوجوه، وإنما على الذيول.

شذرة عن الذيول

بحث حول الشذرات الفزيولوجية.



1. بطولة، قوة:

(A) ذيل إحدى الخنزيرات.

(B) ذيل الكلب الإنجليزي.

(A) إذا لم تـر، عزيـزي القـارئ، في هـذا الذيـل الشـيطان في قذارتـه (سـواء كنـت لم تتعـرف بوضـوح في (a) عـلى الرغبـة العارمـة للخنـزرة، أم لم تشـم بالعـين رعـب إسرائيـل في (c) كـما لـو أن أنفـك في داخلـه، والقـذارة الشـديدة التـي ينمـو فيهـا في (d))، وإذا لم يبـد لـك أنـك تدخـل إلى مخلفـات الطبيعـة وإلى تقـززات كل العصـور والشـعوب التـي تمثـل مـادة هـذا الخنزيـرة - إذن فلتقفـل كتـابي لأنـك بالنسـبة للفزيولوجيـا مثـل معـدوم.

هـذه الخنزيـرة التـي كانـت موهوبـة جـدًا بقيـت لأيـام طويلـة خاملـة في القـذارة، وهـي تسـمم شـوارع كاملـة برائحـة قـذرة لا يمكـن وصفهـا، دخلـت إلى كنيـس في الليـل ونزعـت عنـه قداسـته، وحينـما أصبحـت أمًّـا افترسـت بفظاعـة لم يسـمع مثيلهـا ثلاثـة مـن أولادهـا وهـم أحيـاء، وحينما كانـت تريـد توجيـه حقدهـا الافـتراسي إلى طفـل مسـكين، طعنـت بسـيف الانتقـام؛ حيـث طعنهـا شـحاذ شـاب، وافترسـت دون أن يتـم طبخهـا مـن قبـل مسـاعدي أحـد الجلاديـن.

(B) أنت يا من تحتضن الطبيعة بقلب إنساني دافئ، أنت يا من تستشعر نفسك في كل أعمال الطبيعة بكل إعجاب، أنت يا قارئي العزيز، أيها الصديق الغالي للروح، انظر إلى ذيل هذا الكلب. واعترف بأن الإسكندر الأكبر إذا كان يريد أن يرتدي ذيلاً لم يكن ليأنف من ارتداء مثل هذا الذيل. هذا الكائن ليس لينًا على الإطلاق أو ذليلاً أو مدللاً تحمله السيدات، وليس حلوًا ولا يشبه فأر وليس بالصغير، يتميز بفحولة شاملة، مستعدًا للفعل، ذو طلعة ملوكية شامخة، ونظرة هادئة، متروية، ذو قوة داخلية آسرة، وهو أبعد ما يكون عن الخنوع بين القدمين، وعن التمدد كما هو الحال عند كلاب الدجاج، وعند رؤية الأخطار، والخوف، وعدم القدرة على اتخاذ القرار.

هذا الذيل يخص كلب حراسة هاينريش الثامن، وهو يدعى قيصر، وكان قيصر فعلاً. كان يوجد على رباط عنقه بحروف ذهبية الشعار التالي: "إما قيصر وإما لا". وكانت عيناه توحي بالشيء نفسه، ولكن أكثر وضوحًا وأكثر نارية. وقد مات بسبب صراع مع أحد الأسود، وقد مات الأسد قبل قيصر بخمس دقائق. وحينما نودي أن ماكس الأسد قد مات حرك ذلك الذيل الخالد ثلاث مرات ومات مثل بطل كسير.

كيف تعمل المحاكاة الهزلية؟

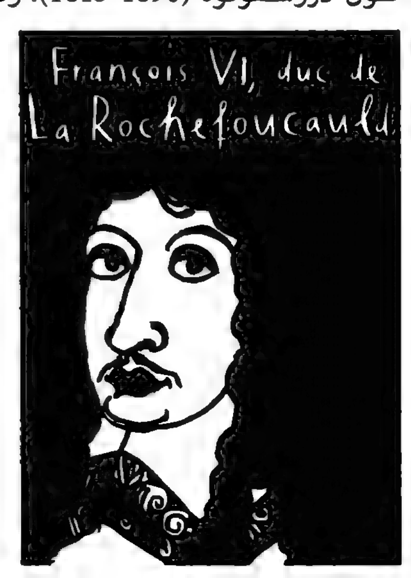
لا توجد وصفة للمحاكاة الهزلية، ولكن توجد على كل حال بعض اللبنات المتكررة بكثرة. تتمثل نقطة البداية في "محاكاة" أسلوب أحد المؤلفين أو حركاته أو صوته أو أسلوبه في تقديم نفسه. عنصر ثانٍ مهم يتمثل في "التبديل الهزلي". ويتمثل لب هذا الأمر في تبديل ما يهتم به من تجري محاكاته بما يمكن من الأشياء الهزلية، وفي هذا السياق فإن الأشياء الدنيئة - الذيول هنا - مناسبة جدًا. كان يمكن لليشتنبرج أن يختار المقعدة موضوعًا لملاحظته الفزيولوجية؛ حيث إن لها على كل حال شكلاً ومنظرًا، ولكن ذيول الكلاب أكثر وضوحًا وقدرة على بعث المرح. وليشتنبرج يحاكي الطريقة الأخلاقية الفخمة والمتحذلقة

للفزيولوجي لافاتر حتى أدق الجزئيات، وهو لا يستخدم فقط الرسوم الموضحة، وإنما أيضًا الحذلقة نفسها، بل ويوقع نفسه في التناقض، ويعطي لكل جزء من الذيل حرفًا. أي أنه يحاكي حتى الدقة الزائفة للفزيولوجي، وهكذا ينتج انطباعًا "بالتصنع" الآلي. فالتأثير الغرائبي يحدث بسبب الهوة الموجودة دائمًا في المحاكاة الهزلية بين الأسلوب المتحذلق والشيء التافه الذي يدور الأمر حوله. وقد صاغ السوفسطائي بروتاجوراس (486-420 ق.م.) Protagoras وهو معاصر لسقراط المبدأ المناسب لذلك: "ينبغي للمرء أن ينسف جدية المنافس عبر التضاحك وتضاحكه عبر الجدية".

المحاكاة الهازلة هي عادة - كما في المثال الأول - صيغ قصيرة، بل ويلاحظ أنها أقصر من الأصل جدًا، وهي لا تتسبب في ضحك طويل متواصل.

خطاب من عالم الموتى

محاكاة فرنسية جميلة تلعب على مؤلفات الدوق فرنسوا السادس فون لاروشفوكوه (1613-1690). وكان هذا الدوق من أول من كتبوا الحكم والأمثال، جمل محكمة وملاحظات يلمع فيها الذكاء الحياتي. وهي ليست ضافية ولا نظامية وإنما قصيرة. فكاتب الحكم والأمثال يحب الغموض وعلى القارئ أن يواصل التفكير بنفسه.



وتعد أعمال لاروشفوكوه - المعروفة قليلاً في ألمانيا - من الأعمال الكلاسيكية في فرنسا، بل إن بعض جمله قد أخذت مكانها في كتب التعليم المدرسي، على

سبيل المثال مبدأه الإستراتيجي الذي يقول: "في السياسة لا ينبغي للمرء أن يحاول خلق مناسبات جديدة، وإنما عليه أكثر من هذا أن يستخدم ما يسنح منها".

كانت جمل الدوق مشهورة جدًا في القرن السابع عشر، حتى إنها طبعت بعد وفاته طبعة جديدة اشتملت أيضًا على جمل لاروشفوكوه غير المنشورة، ما يسمى "المبادئ المضطهدة" التي وجدت بين ما تركه من أشياء. لقد وجد في فرنسا نوع من الفتنة والإعجاب بالحكم المختصرة، وهو ما يمثل بداية نموذجية لمحاكاة هزلية خبيثة.

وقد اختار كاتبًا المحاكاة الهزلية باول ريبوه وشارلز موللر لهذه المحاكاة منهجية شيقة؛ حيث جعلا الدوق يكتب خطابًا من عالم الموتى يشكو فيه من الطبعة التي ظهرت بعد موته، ويزعم أن كل شيء قد اختلط ببعضه البعض. وذلك لأن ما طبع كان على عكس ما قد كتبه، وقد كتب على سبيل المثال الفكرة التالية: "إنها لحكمة أن يريد المرء أن يكون حكيمًا فقط". أو: "توجد أفراح رائعة ولكن لا يوجد ما هو طيب". أو: "الغبي هو المستعد دائمًا ليكون خيرًا". وقد ظهرت بدلاً من الصيغ العكسية التالية: "ليس من الحكمة أن يريد المرء أن يكون حكيمًا فقط" أو: "توجد أفراح طيبة ولكن لا يوجد ما هو رائع".

هذه المحاكاة الهزلية رقيقة ونادرًا ما تتسبب في إحداث الضحك القوي مقارنة بالمقارنة الهزلية الكلاسيكية التي قام بها ليشتنبرج؛ فهي تتسبب في إحداث شيء أقرب إلى ابتسامة الرضا. لقد هاجم ليشتنبرج حكمة الواعظ لافاتر بطريقة عنيفة، بينما قام كل من ريبوه وموللر بهجوم مقنع. فالخطاب من عالم الموتى يرينا أن الأسلوب المبتكر من قبل لاروشفوكوه للأفكار بعيدة الغور جمل القراءة من كل الاتجاهات؛ فحكمته تؤثر من خلال الشكل فقط أكثر من تأثيرها عن طريق المحتوى.

فريتز هيدجر يلعب مارتن هيدجر

يعد مارتن هيدجر أهم فيلسوف في القرن العشرين، ولأجل ذلك كثيراً ما تمت محاكاته هزليًا. أسلوبه يبدو خاصًا وغريبًا، وهنا عينة من محاضرته "الشيء" (نظرة في ماهيته):

"الشيء هو الإبريق. فما هو الإبريق؟ نقول: إناء أي الذي يحوي ما بداخله. وما يحوي في الإبريق هو أرضيته وحيطانه. هذا الاحتواء يمكن احتوائه باليد. [...]، وإذا ما ملئنا الإبريق عن آخره ينساب السائل لدى الإملاء في الإناء الفارغ. الفراغ هو ما يحوي الإبريق. الفراغ، هذا العدم حول الإبريق هو نفسه في احتوائه الإبريق مثل الإبريق بوصفه إناء يحتوي".

هذا الأسلوب يحوي شيئًا مهدئًا منومًا أو بالنسبة لآذان أخرى شيئًا من التأتأة، وهو يؤثر على كل حال بشكل غريب جدًا. والآن نقول إن مارتن هيدجر له أخ يسمى فريتز هيدجر عاش حياته في مدينة ميسكيرش، مسقط رأس هيدجر. وبينما كان الأخ الفيلسوف مشهورًا عالميًا بقى فريتز موظف بنك، واهتم إلى جانب ذلك بإلقاء خطابات الكرنفال، وكان نموذجًا ومثالاً معروفًا للجميع في مدينة ميسكيرش. كانت ولادته في قمة أيام الكرنفال، وكانت هذا "الحس الكرنفالي" أو "البهلوانية المتأصلة"، كما قال، أهم شيء في حياته.

وكان من المتفق عليه بين أهالي ميسكيرش أن فريتز من الأساس أحد ذكاءً من أخيه الذي أصبح فيلسوفًا مشهورًا، بل إن بعضهم كان يرى أنه ولابد مؤلف الأعمال التي أصبح أخوه بسببها مشهورًا.

على كل حال كان فريتز هيدجر يعرف فلسفة أخيه بالضبط؛ فهو يحفظ المخطوطات، ويصنع منه نسخًا. ولأجل الفيلسوف مارتن كتب فريتز هيدجر ثلاثين ألف صفحة مخطوطة، وحفظها إبان الحرب في خزينة البنك. كان فريتز هيدجر يتأتئ، لكن فقط إذا تحدث بشكل جدي، ولكنه يتحدث دون تأتأة إذا ما بدأ في إلقاء النكات. وكان أحيانًا ما يسخر من أخيه الأكبر. ويرجع الفضل لإحدى نوبات سخريته هذه بحديث الكرنفال التالي، وهو عبارة عن محاكاة هازلة

لأسلوب هيدجر المتأخر. وقد تم الاحتفاظ بالرسوخ والإتقان المعقد، ولكن تم استبدال موضوع الحديث: والموضوع يدور حول آخر ليالي الكرنفال، وهو تغيير مصدره المداعبة والعبث البريء ؛ فهو على كل حال ليس تغيراً عنيفًا مثل استبدال الذيل بالوجه الذي استهزأ من خلاله ليشتنبرج بالفزيولوجيين. وهكذا ظهرت هذه المحاكاة الهزلية اللطيفة:

"الليل يحتوي ما يحتوى؛ فهو يحتوي بأن يتليل، وهو يحتوي بالطريقة التي يتليل بها برميل بالليل. وماهيته هي التصبر في الليل. ماذا يحتوي؟ - ماذا يتليل؟ الموجود الإنساني يكاد أن يتليل. يسهر بسبب الخبل الذي يسببه البرميل، وهو بالتحديد الذي يحرس أو يحتوي وجود البرميل والمحتوى بدوره من قبل الليل. الليل هو الذي يحتوي الوجود. والإنسان هو حارس البرميل. هذا هو دستوره. ولكن ما يحتوي المحتوى هو الفراغ. ليس البرميل هو الذي يحتوي الفراغ، وليس الفراغ هو الذي يحتوي البرميل؛ فهما يستبدلان الدور في الاحتواء. ورغم ظهور البرميل بوصفه هذا إلا أنه كشيء لا يلعب أي دور. فالبرميل يمتلك بقاءه في الليل، والليل يسكب البرميل ببقائه. ومن هدية هذا الانسكاب توجد ليلة الكرنفال. إنه شيء لا يعقل محتواه".

المعيار (X)

لا يقتصر نشاط المحاكاة الهزلية على تناول المؤلفين المفردين فقط، وإنما يمكنه أن يتناول أنواعًا أسلوبية كاملة. ويعد الأول من أبريل تقليديًا بمثابة التاريخ المناسب لنشر مثل هذه المحاولات. ففي الجرائد تحاكى عن قصد "أخبار" ليست حقيقية، أو "تحليل صحفي" يحلل موضوعًا مخترعًا أو مسائل شطرنج لا يمكن حلها لا بالسير إلى الأمام ولا للخلف. وقد نشرت مجلة Spektrum der Wissenschaft (أطياف العلوم) في أبريل 1994 أبحاثًا حول تحويل الجزئيات الأساسية البسيطة إلى شكل بنجويني.

وتوجـد الأجنـاس الهزليـة كذلـك في أكـثر الأماكـن العلميـة قدسـية، في الموسـوعات المتخصصـة التـي يتـم فيهـا في العـادة جمـع بعـد تصفيـات غير معـدودة الموقـف المعـرفي لأحـد الأجيـال. سـيكون مـن المفاجـئ، ولكنـه حقيقـة أنـه في الكثـير مـن الموسـوعات، وهـذا عجيـب، لا توجـد فقـط معلومـات جـادة، وإنمـا أيضًـا مـا يسـمى بالمقـالات الملفقـة أو المزيفـة، والتـي تضعهـا إدارة التحريـر لأجـل المتعـة الخاصـة أو لأجـل إربـاك القـارئ. عـلى سـبيل المثـال في المجلـد الرابـع مـن "دائـرة معـارف الفلسـفة ونظريـة العلـوم" (شـتوتجارت/فايمار 1996) يمكـن التعـرف بوضـوح نسـبي عـلى المقـال المزيـف، وهـو يـدور حـول "المعيـار (x)" ونصـه:

"المعيـار (x) (في الإنجليزيـة: Roentgen criterion) سُـمي تبعًـا للقـول المأثـور "لـن أسـمح لأحـد أن يقنعنـي بـأن (x) هـي (u)". ويعـد هـذا المعيـار في حالتـه النموذجيـة معيـارًا كميًـا يسـمح بالحكـم عـلى درجـة الجديـة (في الإنجليزيـة: degree of seriousness) لأحـد الأعـمال العلميـة (انظـر: علـم) أو أحـد الأعـمال الفلسـفية (انظـر: فلسـفة). والتلفـظ بمعيـار (x) أثبـت وجـود ثغـرة يجـب سـدها بالنسـبة لبحـث تقييـم المنشـورات بعـد أن اعترفـت المؤسسـات الجديـة للنـشر بنسـبة غـير مريحـة مـن الكتابـات غـير الجديـة".

حتـى وإن كانـت طرافـة المقـال فاتـرة بعـض الشيء، فـإن مـن اللطيـف معرفـة أن الحقيقـة الخالصـة ليسـت هـي كل مـا يوجـد في الموسـوعات. وتبعًـا للمعلومـات التـي يحكيهـا بعـض العاملين في دار نشر ميتسلـر Metzler التـي نـشرت "دائـرة معـارف الفلسـفة ونظريـة العلـوم" أن العديـد مـن موسـوعات ميتسلـر تحتـوي عـلى مثـل هـذه المقـالات السـاخرة؛ حيـث يحاكـون أسـلوب الموسـوعات بطريقـة تامـة تجعـل عـددًا ليـس بالقليـل مـن القـراء يأخـذون مثـل هـذه المقـالات حرفيًـا.

التقليد عن اقتناع

المحاكاة لا تكون خبيثة دائمًا؛ فمن الممكن أيضًا أن يقوم أحدهم بمحاكاة طريقة أحد الناس أو أسلوب جماعة ما فقط؛ لأنه يريد أن يقول إنه على المستوى نفسه. وهذا يحدث في فناء المدرسة بأن يقوم تلاميذ معينون بالتصرف بأسلوب آخرين يجدونهم "رائعين"، وذلك بأن يلبسوا بالطريقة نفسها ويتحدثوا بطريقة تشبه طريقته... إلخ. في الفلسفة يسمى مثل هؤلاء الناس بالاسم العريق Epigonen (أي التابعين). وهؤلاء يحاكون بأصدق وأفضل النوايا؛ فهم لا يريدون السخرية من قدوتهم، وإنما أن يظهروا أنهم فهموه وأنهم يتبعونه. فالمحاكاة لا تكون فقط لأسلوب الكتاب ومواضيعهم، وإنما أيضًا غمزاته العصبية وأخطائه اللغوية! وبالنسبة للمحاكاة البريئة تسري أيضًا القواعد التي أثبتناها بالنسبة للمحاكاة الخبيثة الشريرة.

كلما كان الأسلوب شاذًا أو مميزًا، كلما كان مناسبًا للمحاكاة.

المراجع

لا يستغنى حتى الآن في فهم "المحاكاة الساخرة" عن دراسة ألفريد ليدا Liede بالعنوان نفسه، والتي أعيد طباعتها في كتابه "الشعر بوصفه لعبة، دراسات على حدود اللغة حول الشعر اللامعقول" (برلين 1992). نظرة حديثة شاملة حول النظريات المتنوعة حول "الإضحاك" يقدمها أ. هوجلي Hügli في المجلد الخامس من "المعجم التاريخي للخطابة" (توبنجن 2001). كذلك توجد بعض الأشياء الممتعة والمهمة حول موضوع "الضحك" في المقال الخاص به في المجلد الثامن من "دائرة معارف الخرافات" (برلين/ نيويورك 1996). أما ما قدمه جيرار جينيت Genette حول المحاكاة الساخرة في كتابه "أطراس، الأدب في الدرجة الثانية" (فرانكفورت/ماين 1993) فهو عمل تأسيسي وإنجاز أصيل. وقد استخدم كل من هارلد فريكا وروديجر تسومنر تقنية المحاكاة الساخرة لكتابة مدخل لعلم الأدب هو "المحاكاة الساخرة في المجال الدراسي" (شتوتجارت 2000). حول النتائج الفظيعة التي قد يؤدي إليها التقليد يمكن للمرء أن يراجع مقالة "التقليد: مجون وحماقات" في المجلد السابع من "دائرة معارف الخرافات" (برلين/ نيويورك 1993).

Gertrude Stein





التوصيل المتتالي

القطر المتواصل يثقب الحجر: من خلال التكرار فقط يمكن للآراء أن تصبح أمرًا واقعًا، دون تعليل ولو متأخر؛ لذا فإن المعلنين والسياسيين ومجموعات الوظائف الأخرى يقصدون ما أمكن إلى قول كل ما يريدون قوله بطريقة متسلسلة بل يمكن أن يحدث هذا عبر تكرارات ساذجة أو بأن توضع مقولة ما في سلسلة مع مقولات أخرى متشابهة الرنين. وبذا لا تبدو منعزلة، وإنما في رابطة، وبذا تصبح أكثر قوة.

ولكن توجد كذلك سلسلة من التوصيل المتتالي "ليس" لها تأثير مقنع، وذلك لأن شيء ما لا يفوز دائمًا إذا ما تم تكراره، بل إنه يمكن أن يفقد جزءًا بعد آخر من مصداقيته حتى يكون في النهاية ذا تأثير عبثي.

One is doing one thing and then doing that thing again and then another thing and then one thing and the other thing
Gertrude Stein

وإذا ما كررت مقولة ما بشكل دائم؛ فإنها ستبدو في وقت ما آلية ثم متعبة وأخيرًا موضع استهزاء. في بعض الأجزاء المسرحية يستخدم مثل هذا المثير لإثارة المرح والانبساط، ومن ثم يجري الممثلون على

خشبة المسرح، يصطدمون ببعضهم البعض ويصرخون: "إنني مغرم جدًا" أو "أنا حزين جدًا!". وكلما كان ما تلقيه فخمًا، كلما كان من السهل سقوطه من خلال التكرار. وكثيرًا ما يستخدم مثل هذا المثير في المحاكاة الهزلية؛ حيث يجري تكرار أطروحة ما أو مصطلح ما لمرات عديدة أو أن يطبق بعناد حتى يصبح موضع استهزاء. إحدى صيغ هذه التقنية مناسبة أيضًا للنقاشات. كأن يأخذ المرء رأي الآخر ويبين أنه ليس جديدًا أو طازجًا، وإنما مكرر ولمئات المرات. كيف يحدث هذا؟ يرينا مثال من الحياة اليومية: حوار مع أعضاء "شهود يهوه". ومكان الحدث هو سلالم أحد المنازل:

عضو شهود يهوه: اليوم نريد أن نتدبر بعض الأفكار حول نهاية العالم. لقد قال المسيح...

السيدة ماير: بالضبط، حتى المسيح اعتقد أن نهاية العالم قريبة جدًا. بعد قليل كتب بولس الرسول إلى أهل كورنثوس: "لن نموت جميعًا"، وذلك لأن قضاء الإله ينتظر أمام الباب. وسينتقل الراشدون مباشرة إلى الحياة الأبدية. منذ هذا الزمن ضربت أجراس الكنائس ليس أقل من 170 مرة معلنة قرب نهاية العالم. كم هي مضحكة قصة الرياضي وعالم اللاهوت ميشائيل شتيفل، وهو رفيق طريق للوتر، الذي أعلن في بداية عام 1533 من فوق منصة الكنيسة أن نهاية العالم ستكون في العام نفسه، بالضبط في الساعة الثامنة من صباح يوم 19 أكتوبر. وقد حسب التاريخ من خلال حساب الحروف. ومباشرة أهدى الكثير من الناس الذين صدقوه أملاكهم، بل وقام بعضهم بإحراق منازلهم، ولم يعد مالكي المحلات يطلبون أموالاً، ولكن حينما مر الموعد دون أن يحدث شيئًا كان ينبغي إنقاذ شتيفل من الجماعات الثائرة عليه بواسطة الجيش. وقد أوجد لوتر لصديقه عملاً في كنيسة أخرى. وبعد ذلك لم يحدث مرة أن تقدم كمتنبئ، وإنما اهتم فقط بالرياضيات الخالصة حيث اكتشف ضمن ما اكتشف اللوغاريتمات...

عضـو شـهود يهـوه: بالتأكيـد فـإن هـذا لا يدهشـني بالمـرة فالنـاس الذيـن ليسـوا بشـهود يهـوه لا يعرفـون أيضًـا التاريـخ الحقيقـي ولكننـا..

السـيدة مايـر: بالضبـط شـهود يهـوه أنفسـهم هـم مثـال لذلـك. في البدايـة أعلنـوا أن نهايـة العـالم سـتكون عـام 1914 ثـم مـد الانتظـار حتـى عـام 1925 وأخـيرًا إلى عـام 1075.

عضـو شـهود يهـوه: لحظـة لحظـة فالمـرء لا يمكنـه قـول هـذا. رحمتـك يارب...

السيدة ماير: رحمته اقتضت أن يؤجل الموعد لوقت غير محدد.

عضو شهود يهوه: طرق الإله لا يمكن تخمينها.

نهايـة العـالم التـى يتنبـأ بهـا بجديـة تبـدو دراميـة، ولكـن إذا ثبـت أن الرسـالة نفسـها قـد أعلنـت أكـثر مـن مـرة وبحـماس؛ فـإن هـذا الزعـم يفقـد مصداقيتـه فجـأة.

المفاجـئ أيضًـا أن السـيناريوهات التـي تتحـدث عـن نهايـة العـالم تبدو محبوبـة في دوائـر العلـوم المنضبطـة أو الصارمـة. فالفيزيـائي والكاتـب البريطـاني الشـهير سـتيفن هوكنـج Hawking يمثـل وجهـة النظـر أن اكتشـاف نظريـة كبـيرة تـسري عـلى العـالم كلـه سـيتم قريبًـا. وسـيمثل هـذا، كـما يعنـي، نهايـة الفيزيـاء. وقـد كانـت هـذه الفكـرة هـي موضـوع محـاضرة قدومـه اللندنيـة: "هـل نهايـة النظريـة الفيزيائيـة قريبـة؟". فكـرة مدهشـة. وترينـا معرفـة تاريـخ الفيزيـاء أن هـذه الفكـرة نفسـها ذات تاريـخ طويـل. وهـذا مـا عنـاه لـورد كيلفـن Kelvin (1927-1824) تقريبًـا في عـام 1900 بقولـه إن الفيزيـاء يجـب أن تـشرح بعـض الجزئيـات فقـط، وبـذا سـيكون الأمـر منتهيًـا، ولم تكـن نظريـة النسـبية قـد اكتشـفت بعـد! وحـين تطـورت نظريـة الكوانتـم ظـن رواد النظريـة أن عملهـم هـو نهايـة الفيزيـاء، وقـد روي - عـلى سـبيل المثـال - عـن الفيزيـائي ماكـس بـورن Born (1970-1882) أنـه أدلى بملاحظـة مؤداهـا أن الفيزيـاء "سـتنتهي خـلال سـتة أشـهر". آنـذاك لم تكـن التأثـيرات المتبادلـة سـواء القويـة أو

الضعيفـة معروفـة بعـد. بكلـمات أخـرى أن نهايـة الفيزيـاء كانـت قريبـة لمـرات عديـدة.

الغريـب أن بعـض هـذه التنبـؤات كانـت غـير ناضجـة لدرجة مدهشـة. وهكـذا يزعـم منـذ العصـور القديمـة أن اسـتخدام الآلات سـيوفر الوقـت، ويمكـن الإنسـان مـن أن يسـتمتع بوقـت فراغه؛ حتـى إن الشـاعر الإغريقي أنتيبـاروس Antiparos (مـن القـرن الأول قبـل الميـلاد) كتـب القصيـدة التاليـة عـن اخـتراع سـاقية الطحـين:

لتحفظن أيديكن يا طاحنات، ونمن هانئات!

دون سبب تعلن الديكة لكنّ مقدم الصباحات!

ديو (= إلهة الزراعة) جعلت عمل الفتيات للحوريات،

وهن يتقافزن الآن بخفة أمام العجلات،

لأجل أن تقوم الأقطاب المتحركة بإدارة العجلات

وتحرك في دوائر ثقل أحجار الطحين المدورة.

لنحيا الآن حياة الآباء والأجداد،

ولنتمتع بمحاصيل عدم العمل

التي تهديها إيانا الإلهات.

ورغـم ذلـك فـإن هـذا العـصر المتمنـى للفـراغ وراحـة البـال بفضـل سـاقية الطحـين لم يصـل إلى اليـوم. فالتقـدم التقنـي أحـدث في الغالـب أثـرًا عكسـيًا؛ فالأبحـاث الجديـدة أثبتـت أن الحيـاة ليسـت محمومـة في مـكان آخـر مثلـما هـي في البـلاد الصناعيـة الحديثـة. ورغـم ذلـك تمـدح كل آلـة حديثـة تـأتي للأسـواق بأنهـا موفـرة للوقـت.

والآن لنلـقِ نظـرة أخـرى عـلى إحـدى وسـائل تقليـل القيمـة مـن خـلال التكـرار أو الاستنسـاخ، وهـي وسـيلة "التوصيـل الفوضـوي"، والـذي يسـمى أيضًـا Potpourri (أي خليـط). وموضـوع لا يـدور حـول عمـل قوائـم بالمقـولات الشـبيهة بغـرض إضعـاف رأي مـا، وإنمـا بتجميـع الإجابـات الممكنـة المختلفـة عـلى السـؤال نفسـه بهـدف أن يؤثـر تجميعهـا هكـذا

بشكل غريب منفر. إذن فالأمر ليس رتابة، وإنما خليط ونشاز! ومنذ العصور القديمة يتدرب المرء - أحيانًا بنجاح كبير - على عمل هذا الخليط.

وهنا مثال يُستخدم منذ العصور القديمة للنصح بعدم الاعتناء بالفلسفة. والبرهان يقول إن الفلاسفة يعلمون أشياء مختلفة؛ فبعضهم يقول هذا والآخرون يعنون ذاك. ومن خلال فوضى الآراء التعليمية يستنتج المرء أنه لا يوجد في الفلسفة شيئًا ذا بال. ويعود هذا البرهان إلى مدرسة الفلسفة الشكية التي أسست من قبل الفيلسوف بيرون فون إيلس Pyrrhon (270-360 ق.م.). وقد استخدم تلاميذه هذا المنهج ليس فقط للتشكيك في الفلسفة، وإنما في كل القيم الثقافية أيضًا. يوجد في نص قديم: "الشيء نفسه عدل لأحدهم وظلم للآخر، خير لهذا وشر لذاك. وهكذا فإن الفرس لا يرون شذوذًا في النوم مع بناتهم، بينما يعد هذا من الشنائع لدى الإغريق. المساجيون [أحد الشعوب الإيرانية] يتقاسمون نساءهم بينما الإغريق لا يفعلون هذا. الصقليون يحبون القرصنة بينما الإغريق لا يحبون ذلك. كل شعب لديه آلهته، البعض يؤمن بالمصير بينما لا يؤمن البعض الآخر. المصريون يحنطون موتاهم قبل الدفن، بينما الإغريق يحرقون موتاهم، والبايونيريون [أحد شعوب البلقان القديمة] يقذفون بموتاهم في المستنقعات. ومما يستنتج من هذا أن المرء لا ينبغي له أن يصدر حكمًا على ما هو حقيقة، وإنما يفضل أن يحتفظ بذلك لنفسه".

وحتى اليوم تعد البراهين من هذا النوع أمرًا محببًا خاصة إذا ما تعلق الأمر بإثارة الشكوك وإعلان الارتياب.

المراجع

يعالج الأثر المتزايد للتكرار في الكتب التعليمية التي تدور حول الخطابة، أما الأثر الابتذالي له فمجرد ملاحظات متناثرة يقع عليها المرء هنا وهناك، وهكذا أيضًا في عمل كورت شبانج Spang "مبادئ الخطابة الأدبية والإعلانية" (كاسل 1987)؛ ففي الفقرة الثانية من الفصل الثالث في الجزء الثاني، وهي الفقرة التي عرض فيها لصيغ التكرار الخطابية الكلاسيكية، قام أيضًا بمراعاة ضروب "التعداد الفوضوي". وحول التوصيل الفوضوي راجع أيضًا كتاب سابينا ماينبيرجر Mainberger "فن التعداد، عناصر لأجل شعرية العد" (برلين/ نيويورك 2003)، وبصفة خاصة الفقرة الثالثة من الفصل الثاني. ويمكن للقارئ أن يجد أمثلة حول التوصيل الرتيب لدى ماينبيرجر التي تعتمد بشكل خاص على الكاتب وعالم الإثنولوجيا هوبيرت فيشته Fichte (1935-1986) الذي يستخدم هذا المنهج بشكل معكوس. أما فن التكرار لدى جرترودا شتاين Stein فأكثر تعقيدًا من أن نتناوله في هذا الفصل التقديمي. ويعطينا كتابها The making of the Americans لمحة عن أسلوبها الدقيق. أما اقتباس أنتيباروس فموجود في المجلد الأول من كتاب "رأس المال"، وقد نقله ماركس عن ترجمة كريستيان جراف تسوشتولبرج "أشعار عن اليونانية" (هامبورج 1782).

Pythia



17 نـبـوءة

كانـت العِرافـة Orakel (الأوراكل) في العـالم القديـم تمثـل برهانًـا مهـمًا وأحيانًـا حاسـمًا لـدى اتخـاذ العديـد مـن القـرارات؛ فالنـاس يأتـون إلى الأوراكل ليعرفـوا مـا ينبغـي لهـم أن يفعلـوه فيجابـوا بقـول مبهـم ملغـز وعـلى مـن يخصـه الأمـر أن يفسـره لنفسـه. هكـذا قيـل للتاجـر زينـون "عليـه أن يتمـدد بجانـب المـوتى"، وهـذا مـا فـسره لنفسـه بـأن عليـه أن يقـرأ الكتـب القديمـة ويصبـح فيلسـوفًا.

وقـد طلبـت نصيحـة الأوراكل أيضًـا إبـان تصـارع المـدارس الفلسـفية. وهكـذا ذهـب خايرفـون، زميـل دراسـة لسـقراط، إلى الأوراكل في دلفـي ليعـرف مـن الأكـثر حكمـة ومعرفـة بـين البـشر. وهنـا أعطتـه بيثيـا Pythia إجابـة واضحـة: "سـقراط هـو الأكـثر حكمـة مـن بـين كل النـاس".

كانـت هـذه المعلومـة بالنسـبة لسـقراط خـير مشـجع لمـوالاة البحـث. فـماذا كان يعنـي إلـه الأوراكل أبوللـو بقولـه هـذا؟ وهنـا أخـذ سـقراط يتصـل بالنـاس الذيـن عرفـوا بالحكمـة، ربمـا كي يختـبر جدية قـول الأوراكل. وتبعًـا لأفلاطـون فـإن سـقراط وصـل لنتيجـة أن الإلـه فقـط هـو الحكيـم، أمـا الحكمـة الإنسـانية فقيمتهـا قليلـة أو ليسـت لهـا قيمـة بالمـرة. ومـن هنـا فـإن الأوراكل يعنـي أن الأكـثر حكمـة هـو مـن عـرف مثـل سـقراط أن معرفتـه في الحقيقـة قليلـة، وهـي المعرفـة التـي قـادت إلى مقولتـه الشـهيرة: "أعـرف أننـي لا أعـرف".

وجد في العالم القديم عدد كبير من الأوراكل كان أشهرهم الموجود في دلفي في جبال وسط اليونان. وإلى اليوم يمكن للمرء أن يزور بقايا المعبد هناك. ويمكن لنا من خلال بعض التقارير القديمة، وانطلاقًا من المكتشفات أن نكون صورة عن كيفية عمل الأوراكل.

كانت الشخصية الرئيسية هي بيثيا، كاهنة تعيش في عزلة صارمة في معبد أبوللو بدلفي. كانت كاهنات المعبد كلهن ينتسبن إلى أسرة واحدة في دلفي، وكان اختيارهن يتم على الأرجح عن طريق الاقتراع. وفي البداية اقتصر الأمر على فتيات صغيرات، ولكن بعد أن خُطفت إحداهن من قبل أحد الزوار المغرمين اتفق على اختيار سيدات متوسطة العمر لهذه الوظيفة.

كانت بيثيا الدلفية تجلس على كرسي ذي ثلاث قوائم يستخدم في العادة للطبخ. كان هذا الكرسي الثلاثي، تبعًا لبعض التقارير القديمة، منصوبًا فوق تشقق أرضي تخرج منه أدخنة تجعل الكاهنة في حالة غيبوبة، ولكن الحفريات في دلفي لم تكشف عن تشقق أرضي شبيه. الاحتمال الأكبر أن الكاهنة كانت تجعل نفسها من خلال روائح البخور أو عبر وسائل أخرى في حالة من النعاس.

وكان الباحثون عن نصيحة الأوراكل لا يلقون بأسئلتهم عليها مباشرة، وإنما على من يشرفن (أو يشرفون) على الطقوس فيهمسن (أو يهمسوا) بدورهن (أو بدورهم) في أذن بيثيا التي تجلس خلف إحدى الستائر. بالنسبة للأسئلة اليومية كانت الإجابة بلا أو نعم. أما فيما يخص الأسئلة السياسية الصعبة فكانت بيثيا تجيب عنها بشكل أكثر تفصيلاً، ولكن في الغالب بأبيات شعرية ملغزة. وفي بعض الحالات المهمة سجلت هذه النبوءات كتابيًا ثم تمت أرشفتها، وبالتالي حفظت لنا.

على سبيل المثال نصحت الكاهنة بعثة من أثينا كانت تريد أن تعرف كيفية لصد زحف ملك الفرس أحشوروس الأول Xerxes (520-465 ق.م.) بالكلمات التالية:

من أعلى قمم المعابد يتدفق دم أحمر غامق كرمز لسوء الحظ المحدق.

فلتتركوا الغرفة المقدسة ولتبقوا شجعانًا إبان الويلات والخطر!

فقط السور الخشبي، الذي لن يدمر، يهديه كبير الآلهة زيوس لابنته أثينا،

لأجلك أثينا ولأجل الأطفال فلتستخدموه.

بهذه الأقوال عادت البعثة إلى أثينا؛ حيث اختلف في البداية حول معنى الكلمات. كان البعض يرى أن السور الخشبي يعني هنا شجيرات الأشواك الكثيفة حول الأكروبول. ولكن سيطر في النهاية تفسير آخر مؤداه أن المقصود هنا بناء أسطول حربي؛ لذا استعدوا لمعركة بحرية جرت أحداثها لدى سلاميس وأحرز فيها الأثنيون نصرًا كبيرًا على الأسطول الفارسي الأكثر عددًا وتسليحًا. أما من أين لبيثيا بحكمتها هذه؛ فهذا ما يختلف حوله. فمن ناحية كان معبد دلفي من خلال علاقاته بأجزاء العالم القديم على معرفة جيدة بما يدور فيه. ومن المعروف أن البشر في الحالات الشبيهة بالغيبوبة قادرون على تطوير نوع من التنبه، ومن ثم يستشعرون بدرجة أكبر من الطبيعي. ولم يكن للأوراكل أن يصون سمعته في العالم القديم هذه الفترة الطويلة إذا لم يكن عدد ضخم من تنبوءاته ونصائحه قد أثبت فائدته. وقد أصبح أحد الأقوال الموجودة في البهو الأمامي للمعبد جملة مركزية أو مفتاحية للحكمة الإنسانية هي: gnothi seauthon أي "اعرف نفسك".

واليوم ما زال للأوراكل معنى، ولكنه يقتصر على المجال الخاص فقط. فهي لا تلعب أي دور في المناقشات العامة. وقد بدأ انحدار عالم الكهانة في العصور القديمة ثم تسارع الأمر بانتشار المسيحية. وقد وجدت محاولات لوقف هذا كان أعجبها وأكثرها تأثيرًا تلك التي قام بها القيصر الروماني جوليان الذي يدعى بالمرتد. كان جوليان، وهو ابن أخ لقسطنطين الأول، قد أعلن بعد اعتلائه العرش عام 361 م عودته لعبادة الآلهة القديمة. لقد رفض المسيحية، وأعاد العمل بالطقوس الوثنية مرة أخرى، بل كان يريد إحياء أوراكل دلفي مرة

أخرى. وهكذا أرسل صديقه وعامله، الطبيب أورياسيوس إلى دلفي فقوبل بالقول التالي:

> قل للملك لقد دُمرت الأماكن التي كانت مزينة بالفنون
>
> فويبوس لم يعد له سقفًا، ولم تعد توجد أوراق الغار التنبئية.
>
> لقد أصبح النبع الفصيح أخرس، وصمت الماء المضطرب.

وهذه نبوءة غير مريحة ولا يمكن تفسيرها بطريقة مخالفة، وهو ما أصبح حقيقة فيما بعد. ففي عام 363 م لقي جوليان مصرعه في ساحة القتال، وبذا فشلت محاولة إحياء عالم الكهانة القديم. وكان خليفته الجديد قيصر مسيحيًا.

لعبة: رحلة زمنية إلى اليونان القديمة

إذا ما تعلق الأمر بالأوضاع الحياتية الخارجية فإن اليونانيين القدماء كانوا بعيدين جدًا عن عالم اليوم. ولا يظهر هذا فقط في الحاجة إلى سؤال الأوراكل المقدس في القرارات المهمة، وإنما أيضًا في الكثير من جزئيات الحياة اليومية. فالكثير من اليونانيين القدامى كانوا يسيرون حفاة، وكان بعضهم يرتدي صندلاً. ولم تكن الساعات معروفة، وكان الوقت يحدد طبقًا لموقع الشمس أو تبعًا لطول الظل. وكان للملابس شكل موحد، قطعتان من القماش خيطتا في بعض الأماكن فقط حتى ينتج نوعًا شبيهًا بعباءة البونشو.

وكان تأثيث البيوت ذا طابع ادخاري جدًا. فالتجهيز الفخم - كما كان البعض يرى - يبعث غضب الآلهة. كذلك لم تكن توجد في المجال الفكري الكثير من المواد المساعدة التي تسهل علينا اليوم الفكر والحساب والتخطيط. وكان "النظام العددي" - على سبيل المثال - بدائي جدًا؛ حيث كان المرء يستخدم الحروف وليس الأعداد؛ فالعدد 7864 كان يرسم هكذا (ζωξσ)، بينما يرسم العدد ألف هكذا (a). بالنسبة للرموز المستخدمة آنذاك كان يمكن للمرء كتابة كل عدد، ولكن لم يكن النظام مناسبًا لإجراء الحسابات. وكل من هو الآن في

السنة المدرسية الثالثة يمكنه بمساعدة النظام الهندي العربي الذكي أن يحسب بشكل أفضل من عباقرة العصور القديمة.

ويشبه هذا أيضًا الوضع مع وسيلة مساعدة أخرى هي "الكتابة". نعم كان قد تم ابتكارها، ولكنها لم تكن واضحة بشكل كاف. ومن ثم فقد كانت القراءة في الوقت نفسه نوعًا من التمرين على فك الشفرة، وذلك لأن القواعد "التي تسهل القراءة اليوم لم تكن موجودة آنذاك، اتجهت السطور من اليمين لليسار مرة، ومن من اليسار لليمين أخرى، أو تتغير من اليسار لليمين ومن اليمين لليسار، ولم تكن علامات ترقيم الجمل والمسافة بين الكلمات مستخدمة، فالمرء يكتب بطريقة متصلة دون مسافة لقد كان من غير العجيب إذن أن قلة من اليونانيين هم الذين كانوا يقرءون"[1].

Griechе

ولكن إذا ما فكر المرء في الوسائل المساعدة الساذجة التي كانت لدى اليونانيين يتعجب لإنجازهم الحضاري الكبير؛ فخلال عدة أجيال وضعت آنذاك الأسس العلمية والسياسية والأدبية للثقافة الأوروبية. ويبدو تأثيرهم شاملاً ليس فقط في الفلسفة: أغلب الكلمات التي تصف ثقافتنا بها إنجازاتها ذات أصول يونانية: بداية "بأوروبا" عبر "التقنية"، و"المسرح"، و"الديمقراطية"، و"الموسيقى"، و"الرياضيات" حتى "الفلسفة"، و"الفيزياء" وعلم النفس".

(1) ورد ما بين القوسين في الأصل الألماني متصلًا ودون مسافات بين الكلمات (المترجم).

المراجع

توجـد نظـرة عامـة عـلى العرافـة القديمـة يقدمهـا المقـال الخـاص في المجلـد التاسـع مـن "موسـوعة بـاولي الجديـدة للعصـور العتيقـة" (شـتوتجارت 2000). وعـن أوراكل دلفـي يخبرنـا كتـاب جديـر بالقـراءة لماريـون جيبيـل Giebel بعنـوان "أوراكل دلفـي، تاريـخ ونصـوص" (شـتوتجارت 2001).



Raimundus Lullius



18 توافيق

من منا يجرب كل التوافيق والتباديل بين القمصان والبناطيل والمعاطف الموجودة في دولاب الملابس؟ وأي طباخ يستخدم كل التوافيق الممكنة بين الخضروات والفواكه واللحوم والتوابل لابتكار طبخة لذيذة؟ فالعادات، وليس الصواب فقط، لا تقود على الأكثر إلا إلى ترابط جزء صغير من بين العناصر المتنوعة الموجودة، ولكن من المفيد في بعض الأحيان إلقاء نظرة على الترابطات التي لم يتأملها الإنسان حتى الآن.

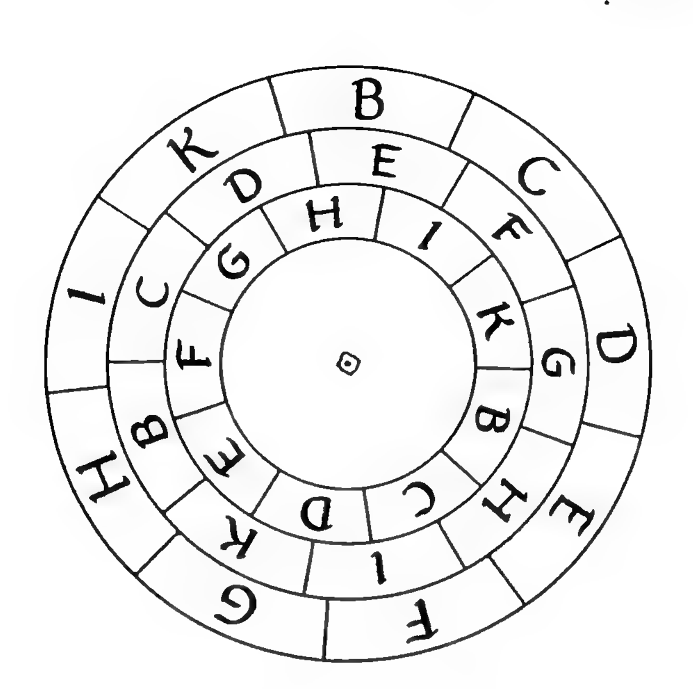
وإبان ذلك يمكن للمرء أن يتبع أحد النماذج ليرى فيه ماذا يرتدي الآخرون أو كيف يطبخون. ويمكن للمرء أن يترك للصدفة أن تربط من جديد بين هذا أو ذاك، ولكن يوجد طريق آخر يتمثل في البحث المنظم عن ترابطات جديدة.

وهذا الطريق طوره الفيلسوف الإسباني رامون لولل Llull (1235-1315). وكان دون شك أحد أغرب فلاسفة العصور الوسطى. لولل الذي يسمى أيضًا لولوس أو لوليوس ولد في مايوركا، وعاش في البداية فيما يبدو حياة غنية بالتغييرات كنبيل وتربادور ورجل حاشية، وكان عارفًا بفنون الفروسية، ثم اعتزل الحياة الدنيوية بعد تجربة دينية ميقظة، تعلم العبرية والعربية، وقام برحلات طويلة في منطقة البحر المتوسط، وذلك لأنه تعرف على واجبه الجديد وهو التبشير بين

الملحدين. وإبان ذلك كتب الكثير جدًا؛ حيث نقل عنه أكثر من ثلاثمائة كتاب. أما زوجته التي قرر إبان كشوفه الإشراقية مفارقتها بسرعة فقد طلبت من الملك معاشًا، وعللت ذلك بأن زوجها كما كتبت "أصبح درويشًا". أما لولل فوصف نفسه بأنه "فنان". وكان يعتقد أنه اكتشف أسلوبًا فنيًا يمكنه من إيجاد حلاً ذكيًا لجميع المشاكل الفلسفية واللاهوتية الملغزة. وقد عرض هذا الأسلوب في كتبه أكثر من مرة، وبصفة خاصة في كتاب ذي عنوان جميل هو "ملخص فن التوصل للحقائق"، وهم مشهور أيضًا تحت عنوان Ars universalis أي "الفن الكوني". أما مضمون الكتاب فقد جاءه، كما قال فيما بعد، عبر إلهام إلهي، وكان هذا على جبل رندا في مايوركا. في كتابه "الفن الكوني" يصف لولل أسلوبًا توافيقيًا لاكتشاف المعرفة. ويتمثل أساس ذلك في آلة تتكون من حلقتين مقصوصتين من الورق المقوي يمكن تحريكهما. فالمرء يحتاج هنا فقط لغطاءي بيرة دائريين، لم يطبع أحد وجهيهما، يقطع جزء دائري من أحدهما، وبذا يحصل المرء على دائرتين: واحدة كبيرة وأخرى صغيرة.

والآن يكتب المرء على أطراف الدائرتين صيغًا مختصرة للأشياء التي يريد أن يربط بينها. وقد استخدم لولل هنا تسعة أحرف (على سبيل المثال: خ، ع، ت، إ، ف، ح، ش) وهي ترمز لديه لمعايير وقيم عامة مثل: خير، عظمة، تخليد، سلطة، حكمة، إرادة، فضيلة، حقيقة، شهرة. ويمكن لهذه الحروف أن ترمز أيضًا لتوابل أو وصفات إذا ما تعلق الأمر بأفكار مطبخية. وتتركز الميزة الأساسية هنا في أن التوافيق تحدث بطريقة منظمة بعكس الحال مع مجرد التجريب غير المنظم. وإذا ما كتب المرء على الدائرتين كل العناصر يمكن له أن يكون متأكدًا من أنه سيخرج من خلال لف الدائرتين بكل التوافيق الممكنة. أما كونها ممكنة الاستعمال أم لا فقضية أخرى؛ فمثل هذا الحكم لا تصدره الآلة؛ فهي تنتج التوافيق ببساطة ودون أن تسأل إذا ما كانت معقولة أم لا. إنها تعمل بطريقة ما يسمى "نظام الخبراء"، أو بما يشبه البرامج الحديثة لتصحيح الكتابة التي تضع خطًا تحت الكلمات

الخطـأ عـلى شاشـة الكمبيوتـر وتقـدم إمكانيـات أخـرى، أمـا الاختيـار فتدعه للكاتب.



تبعًـا لعـدد الأشـياء التـي يريـد المـرء أن يربـط بينها سـواء كانـوا زوجين أو ثلاثـة أو أربعـة أزواج فإنـه يحتـاج لدائرتـين أو ثـلاث أو أربـع دوائـر، بـل يمكـن للمـرء نظريًـا أن يعمـل بعـشر دوائـر، ولكـن الأمـر سـيضطرب ولا يُحـاط بـه. كان لولـل يسـتخدم منهجـه في التوافيـق بطـرق متنوعـة جـدًا. وقـد اسـتنتج مـن طريقتـه في التوافيـق طريقـة انتخابيـة جديـدة، وقـد نصـح في روايتـه "بلانكفيرنـا" راهبـات أحـد الأديـرة باسـتخدامه لأجـل اختيـار عـادل لرئيسـة الديـر. فـكل المرشـحات يجـب أن يتقدمـن ضـد بعضهـن البعـض في انتخابـات ثنائيـة، وسـتكون الفائـزة هـي التـي أحـرزت العـدد الأوفـر مـن الانتصـارات. فهـذا المنهـج في ذاتـه أسـلوب عـادل ومنطقـي حـازم، ولكنـه للأسـف معقـد جـدًا. فانتخابـات الأشـخاص تقـام اليـوم بطريقـة أسـهل وأيـسر، ولكـن البطـل الكـروي الألمـاني تتـم معرفتـه

من حيث المبدأ بالطريقة التي اقترحها لولل، وذلك بالألعاب المنظمة لكل الفرق ضد بعضها البعض. وإبان ذلك لا تحسب الانتصارات فقط، وإنما أيضًا عدد أهداف الفرق والفارق التهديفي بينها.

يرى جوتفريد فيلهلم ليبنتس، الذي وجد التوافيق الوللية وطورها، إمكانية استخدامها لحل الكتابات السرية ولإيجاد أقفال أمينة بل ولحل المشاكل القانونية أيضًا. وقد طبق ليبنتس منهج توافيق لولل على القياس المنطقي الأرسطي أيضًا، وأصبح بذلك مؤسسًا للمنطق الرياضي.

ينصح باستخدام دوائر لوللس بصفة خاصة إذا كان المرء يريد أن ينجز عملية توافيق بين الكثير من العناصر مع بعضها البعض. أما إذا كانت العناصر قليلة فإن ما يسمى بالجدول التصليبي مفيد أيضًا. وإبان ذلك تكتب العناصر التي يجب عمل التوافيق بينها على الطرفين الجانبي والأعلى للجدول وتكتب النتائج فيما بينها:

	ج	د
أ	أ + ج	أ + د
ب	ب + ج	ب + د

في الغالب يكون لدى المرء زوجين من المصطلحات فقط كما في نظرية أرسطوطاليس عن العناصر. فالنار، والماء، والأرض، والهواء توصف من قبل أرسطوطاليس بذكاء من خلال عملية توافيق بين خصائص المواد (رطب - جاف) و(دافئ - بارد):

	دافئ	بارد
رطب	الهواء	الماء
جاف	النار	الأرض

ولكن كيف يمكن استخدام هذه التقنيات بطريقة عقلانية مفيدة في المجادلات الفلسفية؟ ورأيي أنها مفيدة إذا ما تعلق الأمر بتكوين نظرة عامة على منظومات اصطلاحية. الكثير من الفلاسفة يعملون بعدد محدود من المصطلحات والمواضيع والنماذج التفسيرية، وهم يجرون عملية توافيق بين هذا كله كي يتوصلوا لنظرياتهم. ومن خلال تطبيق منهجية التوافيق، سواء كان ذلك بواسطة الدوائر أو بالجدول التصليبي، يمكن للمرء أن يستشعر روابط فكرية جديدة وممكنة داخل نظام اصطلاحي محدد، ولكنها لم تكتشف بعد. ومن بين الفلاسفة المحدثين نجد أن يورجن هابرماس خاصة قد استخدم التطبيقات التوافقية، لكنه لم يستخدم دوائر لولل، وإنما اكتفى بعمل جداول بسيطة ساذجة. في جدوله حول "تصورات العالم" في كتابه "نظرية الفعل التواصلي" قام بعملية توافيق لاختلافين بهدف التمييز بين الأديان العالمية المختلفة، وقد وصل إلى الجدول التالي:

	بحث إيجابي عن خلود الروح	بحث سلبي عن خلود الروح
رفض العالم	**اليهودية والمسيحية**	**الهندوسية**
قبول العالم	**الكنفوشية**	**الميثولوجيا اليونانية**

تعد الجداول والدوائر مجرد أدوات شكلية؛ فهي لا تعمل بشكل آلي وإنما فقط إذا وجد دماغ ذكي يدقق في النتائج ويحكم عليها، فهي مدعمة للفكر وليست بديلاً عنه، لأجل ذلك يجب على المرء أن يكون على وعي دائم بأن لعملية التوافيق مساوئها؛ فهي ترينا دون جهد "نتائجًا" تبدو مهنية مقبولة. ولذا لا بد أن نحذر الاستنتاج الخاطئ للأشكال التوضيحية. فالمرء إذا ما رأى جدولاً إجماليًا يقرر بسهولة أن كل ما فيه لا بد أن يكون صحيحًا، لأنه يبدو وكأنه صحيح وواضح. ولكن ليس هذا هو الحال دائمًا كما رأينا في المثالين السابقين: فمن المشكوك فيه أن الأديان التي ينظمها هابرماس في جدوله يمكن تمييزها بوضوح من خلال هذين المصطلحين، وكذلك فإن نظرية

العناصر الأربعة الأرسطية تؤثر من النظرة الأولى بشكل مقنع، ولكن إذا ما عزل المرء أقوالاً مفردة من هذا الجدول النظامي فإنها تبدو غريبة؛ فهل الهواء فعلاً دافئ ورطب دائمًا، وأن الأرض باردة وجافة دائمًا؟

وبهذا أعود مرة أخرى إلى رامون لولل، وذلك لأنه كما يبدو قد بالغ أحيانا في الإمكانيات الكبيرة لتطبيقاته التوافقية. لقد عاش في عصر الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين. قبل سنوات قليلة من مولده استولى الملك يعقوب من المسلمين على جزيرة مايوركا؛ حيث ولد لولل. وحتى زمن لولل كان ثلث السكان تقريبًا من المسلمين، وبالإضافة إلى ذلك جاء الكثير من اليهود. وقد أعلن لولل أن واجبه هو تشجيع الحوار بين الأديان المتعادية؛ فالمرء لا يستطيع أن يهدي الكفرة بواسطة النار والحديد فقط، وإنما من خلال محاولة التفاهم والبراهين، وهو يأمل من فنه هذا ليس أقل من الإمكانية التي تسمح بتحول المسلمين للمسيحية من خلال الشروح والعروض العقلانية. لأجل ذلك فإن الرموز التي كتبها على جداوله لا تعني أية مصطلحات، وإنما القيم الروحية العليا لذلك العصر، ألا وهي صفات الله ومعايير أرسطوطاليس، وكان يعتقد أنه قادر من خلال توافيقاتها على مواجهة كل التحديات العقلية والروحية.

ولكن ذلك لم يخف على معارضيه؛ حيث لاحظوا أنه يحدد بطريقة برمجته لآلته - أي منذ البداية - ما يريد التوصل إليه. وفي عام 1306 سافر إلى بوجيه (اليوم بيجاية بالجزائر)، حيث كان لملك كتالونيا قنصلية هناك، وقد قام لولل هناك ودون هوادة بالتبشير وعرض حقيقة التعاليم المسيحية بواسطة آلة فنه الكوني. وفي النهاية تم القبض عليه، وفي السجن استقبل زيارة من العلماء المسلمين الذين سمعوا أنه يستطيع أن يظهر حقيقة التعاليم المسيحية كتابيًا. وهنا أخرج لولل آلة الحقيقة الخاصة به وبدأ في عمل التوافيق، ولكن أمر ترحيله نفذ وهو في منتصف عرضه التدليلي. وقد صعد بعد ذلك إلى سفينته وهو غاضب جدًا. وإبان زيارة تالية لبيجاية قذف،

كما تقول الحكاية، بالأحجار بعد خطبة له في أحد الشوارع من قبل المسلمين الثائرين عليه. وقد توفي في طريق عودته إلى مايوركا حيث دفن في كنيسة سانت فرانسيسكو في بالما. وقد عايش عمل لولل ألوانًا من التفسير، وكان فنه الكبير موضع شك الكنيسة، بل وقد وضع من حين لآخر على قائمة الكتب المحرمة. ولكن اعترف به في العصر الحديث كعمل رائد في مجال التوافيق الرياضية.

لعبة فكرية: متى يتم قول كل شيء؟

تتكون كل الجمل التي يمكن للمرء أن يزعمها من العلامات نفسها؛ لذا فإنه من المثير من وجهة نظر التوافيق تصور ما إذا كان من الممكن بدلاً من إعمال التفكير عمل كل ما يمكن للمرء أن يقوله من خلال التوافيق المحضة بين الحروف. من الواضح طبعًا أن المرء سيحصل بهذه الطريقة على الكثير جدًا من الأشياء غير المعقولة. بواسطة الطريقة التوافقية يمكن للمرء على كل حال أن يكون متأكدًا في وقت ما أن كل شيء قد قيل فعلاً. لقد وضع ليبنتس في إحدى ملاحظاته حول أفق المعرفة الإنسانية حسبة أو تقديرًا بذلك؛ فتعداد كل المقولات الممكنة (سواء أكانت حقيقية أم خاطئة أم غير معقولة) يصل لرقم ($10^{730000000000}$) أي أنه عدد أمامه 730 مليار من الأصفار. لتصور مثل هذا العدد لا بد للمرء من أن يتخيل كاتبًا من صنف "الشاعر الفقير" الذي صوره كارل شبيتزفيج Spitzweg، حيث يبدأ في كتابة كل هذه الجمل على بطاقات مفردة يجمعها في صندوق بطاقات تحت سريره، وإبان ذلك يصبح صندوق البطاقات مع الوقت جبلاً يرفع السرير والشاعر الذي يكتب دون كلل حتى سقف الحجرة وعبر السقف باستمرار مارًا بالقمر والكواكب. وحينما ينتهي الشاعر من كتابة كل المقولات، ويريد أن ينزل عن السرير ليذهب لناشره يكتشف أن ذلك سيستغرق سنة ضوئية حتى يعود للأرض مرة أخرى.

المراجع

للحصول على فكرة جيدة حول أعمال لولل يمكننا أن نجد ذلك في الكتاب الذي اكمل بمقالات ضافية: "كتاب الوثني والحكماء الثلاثة" (فرايبورج/برايجو 1986)، وفيه يحكي لولل عن حديث مسلم ويهودي ومسيحي التقوا "وثنيًا" في الغابة كل عن حقيقة ديانته محاولاً أن يقنع الوثني بها. وهنا يستخدم فنه الكوني أيضًا. أما لأي الأديان كان اختيار الوثني فأمر يبقى مفتوحًا. وبخلاف ذلك فإن ترتيب أجزاء الكتاب تتحدث في مجملها عن احترام المؤلف للأديان الأخرى. ولمواصلة الإطلاع على عمل لولل راجع كتاب أنتوني بونر Bonner الغني بالتصوير "دكتور الإشراق: مختارات من رامون لولل" (برينستون 1993). ويجد المرء تأملات لولل حول الانتخابات على صفحة الانترنت (www.uni-augsburg.de/lull). عرض ليبنتس لأفكاره حول التوافيق في أحد الحوارات الجميلة وصورها مع غيرها في السؤال حول عدد الارتبطات الممكنة بين ثلاثة رجال وامرأتين (راجع جوتفريد فيلهلم ليبنتس: حوار كمدخل لعلوم الحساب والجبر. تحرير وترجمة: إيبرهارد كنوبلوخ Knobloch (شتوتجارت/كان شتاد 1976). يمكن للمرء رؤية أحد الاستخدامات الجميلة لحساب التوافيق في صالة فورت للفنون في مدينة شفيبيش هال: "ماكينة الشعر" لهانس ماجنوس انتسنسبيرجر Enzensberger والتي يمكن بواسطتها تكوين قصيدة مكونة من ستة أسطر.

Banane





أسباب

"لكل موجود علة وجيهة تحتمه" توصف هذه الملاحظة المؤثرة بجملة العلة الكافية. ويعني بكلمة "علة" هنا "الأسباب"، وهي تتمتع في الفلسفة بأهمية خاصة. فقط عندما يعرف المرء السبب فإنه يعرف على وجه الدقة لماذا تكون الأشياء على ما هي عليه. وهكذا فقط يكون لدى المرء أساس وثيق للمعرفة، وهكذا فقط يمكنه أن يقنع الآخرين بحسم. الحقائق المعرفية المجردة ذات قيمة ضئيلة طالما لا يعرف المرء العلل، مصداقًا لذلك فإن البحث عن الأسباب كان لوقت طويل العمل الأهم بالنسبة للفلاسفة.

بالأهمية نفسها نقرر مباشرة - ومنذ البداية - أن جملة العلة الكافية خاطئة. فمن الخطأ أن نظن أن لكل شيء علة. فالأدق هنا هو "مبدأ العلل المتنوعة": فلكل موجود علل كثيرة؛ لذا يجد من يتهيأ لتفسير العالم دائمًا فرصة للاختيار بين إمكانيات عديدة، ومن ثم يمكن للمرء أن يبحث عن السبب الأكثر مناسبة لهدف محدد في موقف محدد.

كان أرسطوطاليس أول فيلسوف اعتنى بمصطلح "السبب"، بينما الحقائق المعرفية المجردة تخبر فقط بأن شيئًا ما موجود؛ فإن الأسباب تعلمنا "لماذا" يكون هذا هكذا. وقد أثبت أرسطوطاليس أن الإنسان يتحدث عن الأسباب بطرق وأساليب متنوعة. ومن هنا فإنه يميز أربعة معان متنوعة تبعًا للطرق أو الأساليب الأربعة التي يمكن

الإجابة بها عن سؤال بلماذا. ويمكننا أن نوضح هنا نظرية العلل المتنوعة بالمثال التالي.

لماذا يتقوس الموز؟

يمكن للمرء أن يقدم العديد من الإجابات لهذا السؤال، وهي إجابات تقود مباشرة إلى الأسباب المتنوعة التي فرق أرسطوطاليس بينها.

(1) لأن كل موزة تريد أن تصل للضوء، وهذا هو السبب الهدفي الذي يقع في المستقبل (وهو ما يسمى في اللغة العلمية: causa finalis).

(2) لأن وبر القشرة ينمو في ناحية أسرع من الأخرى، وهنا نقع على السبب المحرك (causa efficiens).

(3) لأن الاستدارة موجودة ضمن البرنامج الجيني للموز، وهذا هو السبب الشكلي (causa formalis).

(4) لأن الظروف سمحت بهذا، وهذا هو سبب غير محدد، وهو ما يسمى بالسبب المادي (causa materialis).

ربما بدا هذا المثال لسبب أو آخر مثالاً مصنوعًا، ولكن الموز كفاكهة موضع احترام في الكتابات الفلسفية؛ فهي قد مدحت في النصوص البوذية من القرن السادس قبل الميلاد وأشير إليها في القرآن. وقد عرف الغرب حكاية هذه الفاكهة المقوسة عن طريق الإسكندر الأكبر (323-356 ق.م.وتلميذ أرسطوطاليس)؛ فخلال حملته على الهند رأى رجاله حكماء البراهمة (رهبان هنود) وهم يلتهمون باستمتاع فاكهة صفراء تشبه الأصابع. وفيما بعد حينما أخذ عالم النباتات كارل فون لين Linné (1707-1778) على نفسه عهدًا بإيجاد توصيف علمي للموز تذكر هذا التقرير عن الرهبان الهنود وأعطى الفاكهة اسم: musa sapientum أي ملهمة الحكماء، وهكذا يسميها العلماء

حتى اليوم أما الاسم الشعبي Banane أي "بنانا" فمشتق من الكلمة العربية "بنان".

إلى هنا ينتهي الحديث عن الموز. ونقدم هنا الأسباب الأربعة معًا:

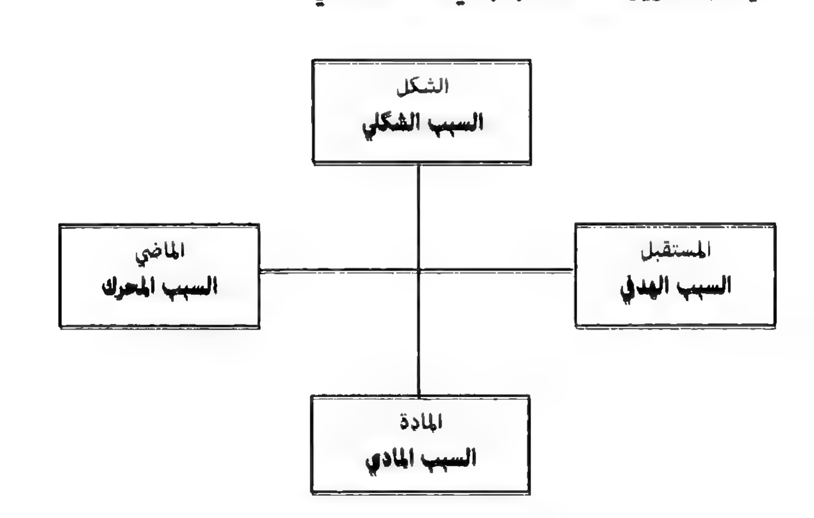
السبب الهدفي (causa finalis)

السبب المحرك (causa efficiens)

السبب الشكلي (causa formalis)

السبب المادي (causa materialis)

ويمكن تصوير هذه الأسباب في الشكل التالي:



بعد أرسطوطاليس وجدت محاولات مستمرة، كان بعضها معقدًا جدًا، لعمل منظومة من الأسباب، وسوف نلتزم هنا بالشكل الكلاسيكي؛ لأنه يقدم نظرة عامة جيدة حول الإمكانيات التي يملكها المرء إذا ما تحدث عن الأسباب والعلل.

أحد الحالات اليومية هو الحوار الذي يتأرجح بين الاتهام والاعتذار؛ فالمرء يتهم آخر بأن يحمله مقصدًا سيئًا، وإبان ذلك يتعلق الأمر

بالسبب الهدفي. أما المتهم فيحاول من جانبه أن يبحث لنفسه عن اعتذار أو توضيح من خلال الأسباب الثلاثة الأخرى التي توجد لدى أرسطوطاليس. ويمكن أن يحدث ذلك على وجه التحديد بالشكل التالي:

السيدة ماير: ألم تكن تريد العودة للبيت في الرابعة؟

السيد ماير: لقد جاءتنا مكالمة (ظروف خارجية لا يمكن التحكم فيها، سبب مادي).

السيدة ماير: الأقرب للظن أنك تريد أن انتظر مرة أخرى (لديك غرض ما، سبب هدفي).

السيد ماير: لقد كان بالفعل شيئًا مهمًا لمشروعنا التالي؛ لذا كان يجب علىّ أن أجيب (اضطرار عملي، سبب شكلي).

وهنا إليكم بعض الأمثلة الأخرى: فمن يجتاز امتحان الثانوية بدرجة طيبة يكون رأيه أن هذا بسبب اجتهاداته المنظمة، أما من يرسب فيبدو له في العادة أن الظروف الخارجية، على سبيل المثال تآمر المدرسين، هي السبب وراء ذلك.

وإذا ما فشل كتاب ما فإن المؤلف (على سبيل المثال جونتر جراس) يتهم الناقد (على سبيل المثال مارسيل رايش-رانيسكي) الذي مزق كتابه نقدًا؛ فهو وغيره هم من قتلوا كتابه. أما الناقد فيرد بالتساؤل عن استبعاد المؤلف للأسباب الأخرى لعدم نجاح الكتاب؟ على سبيل المثال أن يكون الكتاب سيئًا فعلاً.

ويشبه هذا ما يحدث في النقاشات السياسية. إذا ما بدا نمو الاقتصاد يقول المستشار: "هذا جهدي!"؛ فهو يعد نفسه سببًا محركًا لهذا النمو الإيجابي. وإذا ما هجمت موجة إفلاس وارتفع عدد المتبطلين يقول المستشار: الحالة الاقتصادية العالمية هي السبب. فالنجاح كما هو معروف له آباء كثر أما الفشل فطفل يتيم.

ويوجد حول هذا الموضوع أبحاث تجريبية إمبريقية. فعلى سبيل المثال درس علماء النفس الأمريكان تصرفات الأزواج إبان الوجود في السيارة، وكانت النتيجة أن الزيجات تنعقد في السماء، ولكنها تنفصل في السيارات، لماذا؟ لأن المرافق يميل إلى مراقبة السائق ويعد طريقته في القيادة مسئولة عن كون السفر على ما هو عليه. أما السائق فيرى من جانبه أن السبب لطريقته في القيادة يوجد في مكان آخر، ألا وهو الظرف الخارجي الذي لا يترك له مجالاً للاختيار سوى هذا التصرف أو ذاك.

والمرء لا يريد أن يتهم كل هؤلاء الناس في كل هذه الحالات التي يذكرون فيها سببًا آخر بأنهم لا يقولون الحقيقة عن وعي. وأكثر من هذا يجب على المرء أن يقر بأن الكثير من الأحداث تقع بسهولة وبساطة تجعل الناس، كل تبعًا لوجهة نظره، يجدون أسبابًا متنوعة لذلك.

الأسباب في المجالات العلمية

كذلك توجد في العلوم بشكل شبه دائم نظريات مختلفة تتسابق لشرح الموضوع نفسه. وهنا مثال من البيولوجيا يتعلق موضوعه بتطور الحياة. وهذا التطور يمكن توضيحه تبعًا لشارلز داروين -Dar win (1809-1882) بمساعدة مبدأ الانتخاب الطبيعي. وإبان ذلك يعلل شكل الأنواع وفرص الحياة بعوامل خارجية هي قابلية التكيف مع بيئة معينة.

ولكن يوجد بديل آخر لنظرية التطور الداروينية قدمتها مجموعة بحثية فرانكفورتية؛ فالمرء يمكنه أيضًا أن يراقب طبيعة التركيب الآلي أو الميكانيكي للمخلوقات، وأن يقدر من هذا الطريق، وهو بمعنى ما شيء داخلي، الإمكانيات التطورية لهذه الحيوانات. فالأحياء تناظر إحدى الآلات، آلات لتحويل الطاقة. فالأحياء تتكون من منظومة من الأغشية داخلها السوائل، على سبيل المثال العصارات أو الدماء. فالجسد الحي يمثل منظومة مائية يستوي في ذلك أكان نباتًا أم حيوانًا. ومثل هذا

المنظومة لديها، من الجانب الفيزيائي الخالص، إمكانيات محددة جدًا للنمو والتطور؛ فالتركيب الجسدي للأحياء وليست تأثيرات البيئة هو الذي يتسبب في التطور ويحدده.

فهنا لا يتم شرح التطور بسبب خارجي، هو تأثيرات البيئة، وإنما من خلال سبب شكلي هو مبدأ تركيب أو بناء الجسد الحي نفسه الذي يحدد التطور في اتجاه مؤكد تمامًا.

وهكذا يمكن شرح القضية نفسها، قضية تطور الأحياء، وعن صدق بطرق متنوعة. ومن هنا يمكن للمرء أن يستنتج أنه من المفيد دائمًا - عندما يقدم أحدهم نظرية ما بوصفها الشرح "الوحيد الحقيقي" للأسباب - محاولة تدبر إذا ما كانت توجد نظرية مضادة تقدم توضيحًا آخر، وهنا يمكن لشكل الأسباب الأرسطية أن يقدم نقاطًا إضافية.

المراجع

توجد نظرة جيدة حول مفهوم الأسباب في الفلسفة يقدمها مقال "الأسباب/التأثير" في المجلد الحادي عشر من "المعجم التاريخي للفلسفة" (بازل 2001). وعن كيفية إلحاق الأشياء بأسبابها في الحياة اليومية يمكن مراجعة أغلب مداخل علم النفس الاجتماعي التي تدور حول "الوصف أو الإلحاق التعليلي". ويمكن أن نشير على سبيل المثال إلى المقال القيم لكل من فرانك فينشم Fincham وميلس هوستن Hewstone في الكتاب الذي حرره فولفجانج شترويبا Stroebe وآخرون تحت عنوان "علم النفس الاجتماعي: مدخل" (برلين 2002). وعن معنى الإلحاق التعليلي في الأساطير والخرافات والميثولوجيا يدور مقال Ätiologie "نظرية العلل" في المجلد الأول من "دائرة معارف الخرافات" (برلين/نيويورك 1977).

Sokrates





الرموز الكبيرة

من يريد إقناع الآخرين يجب أن يكون مستعدًا لتحويل كلماته لأفعال، وهذا ما يحدث في الحياة اليومية بأن يبرهن المرء للآخر من خلال التضحيات الصغيرة والكبيرة بأنه جاد فيما يهدف إليه من صداقته وحبه وقناعاته.

فالمرء يمكنه أن يبذل المال أو العرق ويذرف الدموع للآخر أو على الأقل يجعلها تترقرق. وهذا بالطبع يفيد فقط إذا ما رافقه القول الشارح وصحبته الجدية. فالأفعال المؤثرة قليلة المساعدة إذا لم يتم التذكير بها بأسلوب حميم من وقت إلى آخر. وبعد هذا فقط يفيد القول: "ما الذي يوجد خلاف هذا ولم أفعله لك!". بالطبع يمكن للآخر دائمًا أن يقول: "هذا ما كان ينبغي عليك فعله حتى من دوني". وبالتالي نصطدم بعقدة الضحية؛ فإذا ما فعل الآخر شيئًا لي فهل هذا "فعلاً" برهان على جديته؟

بعض الأفعال لا يمكن الشك فيها، على سبيل المثال إذا ما كان إنسان مستعدًا للتضحية بحياته من أجل قناعاته؛ فإن لهذا قدرة قولية يصعب تجاوزها. وقد عرفت الفلسفة كذلك مثل هذه الحالة. إنه موت سقراط. لقد اتهم من قبل مواطني أثينا بأنه كما ادعي يقوم بإفساد الشباب. وأمام المحكمة قام سقراط بداية بمهاجمة المدعين ثم القضاة وأوضح أن عمله الفلسفي مع الشباب بمثابة خدمة للمدينة، وقد طالب بناء على ذلك بأن يثاب على عمله،

ولكن انتهت المحاكمة بإجماع القضاة على الحكم بالموت. ولم يزعج الحكم سقراط بالمرة، بل ذهب بهدوء إلى سجنه، ولم يستغل فرص الهرب المتاحة؛ لأن الهرب ضد مبادئه. لقد كان مستعدًا لتحمل النتيجة النهائية لأفعاله.

أما ساعاته الأخيرة فقد رويت لنا من قبل أفلاطون. وقد قضى سقراط هذه الساعات في السجن الذي ينبغي على المرء أن يتصوره بصورة جيدة؛ حيث وجد فيه كما يحكي أفلاطون حمام حقيقي. وكذلك كانت الزيارة مباحة وبالتالي تمكن سقراط في ساعاته الأخيرة من أن يتسامر مع طلبته. لقد كان مزاجه رائقًا بل وحاول أن يتعلم العزف على آلة الهارب. وحينما سأله أحدهم لماذا يهتم بهذا الأمر في هذا الوقت بالذات. أجاب متسائلاً: "ومتى يمكنني إذا أن أفعل هذا؟". وأخيرًا جاء ساعي المحكمة وقال: "يا سقراط. أنا لن أغضب منك، ولن أشتكي مثلما أفعل مع آخرين؛ لأنهم يصبحون سيئين معي ويلعنونني عندما أطلب منهم تجرع السم بناء على أوامر الرؤساء".

وقد حاول تلاميذ سقراط أن يضغطوا عليه بأن لا يتسرع في الشرب؛ فالشمس ما زالت مشرقة على الجبال، وقد طلب الآخرون نساء جميلات أو غلمانًا أو أكلات لذيذة أو مشروبات، وسألوه إن كان يجد رغبة في شيء مثل هذا؟

فقال سقراط: "لديهم الحق في أن يفعلوا كما تقول وذلك لأنهم يعنون بأن يكتسبوا شيئًا إذا ما فعلوا هذا، وكذلك فإن لدي الحق نفسه في ألا أفعل هذا، وذلك لأنني أظن أنني لن أكسب شيئًا إذا ما أخرت شربي قليلاً سوى أنني سأخجل من نفسي إذا ما التصقت بالحياة وأردت الادخار فيما لا يبقى".

ثم أخذ كأس سم الشوكران وسأل ساعي المحكمة عما إذا كان المرء يستطيع أن يقدم مثله قربانًا للآلهة، وهذا ما نفاه الساعي قائلاً:

"نحن نجهز الكمية الضرورية فقط".

"أفهـم هـذا، ولكـن التعبـد للآلهـة مسـموح بـه، ولا بـد للمـرء أن يفعـل هـذا حتـى يكـون الانتقـال مـن هنـا إلى هنـاك سـعيدًا طيبًـا. ولـذا فإننـي أتعبـد هنـا أيضًـا متمنيًـا أن يحـدث لي مثـل هـذا أيضًـا".

ثم تناول الكأس وتجرعه.



كان الشـوكران Schierling سـمًا منتشـرًا جـدًا في العصـور القديمـة، وهـو يحتـوي كـما يعـرف المـرء اليـوم عـلى عنـصر الكونـين القلـوي، وهـو موجـود بكـثرة في الفواكـه غـير الناضجـة. ولأن هـذا السـم يتحلـل في الهـواء بسـهولة لعنـاصر أخـرى يجـب أن يعـد قبـل تناولـه مبـاشرة. ولأنـه إذا اسـتخدم بكميـات قليلـة يكـون لـه أثـر المخـدر، فإنـه اسـتخدام في العصـور القديمـة كـدواء ضـد الهيجـان الجنـسي. وقـد روي - عـلى سـبيل المثـال - أن الرهبـان الذكـور في معبـد ديميـتر، إلهـة الزراعـة والغـلال، في إلويـزس الذيـن يمارسـون عملهـم بـين النسـاء كانـوا يشربـون كميـات قليلـة جـدًا مـن شراب الشـوكران حتـى لا يثـاروا جنسـيًا. ويبقـى أن نقـول أن الشـوكران ينمـو في ألمانيـا أيضًـا عـلى أطـراف الطـرق، وفي الغالـب لا يتـم التعـرف عليـه وسـط أشـجار التوابـل الأخـرى. ولكـن لنعـود الآن إلى مشـهد السـجن حيـث كتـب أفلاطـون:

"كانـت الغالبيـة فيـما بيننـا حتـى تلـك اللحظـة في حالـة تسـمح لهـا بالتماسـك وعـدم البـكاء، ولكننـا حـين رأينـاه شرب وابتلـع لم نعـد قادريـن عـلى ذلـك، حتـى أنـا نفسـي لم تترقـرق دموعـي فقـط، وإنمـا انهمـرت بشـدة حتـى اضطـررت أن أخبـئ وجهـي... أمـا كرايتـون فقـد نهـض قبـلي، وذلـك لأنـه لا يسـتطيع أن يتحكـم في دموعـه. أمـا أبوللـودوروس الـذي شرع في البـكاء مبكـرًا فقـد انهـار الآن تمامًـا، ولم يعـد قـادرًا عـلى التحكـم في حركاتـه، ولم يوجـد بيننـا مـن لم يهتـز لبكائـه.

أما سقراط فبقي هادئًا بل أمر بترك البكاء؛ لأنه قد سمع أن على المرء السكون، إذا حضر وفاة أحدهم. ثم أخذ يتحرك حتى كلت قدميه وانعدم إحساسه بهما، فتمدد وأخيرًا أصبح جسده باردًا بالكامل، وحينما لاحظ أن السم بدأ يهاجم القلب قال جملته الشهيرة:

"كرايتون. نحن مدينون لإسكليبيوس بأحد الديكة".

ثم مات.

أما إسكليبيوس المعروف أيضًا باسم إسكولاب فكان إلهًا للمرض والشفاء لدى الإغريق، وكان المرضى يقدمون له الأضحيات إذا ما تم شفاؤهم فجأة.

هكذا مات سقراط موتة الشهداء دفاعًا عن فلسفته، وكان هذا موتًا متحضرًا لأحد أصحاب المروءة. هذا ما يبدو على الأقل من وصف أفلاطون لموته؛ فهل تصرف فعلاً بهذا التحضر؟ الموت بكأس الشوكران ليس موتًا مريحًا كما نعرف من مرويات أخرى. فسم الشوكران يؤثر بما يشبه تأثير السهام المسمومة بمادة الكورار التي تستخدمه في الصيد بعض القبائل الهندية التي تعيش بالقرب من نهر الأمازون. فهو يشل الأعصاب المحركة للعضل ولكنه يبقى القدرة على الإحساس، ولذا فإن الإنسان المسمم بالشوكران يحتفظ بوعيه حتى النهاية؛ حتى يأتي الموت عن طريق توقف التنفس. أما البرد والفتور المتصاعد من أسفل لأعلى فهو مجرد صياغة فنية لما حدث. أما الأعراض المرضية للتسمم بالشوكران فهي احتراق في الرقبة، وجريان الريق والقيء، والدوخة وارتعاش العضلات ثم يبدأ الشلل المتصاعد وموت يكاد يكون مفاجئًا. ويعطينا نيكاندروس، المؤلف الإغريقي لإحدى القصائد التعليمية، الصورة التالية للموت بالشوكران، وهي تختلف عما قدمه أفلاطون:

لتتعلموا الآن شيئًا عن الشوكران وأية عذابات يحدثها:

يربط حول الهامة رباط دموي من الليل الغميق،

فترى العيون أنوارًا كاذبة،

وتتعثر الأقدام بشدة،

يسقط المرء على اليدين ويكح دائرًا حول نفسه،

الأنامل تبرد وتدمى،

ولا يكاد المرء يتنفس،

وقد أسره الغيظ الشديد.

لا، إن الموت بواسطة كأس الشوكران لم يكن بالتأكيد شيئًا سهلاً مريحًا؛ فالمرء يحتاج لطاقة جبارة حتى يتحمل الموت بهدوء مثل سقراط، كذلك يمكن لموته أن يصبح نسبيًا إذا ما تذكر المرء أنه كان آنذاك في السبعين من عمره، ولكن هذا لا يقلل شيئًا من الانطباع الذي أحدثه عمله الكبير عبر مئات السنين؛ حيث حكي عنه بنشاط مستمر، بل رسم مرات عدة. ومن يدري ربما لم تكن الفلسفة لتصبح مشهورة دون كأس الشوكران هذه؛ فموته الذي خُطط له ببراعة رسخ سمو وجلال الفكرة التي أراد الدفاع عنها. وبعد خمسة قرون كتب المؤلف الروماني ماركوس فابيوس كفنتيليانوس: "باستغنائه عن السنوات القليلة الباقية له كسب خلودًا عبر القرون".

عـن التضحيـة في العصـور القديمـة يخبرنـا المقـال الشـامل حـول الموضـوع في المجلـد الثامـن مـن "موسـوعة بـاولي الجديـدة للعصـور العتيقـة" (شـتوتجارت 2000)، وكذلـك مقـال "الضحيـة" في المجلـد العـاشر مـن "دائـرة معـارف الخرافـات" (برلـين / نيويـورك 2002). وتوجـد ملاحظـات مهمـة حـول نظريـة الضحيـة لـدى كارل هيلشـير Hielscher في مقالـه "حـول موضـوع الضحيـة في المـال وعلاقتـه مـع الفنـون" في الصفحـات مـن 34-23 مـن العـدد الثـاني مـن مجلـة "روندشـاو الجديـدة" (السـنة 92/ 1980). لأجـل البرهنـة بالتضحيـة بالنفـس يمكـن أن أسـمي فقـط الفقـرة 58 مـن مصـدر فرنـسي: هـو كتـاب كل مـن شـام بارلمـان ولـوسي أولبريشـت- تيتاكـه وعنوانـه "مبـادئ البرهنـة، الخطابـة الجديـدة" (بروكسـل 1992).

خاتمة

تعيش الفلسفة على الحوار والنقاش وتبادل الأفكار والآراء، وإبان ذلك لا يعتمد الأمر على التمكن من سلسلة التطبيقات؛ فهو يقترح أو ينصح بنوع معين من التصرف. فالأمر في المناقشات الفلسفية لا يدور حول إقناع الآخرين بكل الوسائل برأي ثابت، وإنما الأهم من ذلك جدًا المشاركة في تطوير شيء محدد.

ولأجل ذلك ينصح منذ البداية بأن يؤخذ في الاعتبار أن الآخر يمكن أن يكون لديه الحق. لأجل السيطرة على إرادة الفوز العنيدة التي تدمر المناقشات الموضوعية ينصح كبار فلاسفة العصور القديمة بأن يكون للمرء في كل موضوع رأيين متناقضين وليس رأيًا واحدًا فقط. وهذا عمل رياضي صعب ولكنه مفيد، وذلك لأن من يعرف رأيًا واحدًا يميل إلى جعل هذا الرأي مقياسًا لكل الأشياء، ولذا يَسمون وبسرعة كل ما يقوله الآخرون بأنه خطأ وغير معقول.

حتى غير المعقول الموهوم يحتوي غالبًا، هذا إذا ما لوحظ عن قرب، على معنى خبئ. إلى أي درجة من اللامعقولية بدت على سبيل المثال للعلماء التنويريين في القرن الثامن عشر الخرافات والأساطير حول التنانين والوحوش وأحادي القرن! وحتى اليوم تعد نماذج خالصة للاعتقاد في الخرافات. ولكن إذا ما تتبع المرء هذا الموضوع يتبين أن خرافات التنانين ليست نتاجًا تخريفيًا شاذًا للفانتازيا المزدهرة. وذلك لأن الأساطير والوحوش والحيوانات المتخيلة لم تكن دون أسباب؛ لقد وجد البشر "حفريات" متحجرة.

هكذا وجد على سبيل المثال بالقرب من كلاجنفورت في عام 1335 جمجمة عظمية ضخمة لم يتمكن من نسبتها لأحد الحيوانات المعروفة. وقد لحموا هذه القطعة العجيبة بسلسلة من الحديد وعرضوها في مبنى البلدية. وقد اعتقد أهالي كلاجنفورت أن الجمجمة تخص أحد التنانين التي عاثت فسادًا في وقت ما في هذه المنطقة. وفي نهاية القرن السادس عشر صُمم تمثال بالحجم الطبيعي، أي كما

يمكن أن يقال إعادة تكوين للتنين. وقد نفذ هذا التصميم عام 1636 من قبل أحد المثالين. وإلى اليوم يمكن رؤية هذا التمثال الذي يمكنه التدليل على الأساطير التي كان الناس يحكونها آنذاك.

وللأساطير دائمًا بذرة حقيقية، ويجب هنا أن أشير إلى أن الموضوع لا يتعلق أو لم يكن بالضبط جمجمة تنين يقذف النيران ويبتلع العذارى، ولكنه كان بالتأكيد حيوان كبير شغلت جمجمته خيال أهالي مدينة كلاجنفورت. ويرى علماء عصرنا أنها جمجمة خرتيت ذو شعر كثيف.

يحتمل أن الحكايات عن الغيلان والجبابرة التي توجد - على سبيل المثال - في ملحمة "الأوديسة" مستلهمة أيضًا من العثور على عظام متحجرة، دائما ما يوجد في جمجمة الماموث أو أي نوع من أنواع الفيلة الأخرى ثقبًا في منطقة الجبهة.

مثل هذه الأساطير التي تدور حول تلك الكائنات الخرافية، والتي تمت السخرية منها في عصر التنوير من قبل بعض التنويريين، لم تعد موضع سخرية في رويتنا المعاصرة، وذلك لأننا نعرف اليوم أنه وجد على الأرض الكثير من الكائنات المتوحشة أكثر من كل ما وصف في الأساطير والخرافات القديمة. فالحقيقة تكون أحيانًا أكثر خيالية مما يتصوره المرء.

لا يوجد شيء غير فلسفي مثل الرأي الذي يرى أن فلسفته الخاصة هي الحكمة الأخيرة، وذلك لأنه لدى بحث الحقيقة فإنه يجب الإقرار بما قاله أرسطوطاليس في فقرة مشهورة من كتابه "الميتافيزيقا": "إن أحدًا لا يمكنه أن يحوزها كاملة، وإنه لا يمكن لأحد من ناحية أخرى أن يخطئها بالكامل". فلا بد للمرء أن يكون مستعدًا للتعلم من الآخرين، وأن يمتلك في الوقت نفسه القدرة والشجاعة لإعمال فكره، وبهذا المعنى فإنني أتمنى للقارئ السرور والغبطة بالتفلسف.

تعريفات مختصرة

المؤلف

د. ينس زونتجن (Jens Soentgen)

ولد سنة 1967 في بينسبرج، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة بعمل حول مفهوم المادة. وقاده العمل كمدرس للبلاغة والفلسفة إلي العديد من الجامعات الألمانية، وعمل لمرات كثيرة أستاذًا زائرًا في البرازيل. عمل منذ سنة 2002 كرئيس للمركز العلمي للبيئة بجامعة أوغسبورج، ثم حصل على درجة الأستاذية في الفلسفة سنة 2015 من جامعة أوجسبورج في ألمانيا، ويعمل منذ سنة 2016 أستاذاً مساعداً للفلسفة في جامعة ميموريال بكندا. في سنة 2001 صدر عن دار بيتر هامر للنشر كتابه: قصة حلوى عيد الميلاد Zimtsternstory (مع صور تشكيلية لناديا بودا).

الرسامة

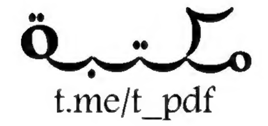
ناديا بودا (Nadia Budde)

ولدت سنة 1967 في برلين، وعملت في مجال الإعلانات، وذلك قبل أن تدرس فن الجرافيك في المعهد العالى للفنون فى برلين فيسنزيه. وقد حصلت عن أول كتبها المصورة "واحد اثنان ثلاثة حيوان" (1999) على الجائزة الألمانية لأدب الشبيبة. وقد منحت العديد من الجوائز عن كتبها المصورة التالية، والتي صدرت جميعها عن دار بيتر هامر مثل "النمر الحزين يشوي الطماطم" (2000) و"بعد السادسة بلحظات تأتي السحليات" (2002). وقد صدر لها مؤخرًا (2003) عن الدار نفسها كتاب: "One two three me".

المترجم

د. عبد السلام حيدر (Abdelsalam Heder)

ولد سنة 1965 في الجيزة، وحصل على دكتوراه الفلسفة في الآداب من جامعة بامبيرج. عمل مدرسًا للعربية كلغة أجنبية فى جامعة بامبيرج والجامعة الألمانية بالقاهرة. وصدر له حتى الآن كتابه "الأصولى فى الرواية" (2003)، وترجمته لكتاب "الشرق والغرب" لأنّا مارى شيمل (2004)، والمجلد الأول من تحقيقه للأعمال الكاملة لإبراهيم عبد القادر المازنى (2006).



كان أغلب الفلاسفة المهمين تقريبًا من جامعي الكتب. على سبيل المثال أفلاطون، وكان رجلاً غنيًا، كان يشتري النصوص الفلسفية النادرة، حتى أنه كان يدفع أحيانًا مبالغ طائلة. وكان أرسطوطاليس نفسه يمتلك مكتبة كاملة أهداها بعد وفاته لتلميذه ثيوفراسطوس. ولكن جمع الكتب يعد فقط المظهر الخارجي للتجميع الفلسفي. الفلاسفة "جامعو أفكار". حتى القراءة، هذا النشاط القديم للفلاسفة، هو لون من ألوان التجميع. وحتى اليوم يمكن للمرء، في اللغة الألمانية، أن يتحدث عن الـ (Weinlese) أي قطف العنب وجمعه، وأحد أنواع القطف أو الجمع هذه تتمثل في قراءة أحد الكتب؛ فالقارئ يتجول عبر السطور والصفحات مثلما يكون الحال في التجول عبر حقل العنب، وهو يجمع إبان تجواله الفواكه العقلية والروحية من هنا وهناك

